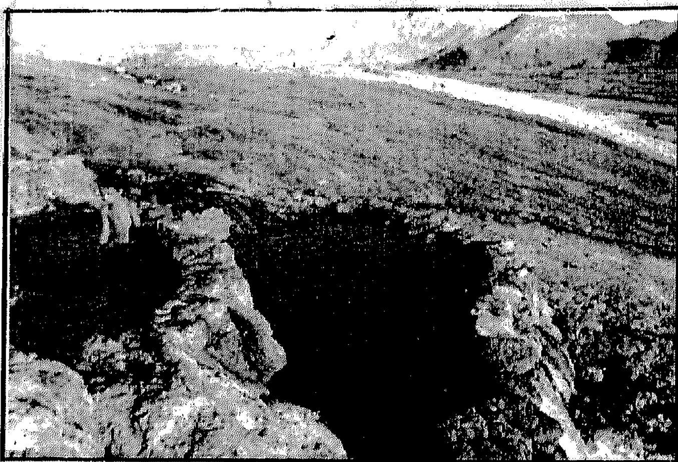
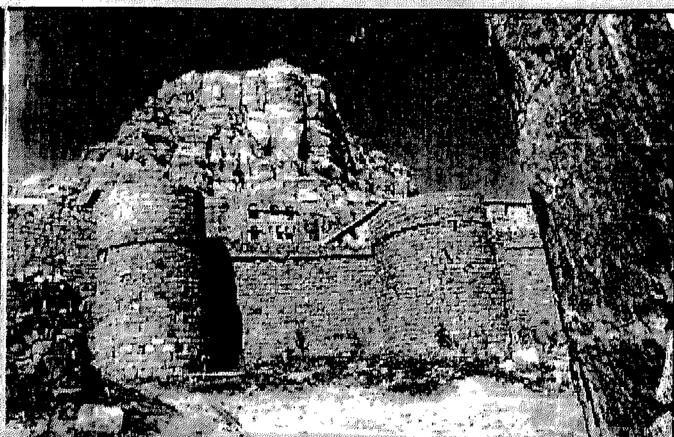






محمد الشعيبي

اليمن :

الظواهر الطبيعية

و

المعالم الاثرية

درا[illegible] ومنهجية

محمد الشعيبي

اليمن:

الظاهرات الطبيعية والمعالم الأثرية

دراسة تطبيقية ومنهجية

YEMEN ..
Natural Phenomena and Archeological Land Marks

By : Mohammed AL-shuaibi.

الطبعة الأولى ١٩٩٨م

- صنعاء - الجمهورية اليمنية
حي الجامة القديمة «كلية الآداب»
شارع رقم (١٩) -منزل رقم ٢٢
هاتف : ٢٧٧٢٤٠

الصف الإلكتروني : دار الكتاب الجامعي،،،

رقم الايداع في دار الكتب العامة (صنعاء)
(١٤١) ١٤ / ٧ / ١٩٩٨م

(قبل قراءة الفهرس)

يأتي هذا الكتاب استجابة لضرورة مجابهة الأخطار المرضية التي يعاني منها بعض الناس وذلك نتيجة ممارسة الاستحمام الجماعي العشوائي داخل أحواض منابع المياه المعدنية العلاجية المنتشرة على طول الساحة اليمنية، وذلك في ظل ظروف الأوضاع البدائية لهذه الحمامات، وانعدام الوعي الصحي لدى المواطن فضلا عن غياب الاستشارة الطبية الحكومية والخاصة، وفساد أجواء البيئة المحيطة، وتلوث مخزون مياه الحمامات هذه وانتشار الأمراض المعدية.

ولايقل أهمية عن ذلك .

الهدف الثاني للكتاب ممثلا في مجابهة الأزمة المعرفية التراثية التبي تعيش أوج ازدهارها اليوم في ظل رعاية وزارة الثقافة والسياحة، وقيام أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة بإعادة إنتاج هذه الأزمة وتعميق جذور الأمية الثقافية التراثية وذلك على طريقة: (جاء يكحله زاد أعماه) كما يقول المثل الشعبي.

الفهرس

الرقم المسلسل . رقم الصفحة

الباب الأول

الباب الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

ماذا يقول التاريخ الطبيعي عن منشأ وتكون الحياة على الأرض اليمنية، كما عن التركيبة الجيولوجية والظاهرات السطحية والتفاعل الجيوفيزيائي والديناميكية الهيدروجيولوجية؟
وعن إبداعات الإنسان اليمني القديم على تخوم الألف الأول قبل الميلاد،
وماهو رأي العلم المعاصر في ذلك؟

تجيب على هذه الأسئلة نتائج أعمال البحث والدراسة العلمية التطبيقية والتاريخية التي تولت ضمن صفحات الكتاب معالجة بعض تلك القضايا المعرفية قيد الدراسة والهم الفكري الاستشراقي العالمي، والتي لاتزال خاضعة على الصعيد الأكاديمي والثقافي المحلي للنظرة الأحادية والنقاش البيزنطي، وموضع تخمين وتكهن العقل الاجتماعي العام بالتالي، المحكوم بمنظومة علاقات الجهل والتخلف وبنزعة التعصب الفكري والعداء للرأي الآخر وعدم الاستعداد لتمثل روح العصر والتكيف مع حقائق مفرداته وآلياته النافذة، ورفض الاحتكام بالتالي إلى نظمه وقوانينه وتشريعاته المدنية المتقدمة.

حاولت الدراسة الابتعاد قدر الإمكان عن الدوران في فلك هذه المنظومة، واتخذت لنفسها بدلا عن ذلك مسارا مغايرا يتوائم مع مبدأ ممارسة التفكير المستقل ومع ماتفرضه متطلبات وسائل العلم وشروط أعمال البحث الميداني، وكان نصب عينيها على الدوام مسألة الحفاظ على الموازنة بين نتائج معطيات العلوم المادية من جهة والفرضيات النظرية والاجتهادات الفكرية من جهة أخرى.

وبقدر مااستفادت الدراسة من المدونات التاريخية ومن نتائج أعمال الباحثين والمستشرقين وتقارير الرحالة العرب والأوروبيين ودراسات الأنثروبيولوجيين الأمريكيين المحدثين، فقد تملكها -من ناحية أخرى- أعمال الحفر الأثري الاختصاصي وانجازات أساليب المسح الجوي (المورفولوجي) السوفيتي واستخدامات أجهزة القياس الإشعاعي البيكربوني، توازى ذلك مع مهمة استنطاق لغة النقوش واستكشاف مابين السطور وماخلف جدار المعابد ورسوم الهياكل ومباني القلاع والحصون ورصف الطرق وشق الأنفاق الجبلية المائية والجسور المعلقة وتشييد صرح الصهاريج والسدود العملاقة، والنظر أخيرا في مغزى وأهمية مشاريع أعمال التعدين القديمة واستخراج المواد الخام المعدنية الثمينة وكفائة وسائل الانتاج وتفوق حجم معدل الدخل الوطني من العملات الأجنبية ومن مردود التبادل السلعي الخارجي، بمعنى انفتاح الدراسة على الرأي الآخر والاعتماد بالتالي على العلم كوسيلة للحصول على بعض عناصر المعرفة اليقينية التي شكلت على هذا النحو أو ذاك مضمون صفحات الكتاب.

مقدمة الطبعة العربية

يمكن القول بلا تحفظ بأن العقلية اليمنية المعاصرة قد تأخرت بما فيه الكفاية عن العصر، وتغيبت كثيرا عن ممارسةالعقلنة، واحتراف طريق العلم، الأمر الذي باعد بين أن تنظر هذه العقلية إلى الأشياء من حولها على حقيقتها، والافتقار بالتالي إلى تقييم هذه الأشياء، واقتدار التعامل معها، بعيدا عن النظرة العاطفية التي كثيرا مايرتكب في ظلها بعض الأخطاء الفكرية المميتة، الأمر الذي يضع هذه العقلية تحت طائلة التخلف العلمي، واللامبالاة بالتالي تجاه القضايا الاجتماعية الحساسة، والمسائل الوطنية الرئيسية منها والثانوية على السواء.

ليس من تفسيرلذالك سوى أن العقلية اليمنية المعاصرة هذه لم تتعود السير على هدي نور العقل وتحكم خطاهاعواطف ومشاعر الانسان البدائي، الذي لم يلقن منذ الصغر معرفة معنى العقل، ولم تعلمه المدرسة فن الحوار مع الآخر، كما مع الأشياء من حوله، وجعل هذه الأشياء على الدوام موضع تساؤل هذا الإنسان مع نفسه ومع مايراه، ويقدم له في المدرسة، أو يقرأه في الكتب، أو يشاهده على الشاشة،الأمر الذي يتطلب إنتهاج اسلوب تربوي وثقافي مغاير يتجاوز حدود الاطروحات الفكرية السائدة المتخلفة،حيث حاجة الطفل اليوم والطالب معا الى من يفتح عينيهما مبكرا على الاشياء الموجودة من حولهما الصغير من هذا الاشياء والكبير، بما فيها تلك الأمور التي،تبدو في نظر البعض غير ذات أهمية مَن قبيل الظاهرات الأرضية، ومناظر الطبيعة والمواقع التاريخية، وأشكال الأماكن والأطلال الاثرية حول معنى هذه الأشياء وإلى ماترمز، وأي علاقة لها بحياتنا، وبماضي من سبقنا، هذه الأسئلة البسيطة كانت ولا تزال تمثل لدى التربويين الأوروبيين والأمريكيين، نقطة البدء في تعلم فن الحوار وشحذ العقلية الابتكارية عند

الطالب الأوروبي الذي لم يتوانى عند الكبر عن قطع آلاف الأميال نحو الشرق سعيا وراء إشباع نهمه المعرفي، وتطلعه العلمي، والوقوف على معالم حضارة الشرق والاستمتاع بمناظر الطبيعة فيه، وتفهم جوهر ابداعاته، ومحاكمة هذه الابداعات في ضوء معارف العصر، وانجازاته التقنية، والفنية والمعمارية، والتي تشربها هذا الإنسان صغيرا وشارك بعقله فيها عند الكبر.

في حين يقف الانسان اليمني المعاصر للأسف غير مبال تجاه تلك المسائل ويعيش بسبب ذالك الإنغلاق في حالة جمود يصعب عليه الإجابة على أسئلة العصر، ويتراجع أمام طرح أي تصور عن معطيات الماضي، وإبداعات الأجداد، فوق أنه على عكس الزائر الأوروبي، محروم من تذوق جمال الطبيعة، وسحر بيانها، ويجهل بالتالي خصائص الأرض على صعيد المكون الجيولوجي، والموقع الاستراتيجي، والمنتجع الصحي والمكان الاثري، لالشئ سوى أنه قد افتقر منذ الصغر لروح الملاحظة، وافتقد على عكس الطالب الأوروبي، حب المغامرة، وتعشق جمال الأشياء وتعلم فن الجدل والحوار مع هذه الأشياء، ومحاولة استكشاف ماهيتها، وعلاقتها بحاضر حياة الأمة وماضيها ومستقبلها، تلك هي القضية التي تواجه الفكر اليمني التربوي المعاصر وذلك في غمار مجابهة بنيته المتخلفة . وحيث يتوجب الإسراع بفتح ثغرة ولو بسيطة في جدار الصمت المعرفي الثقافي التربوي وهومانيزع إليه مغزى إعداد وإصدار هذا الكتاب العلمي الوثائقي.

مكونات الكتاب

تشتمل موضوعات الكتاب على ثلاثة أقسام معرفية متنوعة موزعة على بابين رئيسيين تولى الباب الأول دراسة بعض القلاع والحصون التاريخية الرئيسية وعددمن مواقع المدن الاثرية وأماكن العبادة القديمة، بما فيها مبنى الجامع الإسلامي الكبير في صنعاء، إضافة إلى منجم الفضة وأماكن التعدين القديمة في بلاد نهم، ونفق بينون الجبلي المائي في بلاد الحداء، وصهاريج عدن، ومنشئات الري الاخرى في مأرب وحضرموت، تناول البحث اخيرا في هذا الباب دراسة وضع جزر البحر الاحمر في علاقتها بالساحل اليمني، وبمجرى تاريخ حياة هذا الحوض المائى الدولي وجاذبية شواطئه الرملية الذهبية، ودور الإنسان اليمني الأول في إرساء علاقات الصداقة والتجارة مع العالم.

تم دراسة هذه المواضيع على الصعيد التاريخي والتوزيع الطبوغرافي، كما على الصعيد الاستراتيجي الدفاعي والأمني، وعلى مستوى المهارة الفنية في الهندسة المعمارية بالنسبة لمباني القلاع، والانفاق ، والمعابد، ومنشئات الري القديمة، وانماط العمارة ومواصفات الفنون التشكيلية، ونحت أنواع التماثيل البشرية والحيوانية والنباتية واتقان فن الملاحة البحرية وعلومها التطبيقية الجغرافية والفلكية.

اقتصرت أعمال البحث والدراسة بالنسبة للقلاع والحصون، وذلك على قلعة القاهرة في مدينة حجة، وقلعة مدينة ثلا، وحصون الطويلة، وقلعة كل من قصر السلاح في صنعاء، والمقاطرة، وذبحان في أراضي الحجرية، كما في صرواح، وبينون وغيمان، حيث كان التاريخ يقف هناك، وتتقاطع داخله أحداث الوطن وفواجعه الممتدة على طول الساحة اليمنية.

في حين كرس الباب الثاني لدراسة بعض مواقع ينابيع المياه المعدنية العلاجية في كل من

هضبة منطقة دمت، وآنس، والعدين، وجبل صبر وجبل العود، وبلاد الروس، والحيمة الداخلية وحمام السخنة في تهامة.

مكونات هذه المواقع الطبيعية، وجمالية مناظرها السياحية وتركيبتها الجيولوجية، والجيوفيزيائية من ثم وطبيعة مخزون المياه المعدنية، ونوع العناصر الكيميائية، والفوائد العلاجية، والأضرار المصاحبة، مع دراسة وتتبع مستوى أوضاع الخدمة وطرق وأساليب المعالجة البدائية السائدة، ورأي العلم المعاصر في هذه الأوضاع واقتراحات العلماء والباحثين الأجانب الزائرين، بخصوص تطوير عمل هذه المواقع، وموقف الدولة أخيرا والأجهزة التنفيذية من هذه الاقتراحات والتوصيات، التي وصل بعضها حد التحذير من الأخطار التي تهدد مخزون المياه المعدنية العلاجية بالتالي، وتلحق بأراضيها الجميلة التشوه، وافتقاد البلد لأهم مصادر الثروة الإقتصادية السياحية التي كان يظن أنها لن تنضب.

منهج البحث والدراسة

التزم البحث بمبدأ المنهج العلمي التجريبي، وبالرؤية المادية والروحية على الصعيد التاريخي، والوضع الاجتماعي، وتطلب الأمر - في ظل ذلك - انتهاج مجموعة من الخطوات العملية والنظرية، تمحورت الأولى في الزيارات الميدانية، والممارسة العلمية عبر القيام بالتحاليل المخبرية، والملاحظة السريرية، والمقابلات الشخصية، والمراقبة الخارجية.

وعلى المستوى النظري تم الاعتماد على المدونات التاريخية والمراجع العلمية المعاصرة، والمصادر المعرفية الأجنبية المباشرة ممثلة في تقارير فرق البحث العلمية الروسية، والتونسية والإيطالية والتشيكية والفرنسية.

ولاننسى في الاخير استخدام أسلوب منهج البحث المقارن حيثما يقع التناظر والتماثل للأوضاع والاشكال المدروسة هذه في أنماط حياة وأوضاع كل من المنتجعات الصحية وفنون العمارة، لدى العديد من البلدان المجاورة والبعيدة التي تم مقارنتها بالموجودات المحلية في هذا الخصوص، واكتشاف خصائص ومميزات الاشياء المحلية هذه وذلك في ضوء ماعند الاخرين، كمافي ظاهرة المؤثر الثقافي الخارجي على معطيات عملية التجديد، في هندسة العمارة، وذلك عن طريق تبني أساليب معمارية هجينة وفدت من فارس، والشام، وبيزنطة، سوف تواجهنا بصماتها في أعمال النحت والفن التشكيلي الحميري المتأخر، كما في بعض مبنى عمارة الجامع الكبير في صنعاء، وهندسة بناء القلاع والحصون العائدة للقرون الوسطى، والعهد العثماني الحديث حيث لم يكن بغير هدى المنهج المقارن هذا استكشاف مظاهر أعمال التطور في حياة العمارة اليمنية، فضلا عن المساعدة على تفهم طابع الخصوصية والفرادة في أنماط هندسة العمارة الكلاسيكية غير المدجنة في كل من مأرب، والجوف، وصرواح، وضفار، والتي لم يخالطها مؤثر شكل العمارة الغربي اليوناني والروماني ولاحتى نمط العمارة الفارسي، وبلاد الرافدين.

حيث لم تظهر بوادر تلك المؤثرات إلا مؤخرا في العهد الهلنستي، عبر عنه شكل تصميم وملامح تمثال القائد الحميري ذمار علي الذي أعيد إصلاحه وترميمه مؤخرا في ألمانيا، كذا في بعض أشكال إبداعات حضارة (أوسان) و (قتبان)، وذلك كما سوف نرى في سياق أعمال الدراسة والبحث هذه، التي تناقش لأول مرة -مثل هذه الإطروحات العلمية- وذلك إنطلاقا من واقع المعطيات الثقافية المعاصرة، والأطر المعرفية الجديدة، والاكتشافات الاثرية الاخيرة.

أكثر من هذا فقد أمكن بفضل استخدام منهج علم البحث المقارن تفهم حقيقة عمق الصلة الحميمة بين طابع المكونات الطبيعية للأرض اليمنية، وموقعها الاستراتيجي

بالتالي -شديد التأثير على صعيد العلاقة مع الآخر- وبين حركة تاريخ حياة الإنسان القديم على هذه الأرض، على صعيد تكون منظومته الفكرية، وتشكل طابع علاقاته الاجتماعية والإقتصادية والسياسية، وانعكاس أثر هذه العلاقة التي لاتخلو من الجدل وذلك على تحديد موقفه الصارم من قوى الغزو الخارجي، وضد نزعة الانفصال والتشرذم الداخلي، والإنقسام الاجتماعي، والتعصب الديني، كما على بلورة وعيه الذاتي، وتحديد سرعة استجابته الباكرة -قياسا إلى الشعوب والقبائل الإقليمية المجاورة- وذلك لمتطلبات وحاجات الأرض على صعيد العمل الدفاعي والأمني، وتكوين جهاز الدولة المركزي، والاعتناء المبكر بإقامة منشئات الري الصناعي، والإندماج بالأرض، وانصهار أفراد المزارعين، والمحاربين، والتجار والحرفيين، وسدنة المعابد، وموظفي جهاز الدولة، وذلك في إطار الأمة الواحدة التي كان يستحيل في غيابها الاحتفاظ بكامل السيادة على الأرض، والاستغلال الأمثل لاستراتيجية الموقع، وتأمين طرق التجارة العالمي فضلا عن إطلاق حرية الإبداع الفني، وامتلاك المقدرة والكفاءة الهندسية، وممارسة العمل التجاري الفردي الحر مع العالم الخارجي، وإجادة فن الملاحة، وإتقان علوم البحار، والفلك، والجغرافيا.

هذه الأمور مجتمعة، تم دراستها ومعالجتها في ضوء ذلك الإطار المنهجي العلمي الذي سمح بدوره بتفهم أبعاد ماخلف الصدور، وإدراك ماوراء مباني القلاع والمدن والحصون، واستبطان لغة الفن والنقش على الحجر، واستكشاف بواطن الأمور، وخفايا النفس البشرية، وعوامل نزاع المصالح الاجتماعية والصراع على السلطة السياسية، الكامن أصلا خلف حركة التاريخ، ونبض حرارة تقدم وأفول حضارات الأمم والشعوب بما في ذلك حضارة الأمة اليمنية التي سيدهشنا نهوضها داخل جنوب شبه الجزيرة العربية قبل أربعة آلاف عام، يوم أن كان أهلها يملكون أدوات التحضر وحرية الإرادة، ولديهم مايكفي من الحب والعشق للأرض، وللسيادة والكرامة، وهو ماسوف تصافحنا معرفته

معطيات بعض صفحات هذا الكتاب المتواضع الذي صيغ بعبارات دقيقة واضحة وباختصار شديد في طريقة عرض المعلومات، بمنأى عن الخطابية، والإسفاف، وعدم المبالغة والتطويل، في نفس الوقت وجعل هدف الحصول على المعرفة الموضوعية مبتغى أعمال البحث والدراسة هذه، وعن طريق أسهل وأنجع السبل.

والله الموفق.

محمد الشعيبي.

مدخل

تندرج اليمن وأراضي شمال الجزيرة العربية من حيث مكوناتهما الطبيعية والخصائص الجيوفيزيائية في إطار مايطلق عليه علماء طبقات الأرض (التركيبة الجيولوجية الأفريقية) التي أخذت في التبلور على مشارف العهد (الموسيني) في عصوره الاقدم الأول، والثاني، والثالث قبل أكثر من ثلاثة ملايين سنة وهي نفس الفترة الزمنية الجيولوجية الارتجاجية العظيمة التي صاحبت انفصال الجزيرة العربية عن القارة الأفريقية مخلفة وراءها حوض البحر الأحمر، المعروف لدى العلماء باسم الأخدود الأفريقي العظيم.

بهذا الحدث الجيولوجي التاريخي الهائل تكون الكرة الأرضية قد استقر نهائيا حركة انقسامها الداخلي، وتشكل إلى الأبد وجهها الخارجي الذي تبدو عليه اليوم.

بإلقاء نظرة على الخارطة الجيوفيزيائية للأرض اليمنية سنجد مدى التطابق الفعلي لمكوناتها الطبيعية العامة وذلك مع التكوينات الصخرية الجيرية، والكلسية الغنية بالمواد المعدنية، والعناصر الكيميائية ذات الخاصية العلاجية الطبيعية، وإخصاب تربة الأرض الزراعية المتوفرة في شرق أفريقيا.

يشاهد ذلك بالنسبة لليمن في ظاهرة سلسلة الجبال البركانية الطويلة الخامدة حسب الاصطلاح الغلمي، والموزعة هنا وهناك على أرض الجزيرة العربية، وبالذات في جنوبها الغربي المعروف قديما باسم (العربية السعيدة) اليمن ذلك الجزء المحاذي لمسطح القرن الافريقي وسلسلة جباله البركانية الخامدة الممتدة شمالا نحو أثيوبيا والغني بمكوناته المعدنية أكثر من القرن الافريقي بكثير، كما في أعداد منابع المياه الاستشفائية.

وسعة احتياطي مخزون هذه المياه الحارة المعدنية، وكفاءة مقدرتها العلاجية أهل اليمن -كما يقول العلماء- لاحتلال موقع الصدارة فيما يخص أماكن المنتجعات الصحية في العالم.

وكما تزخر اليمن بأعداد حمامات المياه المعدنية التي تبلغ ٥٤ منبعا رئيسيا موزعة على أكثر من ٣٥ موقعا جغرافيا مختلفا - فإنها غنية كذلك أكثر من القارة الأفريقية مجتمعة - بمناجم الذهب والفضة وبأعداد الحصون والقلاع التاريخية الأثرية المنتشرة على قمم جبال اليمن، وسهوله، ومدنه الكبيره، وعلى مقربة من حاضرة الممالك اليمنية القديمة سبأ ومعين، وريدان وحمير، وأوسان وحضرموت، وقتبان.

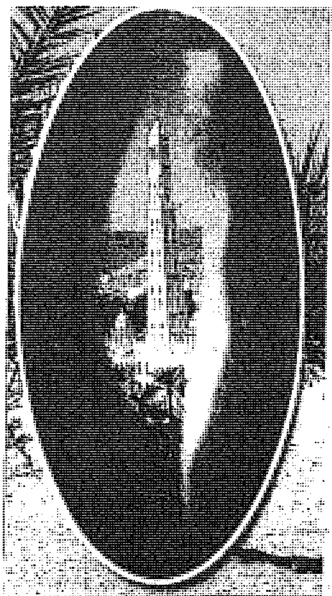
يصل مجموع أعدادها وفقا للإحصاء الأخير مايقارب الـ ٤٠٠ قلعة وحصن سوف تصحبكم رحلة الكتاب العلمية هذه لمعرفة بعض ذلك في ضوء ماتوصلت إليه نتائج أعمال الدراسة والبحث التي دامت سنوات وصولا إلى محاولة إرضاء ذوق وعقل القارئ الكريم. وامتاعه لبعض الوقت بطرح الجديد والمشوق الذي لم يسمعه أو يراه من قبل.

الباب الأول

حضرموت قبل عهد الكتابة والتدوين

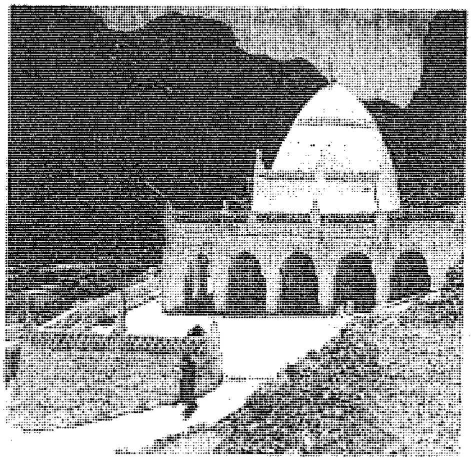
كان الاعتقاد السائد لدى علماء الاستشراق والباحثين الغربيين بأن تطور حياة الإنسان البدائي في أودية حضرموت، كان يجري ببطئ شديد مثلها مثل بقية أراضي شبه الجزيرة العربية التي لم يسكنها هذا الإنسان أيضاسوى في مرحلة متأخرة نسبيا في العصر الحجري الوسيط وفقا لذلك الاعتقاد.

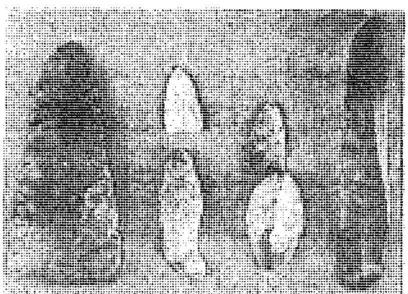
غير أن نتائج أعمال البحث الأثرية الجديدة التي قام بها فريق أثري من جامعة عدن بالاشتراك مع بعثة العلوم الأثرية السوفيتية للأعوام ٨٢ - ١٩٨٦م. قد دحضت تلك الاستنتاجات وأسفرت أبحاثهم الميدانية الموسعة في أكثر من أربعين موقع أثري داخل وادي دوعن وروافده، وذلك عن وجود أدوات حجرية ترجع إلى أقدم مرحلة للعصرالحجري الأول، والتي تسمى بمرحلة العصر «الأولدوي» الذي يبلغ عمر الطبقة العليا منه أكثر من مليون عام. (٣٢)



وفي وا دي «الجبر» المجاور لوادي دوعن تم اكتشاف ثلاث مغارات من نفس العصر الحجري القديم، عثر داخلها على ألف أداة حجرية، وبقايا موقدين للنار وكمية كبيرة من عظام الحيوانات الصغيرة والكبيرة، التي كان يصطادها سكان تلك المغارات.

وعقب إجراء التحليل الغباري لهذه المواد فضلا عن أعمال البحث الجيولوجية، والجيومورفولوجية والباليومغناطيسية الأخرى الهادفة إلى تحديد العمر المطلق لهذه المكتشفات، تبين بأن حقبة العصر الحجري قد تمثلت داخل جنوب شبه الجزيرة العربية بكل مراحلها بدءاً من العصر «الألدوي» وحتى آخر العصر الحجري الحديث (الألفان الثالث والرابع قبل الميلاد) وتتعزز هذه الحقيقة على الدوام مع فرص إجراء مزيد من أعمال المسح الميداني الأشمل، فقد تم مؤخراً اكتشاف نموذج آخر من الاثار التاريخية للمرحلة القديمة تلك وذلك في غرب حضرموت بمحاذاة جبال أودية ظهر، وعمد، ورخية، يتمثل هذا الاكتشاف في ظاهرة وجود مدافن للموتى تأخذ شكل مبنى دائري يتضمن حجرة دفن مستديرة وبيضوية مركبة من أحجار وضعت عموديا ذات عارضة شبه مقببة، عثر داخل بعضها على أدوات حجرية تعود إلى الحقبة التاريخية السابقة على الحضارة الزراعية. مما لايدع مجالا للشك في أن الجزيرة العربية خاصة القسم الجنوبي منها كانت مأهولة بالإنسان البدائي في أبكر مراحل


جانب من وادي دوعن (٣٥)


نموذج من أدوات الإنتاج الحجرية والعظمية التي تم العثور عليها في وادي دوعن، وإلى الأعلى صورة للمغارات التي اكتشفت فيها هذه الأدوات. (٣٢)

نزوحه من أفريقيا قبل أكثرمن مليون عام، وقد بقت مأهولة كذلك على مدى كافة عصور التاريخ البدائي. (٣٢)

وقد لعبت مناطق جنوب الجزيرة العربية على الصعيد الحضاري والتطور الإثنوجرافي -بما فيها منطقة حضرموت- دورا هاما في إقامة الاتصالات البرية والبحرية بين دول الشرق القديم، وفي عملية تبادل المواد الطبيعية والمصنوعات الحرفية، والانجازات الحضارية، والتكنولوجية بين شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط، والشرقين الأدنى والأوسط، والهند وشمال أفريقيا وقد ظلت اليمن حلقة وصل ونقطة انطلاق في نفس الوقت لحركات النزوح الكبيرة التي حددت في نهاية المطاف الملامح العامة للخارطة -الأثنية- اللغوية والعرقية للشرق الأدنى والبلدان االمتاخمة لها. (٣٢)(١)

١- أعتذر للقارئ بسبب قتامة الصور الفوتوغرافية المصاحبه المعبرة عن بعض المواقع الأثريه - والمنتجعات السياحية العلاجية المدروسة ، ولظهور هذه الصور هكذا للأسف مظلمه دون تلوين ، بنفصها الجاذبيه المتوفرة مثلاً في الإصدارات الدعائية للهيئات السياحية الحكومية والخاصة ، علما بأن ذلك راجع إلى ضيق ما باليد ، وعدم مقدرة دفع خمسة آلاف ريال للصورة الملونه الواحدة ، في حين يصل عدد هذه الصور إلى خمسين كما سنرى ، حيث كان في الإمكان جعل الكتاب أكثر تشافيه على صعيد الإخراج الشكلي والرونق الخارجي المشرف داخل الوسط السياحي العالمي والمحلي لو أن وزارة الثقافة والسياحة والهيئة العامة للسياحه أيضا ، لو أنهما قبلا عرض المؤلف وقت إعداده للكتاب ، بالتعاون معه في هذا الخصوص - المحال الفني على الأقل - حيث توافر ذلك وتواجده لديهما ، إلا أنهما بدلاً عن ذلك قد ضربا صفحا عن هذا العرض ، ورفضنا قبول النصح من قبل بعض الأخوة المسؤلين الأكثر قرباً إليهما ، بما في ذلك عدم الإهتمام بتوجيهات مدير مكتب رئيس الدولة الذي لجئت إليه مؤخراً بعد أن أضاعت الوزارة - مكتب الوكيل (هشام علي) مسودة الكتاب بتاريخ ١١/٥/١٩٩٨م أي بعد تسلم الوزاره للكتاب بشهرين ، كذا بعد أن قامت الهيئة العامة للسياحه بوضع مشروع التعاون هذا في سلة المؤهملات ، ولم تلتفت الوزاره بخصوص تقديم بعض المساعدة لطباعة الكتاب - الذي وعدت به مؤخراً - إلا بعد فوات الأوان ، وقت الأنتهاء من صف مواد الكتاب والصور في جهاز الكمبيوتر .

(منطقة حزم الجوف الأثرية)

شغل اسم المنطقة هذه حيزاً كبيراً في علم الدراسات الأثرية الاستشراقية ، كما استنفر أفئدة عشاق المعرفة التاريخية، الإنسانية ، وانجذب نحو هذا الاسم آلاف السواح والمغامرين من شتى المعمورة . لا لشيء سوى أن هذه المنطقة المعاصرة تربض على احتياطي هائل من مخزون التراث الحضاري التاريخي الذي يعود لفترة الحضارة اليمنية الأولى ، يضعها علم الآثار المعاصر تحت اسم مملكة معين : الدولة المدينية التجارية التي أقامت في ربوعها نظام الحكم الفيدرالي بين مدنها التجارية الكبيرة : براقش ، ونشق ، وهرم ، ومعين وشكلت مجموعة المدن هذه نسقا سياسيا معينا بينها وبين مملكة سبأ وريدان في مناطق جنوب شرق شبه الجزيرة العربية .

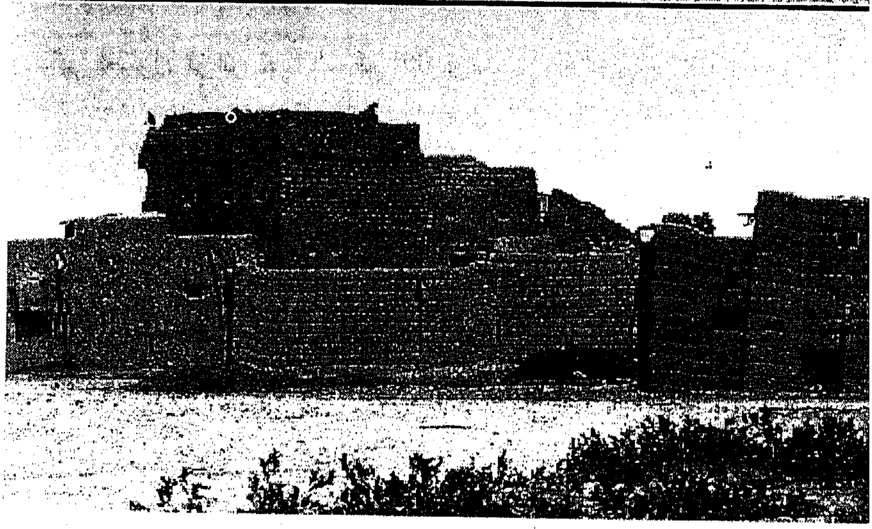
يتحرق علم الآثار شوقا لحل لغز هذه العلاقة السياسية والاستقلالية المزدوجة .

تتراءى أمام المشاهد الزائر لمنطقة ومدينة الحزم هذه التي تشغل في الوقت الحاضر مركز محافظة الجوف ، تتراءى أمام ناظريه آفاقا واسعة ورحبة من الأرض الرملية شبه الصحراوية التي تختزن تحت كل شبر فيها قصة وحكاية أربعة آلاف عام ، حافلة بالخير والازدهار ، وبمظاهر أنواع العمران وأشكال الفنون الزخرفية المنقوشة على جدار المعابد ومداخل القلاع وعلى أعمدة القصور وبوابات المدن، يمكن للمرء حفر أية بقعة داخل هذه الأرض ليجد ما يرمز إلى ذلك المستوى الحضاري المادي والروحي الرفيع الأول من نوعه في جنوب شبه الجزيرة العربية ، الذي لم يتكرر بعد .

ليس بعيدا عن مدينة الحزم تقع على مسافة كيلو متر إلى الغرب آثار مباني المدينة القديمة (هرم) حيث يقيم هناك سكان قرية آل علي ، والذين تشغل مبانيهم السكنية المعاصرة - للأسف - قسما كبيرا من أجزاء المدينة الأثرية ، حيث تتداخل هذه المباني وتتشابك مع أطلال مباني القصور والمعابد ، لا يخلو هذا المنظر من مفارقة تلفت النظر ، وتبعث على الدهشة .

على مقربة من أطلال المعابد هذه ، يشاهد المرء بوابة المدينة القديمة(هرم) والتي تبدوا في حالة جيدة ، وقت زيارتي للمنطقة في منتصف الستينات.





ـب من مدينة الحزم ، الى الأعلى معبد عشتر (حضارة معين) .

إلا أن أهم الآثار اللافتة للنظر في منطقة المدينة تقع في السهل المجاور لقرية آل علي ، وذلك على مسافة ٣٠٠متر فقط شمال غرب ، حيث يتقابل الإنسان هناك -قبل أي شيء آخر- يتقابل مع أطلال معبد كبير يتوسطه مدخل ظخم مبني بكتل الجرانيت التي نقش عليها مجموعة رائعة من الرسوم الزخرفية ، وصور الإنسان والحيوان.

يتجه باب المعبد نحو الغرب ، كما هي عليه كل مباني المعابد اليمنية القديمة ، ويصل ارتفاع هذا الباب إلى أربعة أمتار ، ويوجد خلفه على بعد ياردات صالة صغيرة في نهايتها باب آخر يؤدي إلى فناء كبير تزخر جدرانه بالرسوم واللوحات الفنية ، تهشمت بعض أجزائها العليا

(طابع الأشكال الفنية للمعبد)

يثير فضول الزائر لهذا الموقع الأثري مجموعة النقوش الفنية الموجودة على مدخل المعبد حيث رسم على الجانب الأول منه أوانٍ معلقة بحبال ، وضع عند أسفلها - كما تشاهدون صورة رقم( ) - صفين من جرار النبيذ كروية الشكل تتدلى منهما صورة لسيدتين ترقصان ، وعلى يد كل واحدة منهما عصى مقوسة . في حين تضعان غطاءً صغيراً على رأسيهما ، وتتدلى بعض الخصائل على وجهيهما، كما يلبسان ثوباً طويلاً عليه شرائط معلقة على الكتفين . ويظهر عند قدمي كل واحدة منهما صورة حيوان يمثل الوعل ، وتصطف تحت رجليه مجموعة من الرماح .

نفس الصورة مكررة على الجانب الآخر من المدخل غير أنه قد حل مكان صورة النساء الراقصات ، وجرار النبيذ ، حل مكانهما أربعة أزواج من الثعابين يلتف كل اثنين منهما حول بعضهما . في حين نلحظ من ناحية أخرى . نلحظ وجود صورة لأربعة أزواج من الوعول يقابل وجه كل زوج منها وجه الزوج الآخر .يلي ذلك صف من صور طير النعام تقف رؤوسها وأجنحتها مرفوعة إلى أعلى .

وهذه المعابد - كانت مخصصة - لعبادة الإله (عشتر) نفس معبود الحضارة البابلية ، غير أن السؤال هنا بالنسبة لحضارة مملكة ومعابد دولة وشعب معين ، في ظل عبادة هذا الإله المشترك بين الحضارتين البابلية والمعينية - هل أن معين كانت تعيش يومها مثل بابل في المرحلة العبودية .

وقد جاء الرد على هذا التساؤل بالإيجاب . مجسداً في لوحة جرار النبيذ ، والنساء الراقصات الموجودة على جدار معابد كلتا الحضارتين ، رغم أن ظاهر ظروف وأحوال مملكة وشعب معين مختلفة على الصعيد الاجتماعي المدني ، والوضع الاقتصادي والتجاري الحر ، كما على مستوى الانفتاح السياسي شبه الفيدرالي ، الذي تمثل فيه كل مدينة تجارية على حده نوعاً من الاستقلالية الذاتية .

وهو ما يصعب عنده قبول فكرة سيادة العلاقات العبودية .

إلقاء المزيد من الضوء على هذه المسألة المطروحة داخل الأوساط العملية الاستشراقية والعربية ، مرهون على إجراء المزيد والمزيد من أعمال الدراسة والبحث داخل هذه المواقع الأثرية البكر ، وقد نجد بعض الإجابات الشافية من خلال تعرفنا اللاحق على أطلال كل من مدينة (معين) العاصمة ، ومدينة نشق ، وكمنة ، وبراقش ، التي تقع مع مدينة السوداء والبيضاء داخل خط واحد في منطقة حزم الجوف الأعلى والأسفل.

قصور ومعابد (صرواح)

صرواح اسم مشهور في حياة وتاريخ اليمن القديم والحديث.
على الصعيد التاريخي كانت منطقة صرواح عاصمة الثقافة لدولة سبأ الأولى والثانية ، على الألف الأول قبل الميلاد. ومركز العبادة الأول لشعب هذه الدولة الحضارية.
على هذه الأرض قامت أعظم وأكبر المعابد اليمنية في مقدمة هذه المعابد معبد (المقه) الإله الرئيسي في دولة سبأ ، وشيدت فيها القصور الصيفية بالتالي لمكربي هذه الدولة.
وإلى صرواح هذه كان يحج كبار رجال المملكة ، بما في ذلك حاشية الملك ، وقادة الجيوش ،والزعماء المحليون المتنفذون، كما كانت - من ناحية أخرى – ملتقى رجال الثقافة والفكر ، وكبار مهندسي منشئات الري : بناة ومصمموا القلاع والحصون والقصور والمعابد أيضا ورصف الطرق ونصب الجسور ،ومباني الحكومة والمرافق الاجتماعية.
وقد استقطبت منطقة صرواح لتلك الأسباب مجتمعة خيرة فناني دولة سبأ ، الذين وضعوا بصماتهم الجمالية على كل معلم تاريخي موجود فيها ، بدءاً بالنقش علي جدار المعابد ، وتزيين عمارة القلاع والقصور ، وانتهاءً بأعمال النحت العملاقة لصور الطيور والحيوان والنبات ولإنسان ، ألتي كانت تتصدر شوارع المدينة ، ومداخل المعابد ، والقصور، وقاعات الاستقبال ، وردهات الألعاب والرقص ، وأماكن تناول أقداح النبيذ.
على صعيد التاريخ الحديث والمعاصر ، مثلت منطقة صرواح هذه دور الحاجز المنيع الذي وقف ضد زحف عناصر قوى ثورة ستة وعشرين سبتمبر ، نحو مدينة مأرب ، ومنع بسط نفوذها داخل المناطق الشرقية.
وخر صريعا على أراضي صرواح الجبلية الاستراتيجية. خر صريعا قائد وزعيم الثورة الملازم (علي عبد المغني) وذلك قبل أن تلحق قواته اجتياز ممراتها الجبلية الصعبة ، التي تشكل حاجزا مانعا في وجه أي تحرك من وإلى بلاد خولان في الغرب ، وهضبة سد مأرب في الشرق.

(المواقع الأثرية في منطقة صرواح)

يمكن تحديد أمـاكن أثـار منطقـة صـرواح هـذه وذلـك فـي إطـار ثلاثـة مواقـع رئيسية ، رغـم أن هنـاك الكثير مـن هـذه الأمـاكن التـي تزخـر بـاللقى الأثريـة المتنوعة ، في شكل قطـع حجريـة مكتوبـة بلغـة المسند ، أو مزخرفـة بـالخطوط المتقاطعة ،و رسوم الرماح والحيوانات بمقدور الزائر العثور على مثلـها فـي أي مكان تمتد إليه العين والبصر . داخل محيط هذه المنطقة .

يطلق الناس على المواقع الأثرية الرئيسية الثلاثة هذه : الأسـماء التاليـة: موقـع (البناء) ، وموقع (القصر) ، وأخيراً موقع (الخربة).

يرقد في حالة جيدة داخل هذه المواقع ، أهم وأجمل الآثـار الهندسـية المعماريـة الفخمة والفنون التشكيلية المتنوعة.

قيل عن أطلال منطقة صرواح هذه بأنها تمثل أعظم مخزون حضارة دولة سبأ على تخوم الألف الأول قبل الميلاد ، والسبب يكمن فـي كـون المنطقـة هـذه – قـد ظلت لعدة قرون مركزاً حضارياً مرموقـاً ، وحظيت بالتـالي – بقـدر واسـع مـن العناية والاهتمام من قبل حكام دولـة سبأ بمـا يرقـى ومكانتـها كعاصمـة للثقافـة والفن داخل جنوب شبه الجزيرة العربية.

ولهذا السبب أيضاً امتدت شهرتها إلـى مسـامع الأجيـال اليمنيـة اللاحقـة، وذاع صيتها بينهم ، وامتدحها العلماء منهم ، كما غنّى فيها الشعراء .

وقد قال فيها علامة اليمن الهمداني صاحب الإكليل، وكتاب صفة جزيـرة العـرب قال: لا يقاس بصرواح شيء من هذه المحافـد.

وجاء ذكر بعض قصورها ومعابدها على لسان شاعر البـلاد الخولانيـة للقـرن السادس الهجري عامر بـن أحمـد القشـيبي ، الـذي قـال عنـها فـي معـرض تغنيـه بأعمال أجداده الذين عاشوا في صرواح : قال مغنيا :

ملكوا الملك ألف شهر ومدوا
فوق صرواح بيت ريح الجنوب

فإذا دار دار كالريح فيـــــه
مستديراً بسمكه المنصـــــــوب
بتخاشيب ركبت في ازدواج
تتلألأ بأحـســــن التخشـــيب
فترى القصر مستديراً لجنبيه
رخـــام يـدور بـالتثـقـيب.

تحتل المواقـع الأثريـة الثلاثـة : الخربـة والقصـر والبنـاء تحتـل علـى الصعيد الطبوغرافي خطاً واحداً في وسط الوادي المستدير .
تقع (الخربة) في وسط هذا الخط ، بينما يقع (البناء) إلى الشمال حيث يوجد – كما يلاحظ– على مسافة ٩٠٠متر منه بقايا أطلال سد للماء قديم ، في حين يشغل موقع (القصر) القسم الجنوبي من هذا الخط على مقربة مـن مبـاني قريـة حديثـة شيدت داخل قلعة بنيـت فـي العصـور الوسـطى وفقاً لطراز مغـاير لا يتفق مـع أسلوب فن العمارة السبئية.

مع بدء تعرج عملية الاستطلاع لموقع (الخربـة) نلحـظ أولاً بأنـها قـد أقيمـت على مرتفع صخري عال تعتليــه مبـانٍ حجريـة تصـل فـي بعـض الأمـاكن إلـى ثمانية عشر متر تبلغ مساحة موقع الخربة هذه تبلغ مائتين وستين متر في مـائتين وأربعين ، ويوجد بداخلها أطلال بعض المعابد ، وكتل الحجارة المنقوشـة الملقـاة هنا وهناك. وكلما اقتربنا داخل الموقع الأثـري هـذا نجـد أطـلال العديـد مـن هـذه المعابد الذي لم يكشف النقاب عنها بعد.
غير أن إهم ما سوف يقابل الزائر داخل هذا الموقـع هـو معبـد الإلـه (المقـه)كـذا أطلال قصـر كبير يطلـق عليـه السكان اسـم (قصـر بلقيس) وذلـك إلـى جـانب مجموعة من الأعمدة الجرانيتية العملاقة.
سوف نقصر التعريف والحديث على معبد المقه هذا ،الذي يرمز إليـه بإلـه القمـر المعبود الرئيسي في دولة سبأ.
يقع مدخل المعبد إلى الجنوب ، ويقف على رأسه برج صغير على هيئة بوابـة ربما كانت مدخلاً جانبياً لفناء المعبد قبل انهياره.

(المكونات الجيولوجية والمواقع الأثرية)

ترتفع منطقة صرواح عن سطح البحر بنحو ألف وثمانمائة قدم.
ويميل مناخها نحو الاعتدال ، حيث لا تتعدى درجة الحرارة في الصيف عن ثلاثين درجة مئوية ، ولا تنقص في الشتاء عن خمسة عشر درجة مئوية . وتمثل في هذا الإطار- تمثل نقطة الالتقاء والتقاطع بين المناخ الصحراوي الجاف في الشرق ، وأجواء المناطق شبه البادرة في الشمال والغرب.

تتبع تضاريس منطقة صرواح – مكون سلسلة جبال اليمن في المنطقة الشرقية ذات الطابع الجيولوجي المتنوع ، والتركيبة الجيوفيزيائية المتباينة، تشكل الطبقات البازلتية والجرانيتية أعلى نسبة فيها ، وذلك إلى جانب الطبقات الصخرية البركانية الخامدة التي تتراءى بعضها في شكل تلك النتوءات الصخرية السوداء العالية ، والمدببة التي تقع إلى الشمال من منطقة بني جبر ، في حين تحتشد على مقربة من هذه النتوءات البركانية الجميلة، على الشمال منها وعلى الشمال الشرقي ، تحتشد كمية هائلة من المكونات الحجرية البازلتية، والطباشيرية ، يحتل حجر البلق الأبيض والأحمر معظم هذه المكونات الجبلية.

يأخذ وادي منطقة صرواح الطويل ، شكل دائرة ويبدو في حالة انخفاض متواصل وذلك حتى الوصول إلى مشارف وادي (أذنة) في مأرب.

تحيط بهذا الوادي ، وتتشابك معه الجبال العريضة والواسعة بما لا يسمح وممارسة أعمال الزراعة على نطاق واسع .

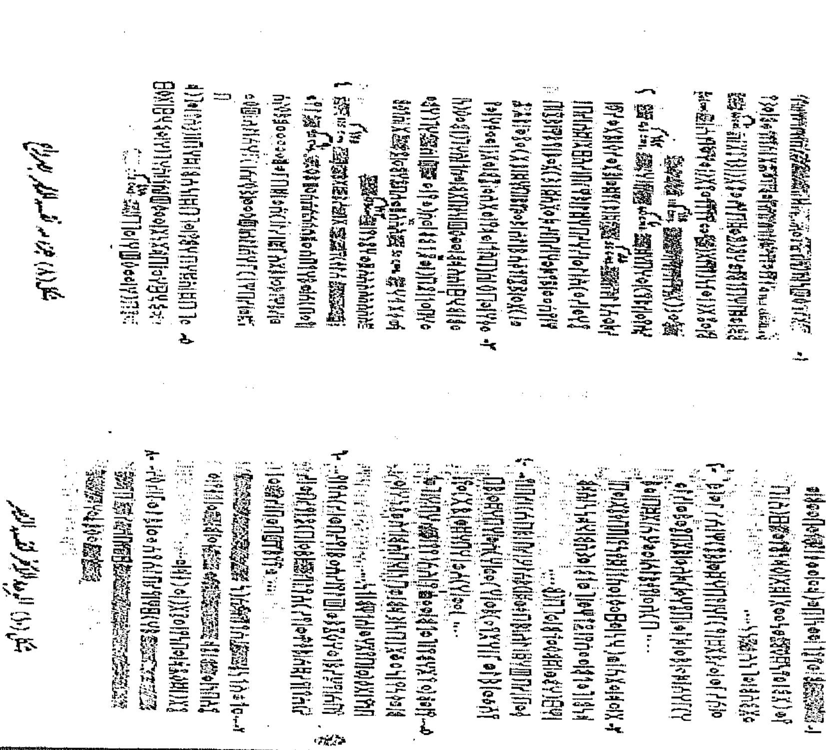
لهذا يعيش سكانه اليوم على مصادر المياه الجوفية لإرواء بعض حقول الزراعة المحدودة، رغم أنه قد مورس في الماضي أعمال الري الصناعي لا تزال بقايا بعض أطلال قنواته باقية حتى اليوم.

ومع هذا لم تفقد منطقة صرواح التاريخية العريقة جمالها الطبيعي ، وتزداد مناظرها بهاء وتألقا مع تواجد العديد من المواقع الأثرية السياحية الهامة ، التي بمقدورها وحدها فقط – لو استثمرت على الوجه الأكمل – (جعل حياة السكان أكثر سعادة وإشراقا) وجذب اهتمام الآلاف من السياح الأجانب الذين يهزهم الشوق لمشاهدة هذه المعالم الأثرية العملاقة التي لا يعرف العالم الخارجي الشيء الكثير عنها ، والجميل الرائع والمدهش فيها.

لا تزال معظم جوانب المعبد قائمة ، لعل أهمها تلك القواطع المستقيمة ، القائمة في الجهة الغربية ، على بعض الأعمدة ، لم يبق منها سوى خمسة تبدو في شكل كتلة حجرية واحدة هي جزء ليس إلا ، من قوام الفناء الأمامي للمعبد. أما على الجانب الشرقي للمعبد ، فالبناء لا يزال باقيا كما كان عليه ،وكله مبني كما نلاحظ من كتل حجر الجرانيت المقطوعة والمصقولة بعناية ، في حين تزين الأجزاء العلوية في الجدار –تزين بعدد من رؤوس الوعل.

يبلغ ارتفاع جدار هذا المبنى إلى عشرة أمتار، ويتميز أسلوب فن عمارته بنهج العمارة اليمنية الكلاسيكية ذات الطراز المحلي الخالص الذي يرتكز في الأساس على قاعدة التزاوج الأفقي لموقع الحجارة . حيث تشد الصفوف الأولى أحجار الصف الثاني ، في عملية غاية في الترابط والتلاحم العضوي بين جميع مفاصل الجدار.

يوجد سور للمعبد ، مكون من حائطين متقاربين سد فراغهما بقطع الحجارة الصغيرة ، تظهر بعض النقوش على مبنى السور الخارجي. غير أن أهم نقش عثر عليه هنا في هذا الموقع هو نقش النصر الكبير الذي يروي قصة انتصارات الملك كرب . أيل . وتر .





بقايا معبد صرواح ، الى الأعلى نقش النصر بوجهيه الأمامي والخلفي .

صرواح : نقش النصر . (ارنوجلازر)

أينما يولي الزائر لموقع (الخربة) أينما يولي نظره في أي اتجاه سواء داخل معبد(المقه) هذا ، كما على جدار السور الخارجي للمعبد ، أو على جدار بعض المنازل المجاورة له ، أو على الأرض بين التراب، وفي محاذاة بعض الطرق الجانبية ، سيجد عشرات القطع واللقى الأثرية الوثائقية الهامة المنقوشة بلغة المسند وكلها تشكل مصدراً معرفياً هاماً دون استثناء. بصرف النظر عما تعرض له بعضها من خدش ، أو تلك التي تم وضعها بشكل مقلوب على جدار البناء خلال عملية ترميم المعبد وتحويله إلى قلعة عسكرية في القرون الوسطى كما نشاهد ذلك في بناء الحائط الغربي القريب من ركن الواجهة الجنوبية. أو ذلك النقش الذي أعيد استخدام حجرته في بناء أحد المنازل التي صارت جزء من قوام مبنى المعبد ، والذي يشير مثلاً إلى تاريخ بناء سور المعبد ، ومثلهما الشيء الكثير من النقوش الوثائقية هذه التي تم حصرها حتى الآن بنحو سبعة وثلاثين نقشاً يتوقف على دراستها وتقيمها مهمة تقيم مستوى إنجاز وإسهام مدينة صرواح على صعيد التطور الحضاري في جنوب شبه الجزيرة العربية ، كما على صعيد التطور السياسي و الاجتماعي ، وفي مجرى العلاقات الاقتصادية، وتغير طابع علاقات الملكية الفردية والجماعية ، وهو ما يشير إليه في هذا الإطار كل من النقش الموجود عند المدخل الشمالي لما يسمى دار بلقيس على الجانب الخلفي منه ، والمكون من عدة سطور تحمل إعلاناً عن بعض حقوق الدولة وواجباتها نحو مواطني المدينة ، كذا النقش الآخر الموجود على حائط أحد المباني السكنية الخربة الواقعة عند الركن الشمالي الغربي للمعبد ، والذي أعيد استخدام حجرته هنا على هذا الحائط بشكل مقلوب أيضاً ، وفيه يتحدث عن نظام انتقال ملكية أرض من شخص لآخر ذكر اسميهما كطرفين في العقد الذي وقع من قبلهما على هذا النقش وفقاً لصيغة الإيجاب والقبول ، وذلك لقاء ثمن محدد لهذه الأرض دفع نقداً وعداً ، هذا النقش المثير للجدل في أوساط العلماء والباحثين عشية دخول النقد كوسيط في أعمال البيع والشراء وانتقال المكية الفردية الأمر الذي يرى فيه العلماء علامة تحول كبير حصل داخل المجتمع اليمني في الألف الأول قبل الميلاد. وانتقال هذا المجتمع في وقت مبكر من علاقات المقايضة البدائية إلى الشكل الأعلى المتمثل في استخدام النقد كوسيلة لعملية التداول البضائعي والعقاري المعبر بدوره من ناحية

أخرى عن ظاهره وجود الدولة المدنية الحقوقية على عكس دولة العبودية في بلاد الرافدين خلال هذه الفترة الحضارية المتقدمة التي تعيشها دولة سبأ.

من هنا تأتي في نظر العلماء العرب والمستشرقين الغربيين أهمية مكانة هذه النقوش الوثائقية على الصعيد التاريخي كما على صعيد فهم خط سير حركة التطور الاجتماعي والحقوقي لدوله ومجتمع اليمن القديم وطابع علاقتهما بالبلدان المجاورة ومع بقية الشعوب الحضارية الأخرى في آسيا وأفريقيا على ذلك العهد قبل ثلاثة آلاف عام ،وهو ما تكفل الإفصاح عنه محتوى نقش النصر الذي اكتشفه قبل مائتي عام العالم الرحالة الفرنسي(ارنوجلازر) والمكون من ستة وثمانين سطراً كتبت على لوح ضخم من حجر المرمر يبلغ ارتفاعه سبعة أمتار قسمت صدور النقش فيه إلى جزأين لم يبق للأسف إلا جزء واحد منه لا يزال كما هو عليه ضمن جدار المعبد في حين تم نقل الجزء الآخر من هذا الموقع إلى مكان مجهول،تمكن العالم الأثري العربي الكبير (احمد فخري) من مشاهدة هذا الجزء من نقش النصر في حجرة تستخدم إسطبل للحيوان في منازل أحد السكان،كان ذلك في منتصف الخمسينات،وذلك قبل أعادته مؤخراً كما قيل إلى إدارة الآثار الحكومية في صنعاء.

كتب النقش على لوح ضخم من حجر المرمر شغلت صفحة النقش الأمامية فيه مساحة سبعة أمتار و احتوت على ثمانية وثلاثين سطراً.

أضحى معروفا للعلم الأثرى الاستشراقي والعربي،بعد فك لغة النقش المسندية،أضحى معروفا لهم ما معنى حضارة دوله ومجتمع اليمن القديم عشية انتقال مركز الدولة إلى مدينة صرواح هذه، وجعلها عاصمة الدولة بدلا من العاصمة الأولى مأرب، في خطوه نظر أليها علم الآثار المعاصر- علامة تحول كبير ،ونزوع جديد لشحذ كيان الأمة والدولة في إطار المجتمع المدني،بما يتجاوز مرحلة الاحتماء تحت سقف القبيلة والعشيرة،ويسمو فوق الكيانات المجزأة، وتطاول نفوذ الزعامات المحلية الانفصالية الطامحة.

محتوى موضوعــات نقش النصر

يصرح النقش في الأول عن بدء دخول مملكة سبأ عصراً جديداً بتدشين مدينـة صرواح عاصمة للدولة الجديدة وإعلان مكرب سبأ إيل وتر نفسـه ملكـاً علـى كل الأرض اليمنية
من حضرموت وعدن جنوباً إلى نجران شمالاً والتهايم غرباً وذلك دون منافس تبدأ سطور النقش الأولى بعد ذلك بذكر أفضال هذا الملك العظيم الذي بنـى الجـزء الجنوبي من سد مأرب أفضاله علـى مدينـة مـارب وعلـى آلهتـها مشيراً فـي هـذا الخصوص إلى أعمال الري المختلفة التـي أنجزهـا مـن اجل رخـاء وتطـور بلـده ويذكر أسماء السدود والحواجز والقنوات التي أمـر بإقامتـها كمـا تعـرض (النقش لذكر أسماء المدن الكبيرة التي استولى عليـها ودمرهـا خـلال حروبـه مـع القـوات الانفصالية).

ويطرح النقش فـي هـذا السياق ، مجموعـة مـن الإحصائيـات عـن عـدد القتلـى وكمية الغنائم ، والأسرى أثناء حروبه مع (أوسان) وملكها (مارتو) كما مع العديد من الزعامات المحلية الأخرى النازعة إلى الانفصال.

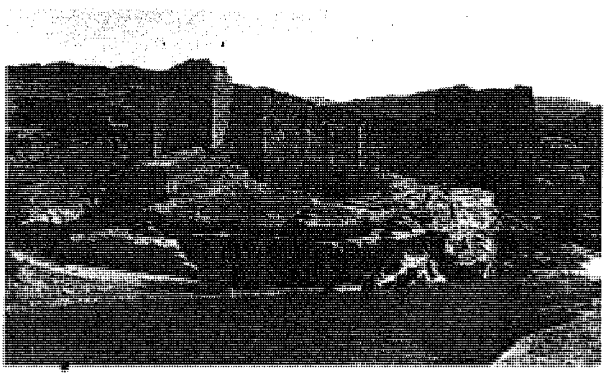
تقول هذه الإحصائية بأنه قد قتل خلال تلك العمليات ما يربو على ثلاثين ألـف شخص ، وأسر ثلاثة وسبعين ألف اسـتخدموا فيمـا بعـد فـي أعمـال منشـآت الـري وزراعة حقـول ممتلكـات الدولـة والمعـابد .. ومـن الغنـائم مـا مجموعـه أربعمائـة وخمسون ألف رأس من الغنم.

لقد كـان هـدف الحـروب كمـا يقـول البـاحثون العـرب والأجـانب ، كـان هدفـها واضحاً ومحدوداً ، هما توحيد كيـان الأمـة تحـت دولـة واحـدة ، وجعـل ولاء هـذه الأمة ليس للعشيرة والقبيلة فحسب بل لكل الوطن . ولقد نجح الملـك إيـل وتـر فـي ذلك ، وأشاد دولة اليمن الكبيرة الظافرة ، وأقام مجتمعـها المدنـي المتحضـر الـذي أنتهج طريق الإبداع ، وسار على طريق السلام والمحبة على مدى ألـف عـام قبـل أن يعثر تحت وطأة الغزو الحبشي ثم الفارسي الذي تمكن في النهاية بفضل تعاون العناصر الانفصالية وقـادة البـدو الرحـل الشـماليين - مـن احتـلال اليمـن وإسـقاط نظامه الاجتماعي المتقدم هذا.

سد مأرب الأسطورة:
فن الهندسة والتاريخ

شغل فن هندسة عمارة صرح مبنى سد مأرب هذا، شغل أذهان الناس طويلا، منذ إنشائه عام ستمائة وستين قبل الميلاد.

وقد نظر إليه الإنسان البدوي العربي الأول كما لوكان معجزة خارقة نبتت فجأة على أطراف صحراء الربع الخالي المقفرة. ولم يخل حديث الناس عنه على ذلك العهد من القصص الأسطورية والحكايات العجيبة. انعكس أثرها على العقلية الشعبية العربية، التي مانفكت تتسائل وتشك في مقدرة الإنسان اليمني القديم على إنجاز هذا الصرح المعماري المائى الهندسي العجيب مالم تكن المردة والشياطين قد لبست هذا الإنسان، وأعانته على صنع المعجزات.



جانب من قوام جدار الصدف الأيسر للسد. (١)

يحق لنا التسائل بدورنا في هذا الخصوص عن حقيقة ماحصل بالفعل تجاه هذا الحدث الهندسي المعماري التاريخي، وعن طبيعة مواصفاته المعمارية الفنية، وتقنيته الهندسية. وفيما إذا كانت هذا المواصفات ترقى حقيقة إلى مستوى تلك الشهرة، والهالة الدعائية الضخمة التي صاحبت تاريخ

مسـوى تلك الشهرة، والهالة الدعائية الضخمة التي صاحبت تاريخ إنشاء وعمل هذا السد على مدى ألف وخمسمائة عام قبل أن يتصدع ويصبح في خبر كان.

تعالوا معا نلقي نظرة في الأول على ماتبقى من حطام معجزة جنوب الجزيرة العربية للقرن السادس قبل الميلاد ولنحكم بعد ذلك على ماهو الصادق في تلك الأقاصيص والحكايات الأسطورية انطلاقا مما سوف نشهده على أرض الواقع والإصغاء بعض الوقت لما يقوله العلم المعاصر الذي أشبع هذا الموقع درسا وبحثا على مدى قرن من الزمن.

تجاه مظاهر جلال أطلال جسم سد مأرب التاريخي هذا أوقف العالم المعاصر اهتمامه في الأول على حل معضلة مغزى الهدف من وراء وجود هذا السد المائى الكبير على هذه الأرض بالذات الواقعة على حافة الأطراف الجنوبية الغربية لصحراء الربع الخالي المجدبة، وعند مخارج وادي (أذنه) القريب من مدينة مأرب هذه التي تترائى على بعد ثمانية كيلومترات من موقع السد.

وقد جاءت الإجابة على الفور بعد تفهم حجم مساحة الأرض الزراعية المستصلحة التي قام السد بإروائها، وجعلها تنبض بالخير والنعيم، وذلك في ظل ظروف أجواء الجفاف الصحراوي السائد وقسوة ارتهان الدولة السبأية الجديدة على عوائد طرق التجارة العالمية، حيث كان من المتوجب البحث عن مصدر اقتصادي دائم يكفل دوام حياة ورفاهية هذه الدولة على المدى الطويل، فكان تشييد مبنى هذا السد باعتباره الخيار الوطني الوحيد لمواجهة كل الاحتمالات الطبيعية منها والاستراتيجية الطبوغرافية والاقتصادية المعرضة في أية لحظة للتحول والتبدل.

بلغت مساحة الأرض المروية المحاذية لمدينة مأرب وتلك التي تمتد طويلا عبر وادي مأرب إلى الشمال بلغت عشرة آلاف هكتار، بما يساوي اثنين على عشرة في

المائة من مساحة الأراضي الزراعية في اليمن القديم، والتي كانت تبلغ يومها خمسة ملايين هكتار، لهذا لم تكن هذه المنشأة المائية تجاه ضعف وفرة مساحة الأراضي الزراعية المحدودة هذه من سيتكفل وحده بتحقيق الهدف الإستراتيجي الغذائي العام فكان لابد من تشييد عدد آخر من السدود إلى جانب سد مأرب هذا أجملها علامة اليمن الهمداني في القرن الرابع الهجري، بقوله:

و في البقعة الخضراء من أرض يحصب

ثمانون سدا تقذف الماء سائلا

إلا أن سد مأرب هذا قد برز في مقدمة المنشآت المائية في جنوب الجزيرة العربية التي كانت تعرف باسم العربية السعيدة، سواء من حيث مظهر ضخامة جسمه الخارجي المتمثل في الحاجز الترابي الذي يبلغ كيلومترا واحدا والمردوم بالحجارة والمواد المقوية والعازلة، أو من حيث سعة أبراج (الهوبسات) التي ترتفع إلى عشرة أمتار، والمبلطة بالكتل الحجرية المنحوتة بعناية، والمزينة في نفس الوقت بالنقوش والتماثيل. لم تكن سوى أعمال الدراسة الجيوفيزيائية الحديثة من أعطى تقييما عاليا لكفائة فن هندسة عمارة المبنى العام للسد، من حيث ضبط المقاييس ودقة تصنيع المواد، فاق كل ماكان معروفا للعالم عن تقنية منشآت الري القديمة في منطقة الشرق عموما. (٣٤)

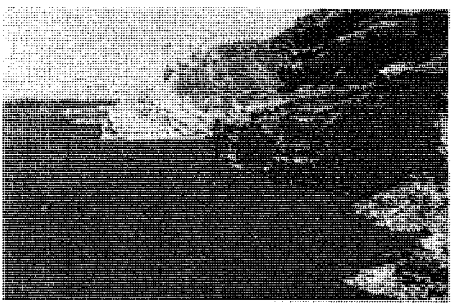
إذا ما أضيف إلى ذلك، تواجد مبنى السد هذا على مقربة من مدينة مأرب العاصمة لمملكة سبأ، ببهائها الذي كان يدهش عقل الإنسان العربي البدوي في صحراء الربع الخالي. فضلا عما كان يفعله منظر الأرض المزروعة على حافة هذه الصحراء، بما يشكله هذا المنظر من تباين حاد بين الخصوبة من جهة، وبين الجدب

الكالح من جهة أخرى.

الأمر الذي انعكس أثره في وعي الكثير من البدو الرحل الوافدين إلى هنا مع القوافل التجارية. وهؤلاء البدو هم أول من نشر أسطورة مدينة مأرب هذه، وأراضيها الخضراء، وسدها المائي العجيب المنيع.

تاريخ بناء السد وسعة حجم حوضه المائي

فيما يخص عهد بناء سد مأرب هذا، وطبيعة قدراته الاستيعابية لمساقط المياه الجبلية المتدفقة إليه من وادي (أذنه) فقد شيد في الأصل كما تقول المصادر التاريخية بأمر من الملك السبئي المكرب سمه علي بن ينوف بن ذمار وابنه (يثع) وذلك في القرن السابع قبل الميلاد، تحديدا في أعوام ٦٦ و ٦٢ قبل الميلاد كما يشير إلى ذلك واقع النقش الحجري على الجانب الأيمن من قوام جسم السد الخارجي وهو نفس الشخص الذي اختار بنفسه موقع السد هذا على وادي (أذنه) وذلك لأهمية هذا الموقع من الناحية الاستراتيجية الطبوغرافية ونظرا لاتساع مساحة هذا الوادي، وتعدد مصادره المائية التي تشكل في مجموعها عشرة آلاف كيلومتر مربع في حين لاتزيد مصادر أعظم وديان اليمن الأخرى، كوادي مور مثلا سوى عن سبعة آلاف وخمسمائة كيلومتر مربع، وتبلغ كمية



منظر لجانب من حوض سد مأرب الجديد الذي لايبعد كثيرا عن موقع السد القديم، باتجاه الغرب.(٣٥)

المياه التي تسقط في العام إلى هذا الوادي تبلغ إثنين مليون متر مكعب. في حين يتسع حوض سد مأرب لـ ٥٥ مليون متر مكعب، وسوف يتضائل أمامنا هذا الرقم الكبير إذا ماقارناه بسعة حجم حوض السد الجديد المجاور الذي تم بنائه في عام ١٩٨٥م على عهد رئيس الجمهورية الحالي علي عبد الله صالح، حيث بمقدوره استيعاب (٣٥٠) مليون متر مكعب.

على صعيد التجهيز التقني، وأسلوب عمل سد مأرب القديم هذا، فقد كان عمله يقوم على قناتين رئيسيتين، يطلق عليهما الصدف الأيمن الجنوبي، والصدف الأيسر. وكلاهما يتولى القيام بمهام محدودة مختلفة. فعمل الأول الذي يعرف بمربط الدم كان مقصورا على إرواء الأراضي الزراعية في وادي مأرب وذلك عبر قنوات تمتد مئات الكيلومترات المربعة، لاتزال بعض آثار هذه القنوات والقناطر ومباني غرف الرقابة عليها قائمة ويبلغ عرض مدخل هذا الصدف أربعة أمتار ونصف، وعرض حائطه اثنا عشر مترا وطوله تسعة وثمانون مترا

أما جسم الصدف الأيسر فهو أكبر حجما من الصدف الجنوبي، وأفضل منه تنظيما، ويمتلك قناتين خاصتين به، تتولى عملية التصريف إلى ضواحي مدينة مأرب فقط وذلك عبر مجرى مائى صناعي طوله كيلومتر ينتهي هذا المجرى إلى حوض واسع محكم الصنع له اثناعشر قناة توزع المياه إلى الحدائق والبساتين المحيطة بالمدينة.

وحيثما يذهب المرء داخل السهل الواقع بين مبنى سد مأرب هذا، ومدينة مأرب، الذي يمتد ثمانية كيلومتر يشاهد أكواما من الأحجار يطلق عليها الأهالي اسم (المناسح)، اتضح بعد الدراسة أنها كانت جزءا من سلسلة القناطر المقامة فوق قنوات المجرى المائى الصغيرة التي كانت تجري في كل الاتجاهات .

فيما يخص الوسائل التقنية المستخدمة، ونوع المواد المصنعة، التي نهض عليها صرح مبنى سد مأرب، لن تفوت الزائر - في هذا الإطار - ملاحظة استخدام بعض المواد المعدنية ممثلة في مجموعة قضبان النحاس والرصاص التي كانت تقوم بدور شد الكتل الحجرية الضخمة بعضها لبعض بهدف زيادة عملية التقوية لها والمتانة فيها.

وقد لاحظ بعض الرحالة العرب في عام ١٩٥٨م (١) قيام بعض الأهالي بانتزاع هذه القضبان للأسف الذي يبلغ طول الواحد منها ستة عشر متر، وقطر ثلاثة سنتيمتر ونصف، وأطرافه مستديرة الشكل، بما يعني وصول صناعة التعدين اليمنية على ذلك العهد، إلى مستوى عال، فوق أن اكتشاف عناصر هذه المواد المعدنية المصنعة، قد عزز قناعات العلماء مجددا بأن منطقة جنوب الجزيرة العربية قد تمكنت في القرن الثامن قبل الميلاد من الدخول مبكرا قبل غيرها إلى العصر البرونزي في حين كانت لاتزال بلدان أخرى تصارع الخروج من أسر الحقبة الحجرية، واستخدام الأدوات الخشبية كأداة رئيسية لوسائل الانتاج وأعمال البناء.

حول هندسة عمل وبناء السد يمكن قول الشئ الكثير غير أن هناك المئات من النقوش الوثائقية التي تريد التحدث أيضا عن أسرار معجزة جنوب الجزيرة العربية. ترى بعض هذه النقوش على عدد من قواطع جدار السد وأخرى ملقية على وجه الأرض، ومنها ماتم جمعه ووضعه داخل متحف مدينة مأرب الجديد، الذي لابد أن يكون مثار اهتمام الزائر السائح، وأحد أهداف رحلته الطويلة المفعمة بالأسرار والألغاز.

ومع هذا لاشك في أن هناك من يكابده الشوق لمعرفة أسباب تصدع وانهيار هذا الصرح المعماري الهندسي العظيم، وانعكاس أثر ذلك على مستقبل واقع الحياة العامة في جنوب شبه الجزيرة ، (١)

كما على مسار تطور خارطة الحياة الاجتماعية العربية التي كان قد ترك الانهيار

الاول للسد في القرن الثالث قبل الميلاد بصمته الواضحة عليها في شكل موجات الهجرة المتلاحقة نحو أراضي الرافدين، وتكون وجه مجتمع جديد هناك تضرب أصوله بعيدا في جدار وأغوار أساسات صرح مبنى سد مأرب هذا ، وفي أعماق تربة واديه الواسع العريض الذي شهد مجددا في غياب أولئك المهاجرين وأحفادهم إعادة بناء روح الحياة إلى واديه، واستعادة البسمة على وجوه أطفاله وسكانه، وذلك على يد القائد الحبشي المولد الذي أعلن العصيان على الامبراطور الحبشي وتزعم حركة الاستقلال اليمنية من سيطرة هذا الامبراطور.

---

(١) السؤال الذي يطرح نفسه وينتظر الإجابه هو عن طبيعة الفارق والإختلاف ـــ إن كان هناك أي فارق أو إختلاف ـ بخصوص واقع حال الأهداف الإجتماعية والإقتصادية الكامنة وراء دوافع إنشاء كل من مبنى السدين القديم والحديث ، أؤ با لأصح من هو المستفيد المباشر في كلا العهدين ؟

رغم أن الإجابة على ذلك لا تدخل ضمن هموم هذه الدراسة الأثرية التطبيقية إلا أنه يتوجب القول إختصارا بأن عملية الإروي الزراعي لأراضي (مارب) القديمة كانت ـ وفقا لما توصلت إليه آخرنتائج أبحاث موضوع علم الإقتصاد السياسي لعهد ما قبل الإيسلام في اليمن ـــ كانت تخدم بشكل مباشر ثلاثة أنواع من الأرض المزروعة في وادي (مارب) هي أرض الأوقاف التابعة للمعابد ، وأراضي الدولة ، وأخيرا أراضي مزارعي وادي ومدينة (مارب) الذين كانوا ينتظمون في شكل جمعيات زراعية شبه تعاونيه تقوم بمهمة تقسيم العمل فيما بين هؤلاء المزارعين الملاك الحقيقيين لهذه الأرض و توزيع محصول الإنتاج في نفس الوقت ، بما في ذلك عائد ريع أراضي الوقف و أراضي الدولة الخاضعتان لنظام المحاصه السنوية بمقدار الربع .

وحيث كانت تصل موارد مياه السد ـ من ناحية أخرى ـ إلى كل شبر في الوادي على إمتداد الاف الكيلو مترات المربعة ، وذلك وفق خطة توزيع (هيد روجيولوجيه) مركزية دقيقة ،الأمر الذي تشكل على خلفيته أول نظام إجتماعي و إقتصادي جديد داخل الشرق القديم التي كانت تعيش معظم شعوبه في ذلك العصر تحت وطئة علاقات الرق والعبودية ، وسيادة بعض أنماط علاقات الإقطاع .(٣٢)

وصف القرآن الكريم أوضاع حياة وادي (مارب) بما يشبه الجنه ، إلى أن طغى سادة القوم وتجبروا، وإستاثروا بخيرات الأرض ونتاج العمل لصالحهم ، فكان التدهور الإجتماعي ، وتسيب حال الأرض ، والإندفاع نحو الهجرة إلى الخارج من فم ، ثم كارثة إنهيار مبنى السد .

كيف تجري عملية إرواء أراضي (مارب) الزراعية اليوم ، ومن المستفيد المباشر من حوض مياه سد (مارب) الجديد ، وكم نسبة الأرض المزروعة ، ومن يمتلك هذه الأرض ، وكيف تسيرطبيعة علاقات العمل بداخلها ؟

هذه الأسئلة وغيرها تنتظر الإجابة من قبل الباحثين اليمنيين الجدد بالاخص خريجي المعاهد العلمية ، وجامعة الإيمان ، والطلاب والباحثين الأكاديميين الرسميين المعاصرين .

حصن بينون ونفقها الجبلي المائي العظيم

يمثل نفق بينون الجبلي المائي العظيم أحد أهم إنجازات الحضارة اليمنية على عهد الدولة الحميرية مطلع القرن الميلادي الأول.

يقع هذا النفق المائي الجبلي في بلاد الحداء وبالذات في قرية النصلة التابعة لعزلة بني ثوبان على بعد أربعة وخمسين كيلومتر من مدينة ذمار مركز المحافظة.

كما يلاحظ من خلال النظر إلى تضاريس منطقة النفق الجبلي المحيطة يمكن إدراك مدى الأهمية التي يشكلها وجود النفق المائي هذا داخل الجبل العملاق الذي يتوسط كلا من وادي الجلاهم الشرقي، ووادي نمارة الغربي، حيث يتوجب على هذا النفق ـ كما شاء له مهندس الري اليمني الأول ـ تولي إرواء هذين الواديين المتسعين وإخصابهما بما يرقى إلى مستوى شهرة ومكانة الدولة الحميرية التي اتخذت من هذه المنطقة مقرا لها وأطلقت عليها اسم (بينون) سرعان مااكتسبت هذه التسمية الجديدة للمنطقة شهرة في التاريخ اليمني القديم وذلك جنبا إلى جنب مع مراكز ومقرات المملكة الحميرية الأخرى (ضفار وغيمان).

وأصبح الحديث عن النفق الجبلي المائي هذا يعني الحديث عن بينون نفسها المدينة الحميرية الجديدة التي نهضت على قمة جبل قرية النصله، وقرية (الداخلة)،

هذه المدينة التي امتد ذراعها إلى سهل المنطقة تاركة فيها مجموعة من اللقى الأثرية التي صنعها السكان الحميريون في هيئة أحجار منقوشة بخط المسند، أو مزينة بالزخارف الفنية التشكيلية، أوفي شكل أعمدة ومسلات تاجية وصهاريج محكمة مجصصة بالقضاض، كما في شكل مسالك الطرقات المهدة بالحجارة، وأساسات بناء القصور والمعابد ومجاري المياه الهندسية الرفيعة.

كل هذه الأشكال تترائى للزائر في كل مكان داخل منطقة بيئون الحميرية الأثرية هذه، التي ينسبها آلإخباريون إلى بينون بن شرحبيل بن ينكر بن عبد شمس بن وايل بن حيدان بن قطن بن عريب بن زهير أيمن بن الهميسع بن حمير الأكبر.

لعل أبرز بصمات ذلك العهد هي مشاهد بقايا قصر بينون الواقع على تلة عالية.

ضمن قرية الداخلة هذه توجد بعض أطلال قصر عظيم، كان يمثل أروع مبنى في مدينة بينون التاريخية تحت اسم حصن شهران المنيع ذو الأسوار العالية، والمشيد بالحجارة الموقصة ذات الحجم المستطيل، والأشكال الملونة.

قال عن قصر شهران هذا شعرا العلامة الهمداني قبل ألف ومائتي عام، قال :

وبينون منهمة بالحديد، ملازمها الساج والعرعر
وشهران هذا بناه الذي بناه ببينون قد يشهر

وقال آخر :

لو ترى بينون أنستك أزالا وضفارا
ورأيت الليل فيها من سنا العزنهارا

وقال معجم البلدان عن بينون هذه وحصنها العالي : بينون اسم حصن عظيم كان باليمن قرب صنعاء.

وأحسن وصف قيل عن قصر شهران هذا، ذلك الذي أورده العلامة الحجري في كتابه بلدان اليمن وقبائلها حيث قال : حصن بينون يقع على رأس جبل مستطيل

وفي الجبل طريق معبدة منقورة في وسطه قد تهدمت، وهذا الجبل يتوسط بينهما أرض فيها مزارع تمتد نصف ميل ، وفي سفح الجبل الشمالي عين ماء تسمى عين نمارة تسقي الأرض التي بينه وبين بينون. (١٢)

معلم أثري آخر، يقع عند أسفل قصر شهران هذا إنه معبد المدينة، لم يبق من جداره ومحتوى بنائه سوى جدار واحد مكون من أربعة صفوف متراصة من الحجر الأبيض الرخامي، يبلغ طول الحجر الواحد مترا مربعا، يشاهد الزائر عند فناء المعبد وجود بلاط مرصع بالرخام الأبيض الأملس المنحوت بعناية كما لو أن المعماري اليمني الأول قد استخدم الأدوات التقنية الحديثة في تشكيل هذا الرخام.

الوصف الطبيعي للنفق

(١٣)



أهم شئ ملفت لنظر الزائر داخل منطقة بينون التاريخية الجميلة هذه، التي تمثل كما رأينا مستودعا للآثار التاريخية الحميرية القديمة ومخزونا لعدد من أعمال الإبداع المعمارية الفنية، والتماثيل والزخارف التشكيلية التي لم يبق ظاهرا منها على الوجود سوى الشئ اليسير. إن أهم شئ هو صورة

النفق الحجري المائي، أو بالأصح صورة النفقين المائيين الماثلين للعيان في هيئة أغوار طويلة وعميقة نحتت بعناية في أصل الجبل على شكل قنطرة هدفها تنظيم مجرى تدفق سيول الأمطار إلى أراضي الوديان الزراعية في ضاحية مدينة بينون القديمة بحيث تشمل هذه المياه كلا من وادي الجلاهم في شرق الضاحية، ووادي نمارة في غربها، تنقل إليها هذه المياه من نفق جبلي إلى آخر مماثل، ومن هذا الأخير إلى الوادي.

تبدأ هذه العملية الهندسية والهيدروجيولوجية الإروائية وفقا للخطوات التالية:

كما يشاهد علي الطبيعة تجتمع في الأول مساقط الأمطار إلى نفق جبل النقوب في وادي الجلاهم، ومنه تخرج ثانيا مع سيول الوادي الأخرى المصاحبة، وذلك إلى النفق الآخر الواقع في جبل بينون هذا، الذي انسدت مخارجة للأسف، وأصبح غير ذي أهمية من الناحية العملية في الوقت الحاضر، حيث يبقى الحديث - بسبب ذلك - قاصرا على النفق التصريفي الأول الكائن في وادي الجلاهم أي نفق جبل (النقوب) الذي كان يقوم بدور القنطرة المائية التي تجري عبر قنوات نحو النفق الآخر المسدود، وذلك وفق مقاييس هندسية غاية في الدقة والاتقان، لاتزال محل اهتمام ودراسة العلماء والباحثين العرب والأجانب حتى اليوم.

بعض آثار المجرى المائي هذا واضحة على الأرض يتذكر أهالي منطقة بينون اليوم هذا المجرى بحنين بعد أن استبدلته الدهور بمجرى مائي آخر لسقي أراضيهم من فضلات مساقط جبل أسيل الواقع في غرب أراضي بينون التاريخية العظيمة.

المواصفات الفنية لنفق جبل النقوب

على صعيد المكاشفة المعرفية لمواصفة وتاريخ تشييد نفق جبل النقوب هذا تتضح أمام الزائر معالم الصورة الكاملة لشكل ومحتوى هذا النفق، سواء فيما يخص أسلوب العمل الهندسي المعماري، وأعمال النحت والنقر في الصخر أو فيما يتعلق بالأهداف الاقتصادية بعيدة المدى المتوخاة من وراء هذا العمل الإنساني الجبار، الذي تم في عهد الدولة الحميرية الجديدة الناهضة بعد الميلاد إثر تفكك وانهيار الدولة السبئية القديمة.

يطالع الزائر في الأول موقع جبل النقوب الذي يتموضع بعناية عند منتصف وادي الجلاهم حيث يقع مربط تدفق السيول القادمة نحوه من جهة الشرق، ومن واقع حقيقة تموضعه الاستراتيجي الطبوغرافي هذا تتكشف من ناحية أخرى العقلية الحضارية الابتكارية لدى الإنسان اليمني الأول الذي أدرك بوعي قيمة هذا الموقع الطبيعي داخل أراضيه الزراعية الخصبة فبادر مسرعا إلى استغلاله كما يجب بهدف توسيع الأرض الزراعية هذه، ورفع مستوى حياته المعيشية، وتأمين ظروف المستقبل من غوائل الدهر وتقلبات الزمن. الذي لم يكن غائبا عن وعي قادة الدولة الحميرية، وهو ماحدث بالفعل بعد أقل من أربعمائة عام على تحول مجرى التجارة العالمي لصالح روما، إثر اكتشاف الرياح الموسمية في المحيط الهندي. مع فارق طبيعة هدف هذا الجهد الإنساني العظيم الذي يميل إلى صالح الأرض والمزارع اليمني، عوضا عن تكريسه لمصالح الملوك الفراعنة، وإضفاء شئ من المسحة الخرافية بالتالي على عقلية الفلاح المصري، حول إمكانية عودة هؤلاء الملوك مجددا إلى الحياة التي غادروها مؤقتا، لسبب ما، لم تفصح مشيخة سدنة المعابد الدينية المصرية عنه بشئ.

أما على صعيد المقدرة التقنية والعقلية العملية الابتكارية فإنها تبدو بوضوح في هذا الجهد الكبير الذي أنفق داخل جوف الجبل الصخري هذا وشقه لمسافة مائتي متر بعرض ثلاثة أمتار وارتفاع أربعة أمتار ونصف بما يعني انتزاع آلاف الأطنان من أصل الجبل الصخري تكفي لعمارة مجمع سكني يتسع لألف أسرة، وهو عمل جبار يضاهي - من حيث الجهد الإنساني المبذول - تشييد واحد من أهرامات مصر الكبرى مع فارق غايات وأهداف الجهد الإنساني في هذا حيث يتركز بالنسبة للإنسان اليمني الأول في زيادة الرفاه الاجتماعي، ورفع معدل عملية الانتاج الزراعي، وليس لتحقيق سعادة وخلود الملوك كما هو حال وجود أهرامات مصر، لايقل عن ذلك أهمية - من ناحية أخرى - مستوى أعمال الإبداع التقني، والأسلوب الفني المرافق لذلك الجهد الذي صب في خدمة تسيير عمل النفق هذا كقنطرة محكمة لمجرى الماء والتدفق منه بشكل إنسيابي يكفل عدم الإندفاع التدميري، وضمان خروج هذه المياه إلى قنوات الري والعبور منها بهدوء نحو النفق الآخر الواقع على جبل (بينون)، من أجل تحقيق هذه الخاصية الفنية الهيدروجيولوجية عمد المصمم المعماري اليمني الأول إلى وضع فتحات جانبية كان يثبت عليها ألواح خشبية وأبواب حجرية، يتم التحكم فيها وقت الضرورة عند هجمة السيول، ولمجابهة عملية انكسار النفق عند ارتفاع معدل ضغط طاقة وقوة حركة وتفاعل المياه بداخله.

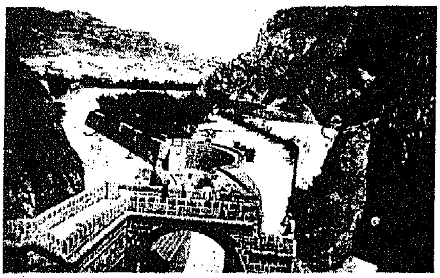
فيما يخص تاريخ فترة تشييد هذا النفق يوجد نقشين حجريين بلغة المسند، يشاهدهما الزائر عند مدخل النفق، يشير أحدهما إلى الاحتفال بافتتاح النفق وتقديم الشكر للإله عثتر الذي ساعد على الانتهاء من عملية التشييد بسلام، ومع أنه لم يحدد تاريخ الاحتفال هذا في نصوص هذا النقش إلا أن معظم المصادر التاريخية تشير إلى أن تاريخ البناء قد تم في القرون الأولى من الميلاد، بدليل ازدهار حياة

هذه المنطقة أيضا التي كانت واحدة من أهم مراكز الدولة الحميرية التي اتخذ منها الملك أب كرب أسعد حاضرة له في مطلع القرن الخامس للميلاد.

وليس من المنطق أن تكون بينون كذلك على تلك الشهرة التاريخية العالية مالم يكن قد أنشئ فيها هذا المرفق الاقتصادي الحيوي، الذي أعاره العلماء والباحثون الأهمية العلمية القصوى كون هذا النفق الجبلي المائي في نظر هؤلاء العلماء أحد أهم الإنجازات الهندسية التقنية العالية للحضارة اليمنية القديمة، وليس بعد ذلك كما يظن البعض نتيجة قلة المصادر التاريخية التي بحوزتهم، ولجهل الناس بأهمية هذا الموقع التاريخي الحضاري الذي يتحرق العلماء والسواح شوقا للوصول إليه والتعرف مباشرة عليه، أو سماع وقراءة شئ ما -على الأقل عنه - وذلك قبل اعتزام السفر والتوجه سيرا على الإقدام نحوه.

صهاريج عدن

على أرضية منتزه حديقة عدن العامة هذه توجد آثار مخلفات صهاريج مدينة عدن التاريخية الشهيرة التي احتلت مكانا بارزا في تاريخ بناء خزانات مياه الشرب على المدن الساحلية في العالم.



(١٣)

الحديث عن صهاريج عدن، أو بالأحرى عن خزانات مياه الشرب العذبه، داخل مدن السواحل الحاره شبه الاستوائية يعني فتح ملف تاريخ هندسة بناء صهاريج المياه العذبة في جنوب شبه الجزيرة العربية، وبالذات في مدينة عدن الساحلية الاستراتيجية هذه التي شهدت أول تجربة من هذا النوع ، وأقامت على أراضيها صرح الصهاريج الأولى داخل منطقة الجزيرة العربية وأراضي الخليج العربي، وذلك بهدف استغلال مياه الأمطار التي يعز وجودها على الدوام في منطقة عدن هذه الشحيحة كذلك في مخزون مياهها الجوفية على الرغم من وقوعها على ساحل المحيط الهندي الحامل أصلا لمياه الأمطار الموسمية التي تغمر أراضي جنوب الجزيرة العربية في الشتاء والصيف،وتذروها الرياح على كل شبر فيها، ماعدا منطقة عدن هذه اللهم إلا لماما، في حين تظل مدينة عدن عطشى حتى الرمق،

(كالعيس يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول).

لقد أدرك الإنسان اليمني الأول منذ القدم مغبة عواقب هذه الفاجعة التي تعتصر قلب مدينة عدن هذه، وسارع في مجابهة قوى الطبيعة العمياء غير العادلة،

وبذل جهودا جبارة في لي ذراعها وتسخيرها من ثم لصالح مدينة عدن المنكوبة وإنقاذها من العطش، والإبقاء عليها مدينة حية مزدهرة، تتلألأ صواري السفن الشراعية على موانئها مزودة بمياه الشرب العذبة، قبل أن تبحر من هناك وتشق طريقها الطويل صوب جزر الهند الشرقية التي قد تستغرق شهورا داخل حوض المحيط الهندي، قبل أن ترسو كذلك على بعض موانئه للتزود مجددا بالمياه العذبة.

لم يكن غير صهاريج عدن هذه من تكفل بازدهار حياة المدينة، ومن وفر حاجة السفن الشراعية من مياه الشرب العذبة الضرورية لمواصلة رحلة الشهور الصعبة تلك، والعودة إليها بسلام في ظل أجواء الجفاف التي تسود جزر وموانئ المحيط الهندي.

لذا ليس غريبا تسابق شعراء اليمن الأول على التغني بصهاريج عدن هذه وامتداح فوائدها بالنسبة للمدينة وانتعاش حياة سكانها الذي كان يبلغ عددهم ستة عشر ألف شخص عند إنشاء صرح هذه الصهاريج قبل ألفي عام من اليوم.

لقد جاء ذكر هذه الصهاريج ـ على الصعيد التاريخي ـ في مدونات كتب التراث القديمة،

وكانت أول إشارة من هذا القبيل على يد صاحب كتاب الطواف اليوناني حول البحر الأحمر في القرن الأول للميلاد الذي تحدث فيه عن وجود صهاريج في مدينة عدن تتزود المدينة منها بمياه الشرب العذبة.

وعن هذه الصهاريج قال علامة اليمن الهمداني الذي عاش في نهاية القرن الثالث الهجري، قال : «هناك في مدينة عدن بؤرا: أي حفراً لحفظ مياه الأمطار والإنتفاع منها للشرب».

كما زار هذه الصهاريج كل من الرحالة العرب الكبار إبن بطوطة ، وابن المجاور

وذلك في القرن السادس عشر الميلادي قبل أن يصيبها الصدع ويلحق بها الخراب وهو ماحدث بالفعل في القرن السادس عشر بعد مائتي عام من آخر زيارة قام بها هؤلاء الرحالة العرب المشهورون، إبن بطوطة وإبن المجاور اللذان شاهدا هذه الصهاريج بأم أعينهما وهي عامرة وتعمل بانتظام لصالح مدينة عدن هذه .

وقد جاء ذكر أول تصدع في بنيان هذه الصهاريج في بعض وثائق دولة آل زريع، التي تقول بإن عدداً منها على وشك الإختفاء ، ولم يبق منها شئ واضح على وجه الأرض سوى السور.

وبحلول القرن التاسع عشر كان قد إختفى تحت الأرض كل ماله علاقة بمباني صهاريج عدن القديمة أصلا .

جاء هذا الوصف على لسان أحد الرحالة الأجانب الذي زار مدينة عدن في منتصف القرن الثامن عشر ، وكان آخر من شهد على بداية مأساة المدينة وفاجعتها الموحشة بافتقاد أهم مصدر لحياة السعادة والاستقرار داخل هذه المدينة التاريخية الإستراتيجة الهامة لكل اليمن .

اكتشف مؤخراً عدد من الصهاريج القديمة الموجودة داخل أحياء مدينة عدن .كان ذلك خلال عملية التنقيب التي تمت في ظل وجود الإحتلال الإنكليزي للمدينة عام ١٩٣٠م .

واعتقد بعض المؤرخين المحليين بأن الفرس هم الذين قاموا بتأسيس هذه الصهاريج المكتشفة ، جهلاً منهم بما ورد عنها في المدونات التاريخية القديمة في العهد اليوناني ولعدم اطلاعهم أيضاً على مصادر الرحالة العرب والأجانب السابقين التي أشارت جميعها إلي قدم عهد بناء هذه الصهاريج الذي يعود في أصلة إلى العهد الحميري الأول قبل مجئ الفرس إلى عدن بـ ٥٠٠ عام .

كذا بسبب رغبة قوى الإحتلال البريطاني في التقليل من شأن مقدرة ومهارة الإنسان اليمني على إنشاء مثل هذه الصهاريج ذات المواصفات الهندسية الفنية المعمارية الرائعة التي لايجيدها في نظرهم سوى الأجانب خارج حدود الجزيرة العربية المتخلفة كما يزعمون .

لذا فقد عمد قادة الإحتلال البريطاني إلى إنشاء خزان جديد لمياه الشرب بدلاً من إعادة تشغيل عمل الصهاريج القديمة التي سوف تذكر اليمنيين المعاصرين بأعمال وإبداعات أجدادهم الأول . وهو مالم يرغب الإستعمار في حدوثة . ومايشاهده الزائر اليوم على موقع منطقة الطويلة ليس إلا تحويراً مشوهاً لمهمة عمل الصهاريج اليمنية القديمة الماثلة ، كما سوف نرى .

المواصفات الهندسية
لصهاريج عدن المختلفة

وفقاً لأعمال الاستقصاء والبحث الميداني إتضح بإن هناك العديد من الصهاريج التي كانت تغذي كل حي ومنطقة سكنية داخل عدن على حده.

وتفرق أعمال البحث والدراسة هذه بين الصهاريج القديمة شبة المندثرة التي كانت تتسع لثمانيين مليون جالون وبين الصهاريج الأخرى التي تشاهد اليوم كمعلم تاريخي وأثري اشتهرت بها مدينة عدن منذ أواخر القرن الماضي تحت إسم (صهاريج الطويلة) .

لاتقتصر عملية التفريق هذه على ظاهرة تباعد فترة زمن التشييد فحسب بل في اختلاف طبيعة هندسة البناء وتباين مضمون الأهداف والغايات من وراء ذلك البناء.

لقد اتبع عند بناء الصهاريج القديمة نظام هندسة الري المشهورة في اليمن القديم، القائم على تبني مجموعة خزانات ملاصقة لبعضها في شكل قنطرة تتولى تصريف مياه الأمطار التي كانت تتدفق نحوها على هيئة شلالات، من جبال شمسان تصرفها مباشرة إلى أحياء المدينة .

أما الصهاريج الأخرى التي يشاهد الزائر آثارها اليوم داخل منطقة الطويلة فإنها تعديل وتحوير لمهام عمل الصهاريج القديمة، حيث تقوم بدور الخزن فقط وليس بهدف أعمال التصريف المباشر، وقد جاءت فكرة عملية التعديل الهندسي هذه في أعقاب محاصرة قوات الاحتلال البريطاني لمدينة عدن، ومنع مياه الشرب عنها وقامت في نفس الوقت بتحويل صهاريج الطويلة المرممة إلى خزان لمياه الشرب فقط يمكن السيطرة عليه، والتحكم فيه، وقد عززت قوى الاحتلال هذه الصهاريج بآخر كبير أطلق عليه إسم كوجلان نسبة إلى أحد قادة الاحتلال صاحب فكرة البناء، كما استحدثت قيادة الاحتلال من ناحية أخرى مجوعة من السدود والحواجز المحيطة، وذلك بهدف منع تدفق الطين والحجارة إلى الخزانات المعدلة هذه، وهي المهمة التي كانت تقوم بها مصارف الصهاريج القديمة قبل عملية التعديل هذه دون حاجة إلى إقامة حواجز وعوائق إضافية.

لقد تعطلت أعمال الحواجز والسدود الجديدة هذه وأصيب بالضرر في نفس الوقت بعض مجاري المياه القديمة، الأمر الذي وقف حائلا أمام تدفق مياه الأمطار اليوم إلى الصهاريج المعدلة هذه، وذهاب مياه أمطار جبال شمسان للأسف بعيدا داخل هضبة عدن دون فائده.

لقد عاصرت صهاريج عدن هذه القديم منها والحديث، عاصرت حياة عدن المكتوب، وكان وجودها ضروريا لمدينة كهذه شحيحة في الماء وتتعرض حياة من

يعيش فيها للمشقة، خاصة في ظل ظروف الحصار الخارجي، حيث لايجد الناس أمامهم سوى اللجوء إلى الآبار الجوفية المالحة . لو لم يكن مثل هذه الصهاريج التي أنشئ اليوم على موقعها حديقة عامة أصبحت متنزها رائعا وجميلا لصالح سكان مدينة عدن.

وقد حلت اليوم بدلا عن ذلك مصادر أخرى لتغذية المدينة التي اتسع عددسكانها عشرات المرات عما كانت عليه عند تشييد تلك الخزانات. ومع هذا لايسع الزائر لموقع الصهاريج هذا غير الوقوف إجلالا واحتراما أمام إبداعات الإنسان اليمني الأول الذي قاوم جفاف الطبيعة، وانتصر على شحة موارد المياه، وحافظ على بقاء مدينة عدن حية ومزدهرة وذلك بأقل التكاليف بعيدا عن تلويث البيئة الطبيعية، واستبدال قوى الطاقة الحرارية المدمرة بالوسائل الطبيعية. التي ضمنت لمدينة عدن حياة الصحة والعافية ودفعت بعض الشعراء ليقول عنها :

تقول عيسي وقد وافيت مبتهلا

لحجا وبانت لنا الأعلام من عدن

أمنتهى الأرض ياهذا تريد بنا

فقلت كلا ولكن منتهى اليمن.

نعم إنها عدن فرضة اليمن ـ كما قال زهير بن أيمن بن الهميسع الحميري ـ ومحط رجال التجارة من زمن أيام الملوك الحميريين الأوائل، وإليها كانت ترد المراكب من الحجاز والسند والهند، والحبشة، ويحتار صاحب كل إقليم يصل إليها في اختيار ما يحتاج إليه من بضائع.

وكانت عدن عامرة على عهد الزريعيين وازدادت عمرانا في عهد الرسوليين وأول

من بنى سورها هم بنو زريع الذي يمتد من حصن جبل التعكر إلى جبل حُقّات، وجعلوا لها عدة أبواب هي حُقّات وباب الصاغة، وباب السايلة، وباب الفرضة، وباب مشرف، وباب الساحل.

ومن قصور عدن القديمة دار السعادة، ودار المنظر على جبل حُقّات، ودار الطويلة، ودار البندر بجوار الميناء. وقال الهمداني عن مدينة عدن قبل ألف عام:

«عدن الجنوبية التهامية هذه هي أقدم أسواق العرب وهو ساحل يحيط به جبل لم يكن فيه طريق، فقطع في الجبل باب بزير الحديد فصار لها طريق إلى البر»

نعم كانت عدن:

التاريخ والحضارة، وهي تحاول اليوم جاهدة استعادة ذلك المجد، وإنها لقادرة على صنعه كما فعلت في الماضي.

فوداعا لك ياعدن ... يافَرضة اليمن الكبرى كما قال عنك باعتزاز أجدادنا الحميريون الأول.

حوض البحر الأحمر والجزر اليمنية

الحديث عن تاريخ حوض البحر الأحمر وجزره المرجانية الجميلة وشواطنه الرملية الذهبية ومدنة الحالمة، يعني بالنسبة لعلماء الأجناس وطبقات الأرض ، فتح ملف قصة النزوح البشري الأول من شبه الجزيرة العربية إلى أفريقيا والعكس ،وبدء شروع ظاهرة التفاهم والتحاور بين الأجناس قبل التاريخ المكتوب.

بهذا المعنى نظر العلماء إلى حوض البحر الاحمر باعتباره نقطة البدء لعبور الأجناس ، والالتقاء الأول فيما بينها على الصعيد الديمغرافي أولاً والحضاري ثانياً ، وذلك عبر رحلة بشرية طويلة دامت آلاف السنين قبل أن تتشكل الخارطة الأممية التي نراها اليوم في هيئة مجموعة الأعراق ، والقوميات العديدة المتعصبة المنغلقة على نفسها والطامحة إلى السيطرة على غيرها.

وقد ظلت شواطئ البحر الأحمر – رغم ذلك – ممثلة في ممارسة حياة ونشاط سكان الحضارات اليمنية : سبأ ومعين وحضرموت– وفية لمبدأ التكافل بين البشر الذي سار عليه أجدادهم الأوائل في عصور ما قبل التاريخ المكتوب وتمسكوا من جانبهم بشرف الحفاظ على دور الوساطة بين حضارة المتوسط وأمم وشعوب الشرق ، وتأمين سلامة شريان التجارة العالمي ، وتبادل المنتج الفكري الحضاري ، الأمر الذي وصفه العالم والرحالة اليوناني الكبير (سترابون) بمفخرة (جنوب الجزيرة العربية) التي آمنت طريق القوافل التجارية بين الشرق والغرب ، وكفلت لشعوبها بفضل صيانة طريق البخور الشهير –هذا- حياة الرفاه والازدهار.

على صعيد العلاقات الثنائية بين دول وشعوب الحضارات الكلاسيكية ، اتخذ البحار اليمني الأول طريق البحر الأحمر منفذاً لأعمال الهجرة والتبادل التجاري مع القارة الأفريقية في نفس الوقت.

ووصل احدهم على قاربه الى حاضرة مصر الفرعونية ، وسجل أسمه هناك بلغة المسند على حجر البلق الابيض باعتباره أول تاجر يمني يصل ببضاعته إلى مصر قبل اربعة آلاف عام وقبله بخمسة الاف عام كانت وثائق الهجرة الحبشية قد سجلت على حجر الصوان أبجدية لغة المسند اليمنية التي حملها معه الانسان اليمني الى هناك . وأصبحت اللغة الأم بعد ذلك للشعب الأمهري ، والشهادة الناطقة على وثيقة التمازج البشري الأول في التاريخ ، وهو ما حدث في نفس

تلك اللحظة أيضاً على شواطئ بحر الصين الداخلي. وعلى سواحل مدغشقر ،والهند ، وماليزيا، وجزر القمر بفضل جهد وعقل الإنسان اليمني الأول الذي استخدم مهارته الفذة في علم البحار من أجل تحقيق أهداف حيوية وإنسانية لصالح كل الأمم والشعوب.

غير أن ما حدث لحوض البحر الأحمر – بعد ذلك لم يكن موازياً لأغراض وأهداف البحار والمهاجر اليمني الأول.

فقد تحولت خلجان وجزر ومنافذ البحر الأحمر وشواطنه – بالذات الشواطئ والجزر اليمنية – تحولت إلى ساحة لأعمال القرصنة البحرية ، ومنطلقاً للممارسة الغزو والسيطرة على أراضي الغير والاستئثار بحرية الملاحة ، والاستحواذ على نصيب الأسد من عائد التجارة الدولية ، وإحكام القبضة بالتالي على خط سير رحلة الملاحة البحرية اليمنية ، وإبعادها من أعالي البحار تمهيداً لإقصائها نهائياً عن المشاركة في مضمار نقل التجارة الدولية.

حدث ذلك تباعاً منذ أن بسطت الإمبراطورية الرومانية يدها على حوض البحر الأحمر إثر اكتشاف بحارتها لاتجاه حركة الرياح الموسمية في المحيط الهندي والتي كانت مفهومة للبحار اليمني وأداته في خوض عباب أعالي البحار ، وامتلاك ناصية عبور طرقها المائية ، وفهم طبيعة المعوقات المرجانية ، والنتوءات الجبلية الخطرة.

أعقب الرومان بعد ذلك ، سيطرة السفن البرتغالية مطلع القرن الخامس عشر الميلادي ، على مضايق وجزر البحر الأحمر واحتلال جزيرة ميون، و قصف موانئ مدينة عدن بمدافع الأسطول البرتغالي بهدف تحطيم سواري سفن الشحن التجارية اليمنية ، وإيقاف هذه السفن إلى الأبد عن الحركة داخل حوض البحر الأحمر والمحيط الهندي.

غير أن سيطرة الأسطول البرتغالي على موانئ وجزر البحر الأحمر لم تدم طويلاً ، فقد كان هدف قائده (فاسكو ديجاما) الانطلاق من البحر الأحمر صوب المحيط الهندي ، وجزر الهند الشرقية والاستفادة قدر المستطاع من مهارة البحارة اليمنيين لخوض غمار تلك الرحلة البحرية العسيرة الشاقة الهادفة إلى تحويل ممر طرق التجارة الدولية على الساحل العربي والبحر الأحمر وذلك عبر طريق رأس الرجاء الصالح في جنوب أفريقيا.

لم يحقق عالم البحار اليمني الكبير أبن ماجد مبتغى قائد الأسطول البرتغالي ، رغم ما بذله الأسطول من عطاء لقاء محاولة استفادته من خبرة و تجارب هذا

العالم البحري اليمني الشهير الذي ترك للبشرية معارف بحرية هائلة في شكل مدونات علمية ، وخرائط جغرافية ، وحسابات وقياسات فلكية وبحرية ، ومخططات طبوغرافية غاية في الأهمية ، مثلها مثل إبداعات سليمان بن أحمد المهري اليماني الذي تمرس بدوره في حوض البحر الأحمر والمحيط الهندي بعد ذلك وخلف مجموعة من القواعد المعرفية العلمية في علم البحار تدرس اليوم في الجامعات والمعاهد البحرية العالمية، في مقدمة هذه العلوم كتاب" العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية" وكتاب "المنهاج الفاخر في علم اليمن الزاخر" غير أن أشد الأوقات صعوبة في حياة جزر وشواطئ البحر الأحمر هي التي تلت أعمال الغزو البرتغالي وذلك على يد الأساطيل الإيطالية ، والفرنسية ، والبريطانية التي امتدت عبر ثلاثة قرون (الثامن عشر والتاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين) ذاقت خلاله الموانئ والجزر والمدن اليمنية الساحلية الأمرين ، ودمرت كل سفن التجارة اليمنية وعطلت جميع الأنشطة البحرية المحلية ، بما في ذلك أعمال الصيد الموسمية التي يمارسها السكان المحليون على مقربة من الجزر اليمنية غير الآهلة ، لا يتسع المجال هنا لذكر تفاصيل كل ذلك ، حيث لا تكفي عشرات المجلدات للإيفاء بحق فواجع حوض البحر الأحمر ، ومواجع سكانه التي لا تزال تجر أذيالها حتى اليوم بعد ذهاب أولئك المستعمرين ، وتحرر البحر الأحمر من سيطرتهم العسكرية والتجارية المباشرة ليس أقلها – بالنسبة لليمن – مأساة جزر حنيش اليمنية التي تركتها بريطانيا في الأخير بعد أن جعلت منها بؤرة لنزاع إقليمي ليس له أي تبرير قانوني ولا عرف دولي، بما مَن شأنه وضع علامة استفهام حول الحقوق الشرعية لليمن في ملكية هذه الجزر.

يكتسب حوض البحر الأحمر أهمية كبيرة كوسيط لحركة التجارة العالمية ، ولا ينسى التاريخ في هذا الإطار دور الإنسان اليمني الأول في الحفاظ على أمن وسلامة هذا الممر ، خلال فترة العصور الكلاسيكية الأولى. لذا يتوجب المضي قدماً نحو استطلاع آفاق مستقبل هذا الحوض على الصعيد الاستراتيجي الدولي المعاصر كما من حيث الأهمية الاقتصادية للدول والشعوب المطلة عليه والتعرف بالتالي على مكونات جزره ، ومضايقه ، في علاقتها بأمن واستقرار الساحل اليمني ، الذي يجتذب نحوه سنوياً آلاف السياح العرب والأجانب.

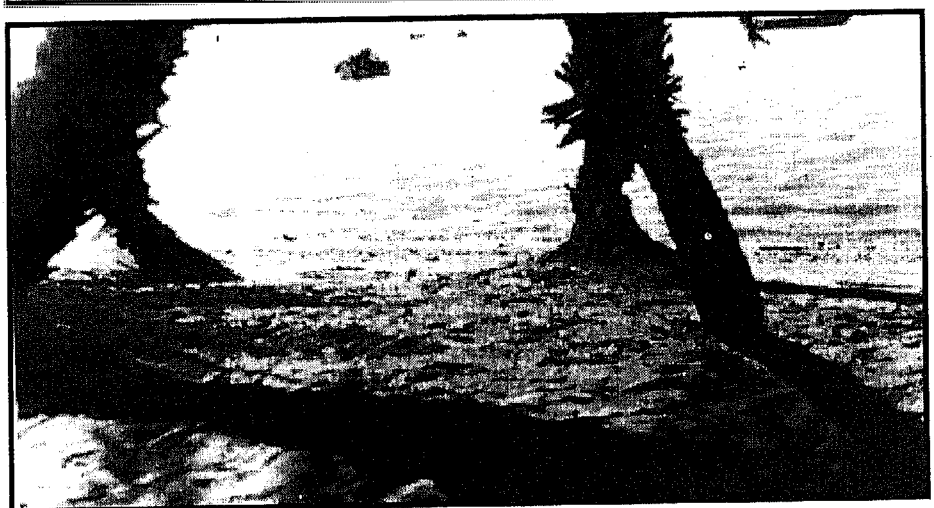
تطالعنا اللوحة الطبوغرافية رقم (٣) لمجموعة الجزر والشعب المرجانية بأحجامها المختلفة ، وأشكالها الجمالية المتنوعة التي تكون صفحة مياه حوض البحر الأحمر وتكسبه بهاء وتلألأ.

إلا أنه يجدر قبل ذلك التعرف على الخاصية العامة لهذا الأخذود الأفريقي العظيم الذي يطلق عليه أسم البحر الأحمر - كما سبق القول - .. مسطح هذا البحر ، ومساحته ، ومناخه ، وما يمثل ذلك بالنسبة للبلدان المطلة عليه ومنها اليمن الذي يمتلك ساحل طويلا على ضفته الشرقية ، وحيث يحتل بالتالي أهم موقع فيه لا يضاهيه أي موقع حساس أخر على الكرة الأرضية ، إنه مضيف باب المندب ، أحد مضايق البحر الأحمر الثلاثة : (جوبال) الواقع على مدخل السويس ، ومضيق (تيران) على مدخل العقبة ، وكلاهما يمثل الذراع الشرقي والغربي لشمال البحر الأحمر ، في حين يقع مضيق (باب المندب) على جنوبه ويمثل البوابه الجنوبية لهذا البحر التي تطل على خليج عدن وبحر العرب في إتجاه المحيط الهندي والعالم الخارجي .

وكما تتحكم في كل من مضيق تيران وجوبال - على الصعيد الطبوغرافي - بعض الجزر المعيقه لمراتهما المائية الدولية هما جزر جوبال وتيران اللتان تقسمان تلك المضايق إلى ممرات عده ، غير أنه لايصلح للملاحة منها غير ممر واحد لا يزيد عرضه عن ٣ أميال ، في حين تبلغ مساحة عرض ممرمضيق باب المندب الرئيسي الصالح للملاحه البحرية ١٥ ميل بحري وطول ٥ ، وعمق ٢٦ قدم ، كما تتوسطه جزيرة ميون (. بريم) التي تبلغ مساحتها ٥ أميال مربعه تفصل الممر الشرقي الأخر غير الصالح للملاحة والذي تنتشر فيه الشعاب المرجانية الحيوية .

على صعيد المساحة الكلية للساحل اليمني قياساً إلى مساحة الدول المطلة على ضفتي البحر الأحمر الشرقية والغربية فإنها تقدر بـ٤٢٠ ميل وذلك من مجموع





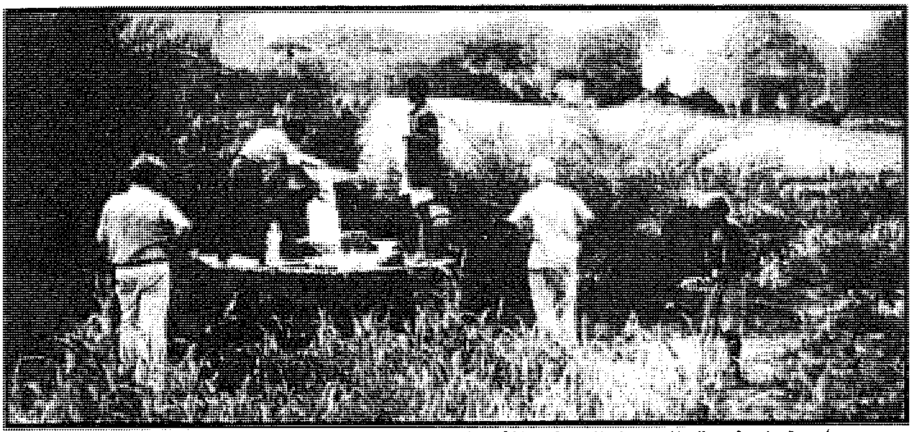
الساحل اليمني نافذة على حوض البحر الأحمر والعالم الخارجي .
إلى الأعلى صورة قارب صيد بدائي من أعواد الشجر أستخدمه الأنسان اليمني قبل التاريخ المكتوب ، ويرى في الصوره أحد أعضاء فريق البحث اليمني الأنجليزي الذي أكتشف هذا القارب في بعض الجزر عام ١٩٨٩م .

٤٩١٠ ميل التي تتقاسمها الأردن وفلسطين والسعودية ومصر والسودان وإرتيريا وجبوتي تمثل ربع مساحة حوض البحر الأحمر الكلية التي تبلغ ١٦٩٠٠٠ ألف ميل مربع .

أقصى عرض لهذا البحر يبلغ ٣٤٠ ميل ويقع مقابل الساحل الإرتيري عند خط العرض ١٦° درجة شمالاً ، وتضيق مساحة هذا العرض كلما أتجهنا جنوباً صوب مضيق باب المندب ، كي تصل في النهاية إلى ٢٢ ميل بحري ، أما على صعيد المناخ الطبيعي والوضع الطبوغرافي لساحل وجزر البحر الأحمر والشاطئ اليمني فإنه يتوفر للساحل اليمني - بفضل مجموعة الجزر القريبة منه - بعض الحماية الدفاعية فضلاً عن المميزات الهيدروغرافية والمناخية الإعتدالية حيث تهب الرياح الجنوبية والجنوبية الشرقية عليه وذلك قياساً إلى إنعدامها في الأجزء الأخرى ، فضلاً عن إنخفاض نسبة الرطوبه ، وهبوط معدل درجة الحرارة يكتسب الساحل اليمني في ظلها طقساً شتوياً رائقاً ، وجواً صيفياً معقولاً ، يجعله - كما سوف نرى - في مقدمة المنتجعات السياحية الهامة على ساحل البحر الأحمر بضفتيه الشرقية والغربية .

المكون الطبوغرافي لجزر البحر الأحمر والساحل اليمني





صوره لاعضاء فريق البحث اليمني الأنجليزي . إلى اليمني البروفسور سرجنت الأستاذ بجامعة لندن ، ومدير المتحف البريطاني إلى شمال الصوره والمؤلف من الجانب اليمني في أعلى الصوره وذلك خلال قيامهم بأعمال البحث الأثرية في تهامه وتصحيح أسماء بعض القرى والبلدات الساحلية الواقعة خطاء في خارطة الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية .

إلى الأعلى صوره لمدفع ساحلي عثماني عثر عليه الفريق تحت رمال ساحل مدينة المخا التاريخيه :

يبلغ عدد هذه الجزر -كما نلاحظ- ١٥٨ جزيرة، يمكن تحديد بعض مواقع هذه الجزر على الخارطة الجغرافية الطبيعية لحوض البحر الأحمر وفقاً لمدى القرب والبعد من السواحل اليمنية ، وذلك على النحو التالي:
على صعيد القسم الجنوبي لحوض البحر الأحمر تحتل كل من جزيرة (رأس المجاملة) وجزيرة ميون الموقع الأقرب إلى الشاطئ اليمني ، في حدود مسافة ميلين بحريين فقط ، في حين تبعد مجموعة جزر حنيش ، وجزيرة (زقر) و (جبل أبو علي) تبعد سبعة عشر ميل بحري ، أما جزيرة الدوران فإنها تبعد حوالي أربعة وعشرين ميل بحري ، كما تبعد جزيرة جبل الطير خمسين ميلاً بحرياً .
جميع هذه الجزر العشر التي لا تبعد عن بعضها البعض سوى أربعة أميال ، جميعها وقع تحت الاحتلال على الصعيد التاريخي من قبل القوات البريطانية وذلك نهاية الحرب العالمية الثانية.
تملك هذه الجزر العشر اليمنية أهمية استراتيجية بالنسبة لليمن كما لحماية أمن مدخل البحر الأحمر ، وخليج عدن.

الوصف الطبيعي لبعض هذه الجزر

تبلغ مساحة جزيرة (زقر) عشرة ك.م.م وسطحها جبلي ، أعلى قمة فيها تبلغ مائة وعشرين متر من سطح البحر ، وهي صالحة للسكن ، وتمتلك -من الناحية الطبوغرافية- مع جزيرة أبو علي وجزر حنيش الصغرى والكبرى- مداخل بحرية كثيرة ، وساحل رملي جميل سهل الاختراق، ويحمل جوف هذه الجزر – على الصعيد الجيوفيزيائي- مخزون مياه عذبة بمقدور نبعها البقاء على وجه الأرض لمدة أربعة أيام قبل أن يختلط هذا النبع بمياه البحر المالحة. كما يوجد فنار طويل خاص بإرشاد السفن ، وذلك على رأس (جبل أبو علي) يعود تاريخه إلى فترة العهد العثماني المتأخرة ، كانت تدير هذا الفنار – على الصعيد التاريخي الحديث- منظمة الأمم المتحدة تحت إشراف وموافقة الحكومة اليمنية المتوكلية الإمامية.
بالنسبة للجزر الأخرى الواقعة وسط وشمال البحر الأحمر على محاذاة الساحل اليمني ، تحتل كل من جزيرة (رضا) و (كمران) و (المورك) وجزيرة (أحمر) و (زوربان) تحتل الموقع الأقرب إلى الساحل اليمني بحدود مسافة ميل واحد إلى

ثلاثة أميال بحرية . أهم هذه الجزر الخمس . جزيرة كمران الآهلة بالسكان،اربعة الاف نسمة يعيشون في اربع قرى ومساحة (٨٠ كم) ومياه عذبة سبق أن اختلها الإنكليز عام ١٩٤٥م في عهد الإمام يحيى حميد الدين، وتسلمتها حكومة الاستقلال في عدن عام ١٩٦٧م التي سلمتها بدورها لحكومة الشطر الشمالي عام ١٩٧٢م.

وتشهد اليوم في ظل إعاذة الوحدة بين الشطرين تطوراً ملموساً . وقد عثرت بداخلها غام ١٩٨٩م على مجموعة وثائق تاريخية تعود للفترة العثمانية قمت بإيداعها في وزارة العدل ، حيث ترتبط هذه الوثائق بقضايا الملكية العقارية ، وتسجيل المواليد ، وصور العقود الشرعية الصادرة من القضاة العثمانيين. سوف يحتاج إليها الورثة في المستقبل ، فوق أنها تمثل مصدراً للدراسات الاجتماعية وتقييم ظروف علاقات الملكية داخل الجزيرة لفترة القرن التاسع عشر الميلادي .

أما بقية الجزر الأخرى الكثيرة بأعدادها الهائلة فإن أقصى بعد بعضها عن الساحل اليمني يصل في المتوسط من ٣٠ إلى ٦٠ ميل بحري تتقاسمه من حيث البعد كل من جزيرة الرافح ٣٩ ميل ، وجزيرة رابين ٣٠ ميل ، وجزيرة دوثلات وجزيرة الدويمه ٦٣ ميل ، وجزيرة بكلان ١٩ ميل ، وجزيرة أرطين ٢١ميل بحري. أما من حيث مستوى القرب في مقدمتها جزيرة (سمير) ١ ميل ، وجزيرة (البري) ٢ ميل ، وجزيرة أم الخماد ١١ ميل ، وجزيرة حرير ٥ ميل ، وجزيرة غراب ٧ ميل ، وجزيرة دحراب ٣ ميل ، وجزيرة الدويمة ٣ ميل .

جميع هذه الجزر غير مأهولة إلا أنها صالحة لأعمال الصيد الموسمي ، وتمتلك بعض الموارد المعدنية و تدخل على الصعيد الجيولوجي ضمن التركيبة الصخرية البركانية الغنية بالمواد والعناصر الكيمائية العلاجية ولا يستبعد الخبراء وجود الغاز الطبيعي ، والمشتقات البترولية على غرار احتياطي مخزون جزر فرسان المجاورة التي دخلت بعد الحرب العالمية ، وسقوط حكم الأدارسة لمنطقة عسير ، وذلك تحت احتلال المملكة العربية السعودية ، نتيجة وهن الحكومة المركزية في صنعاء نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين .

يمكن للسائح الأجنبي والمحلي التنقل سياحة بين بعض هذه الجزر والقيام إذا شاء برحلة بحرية جميلة حولها عبر قوارب شركة السياحة البحرية المزمع إقامتها وذلك بهدف الاستمتاع بمناظر شواطئها الملونة ، مع أخذ حمام شمسي ناعم هناك على رمالها الذهبية بعيداً عن ضجيج الساحل، والتمتع بالسباحة في نفس الوقت

داخل مياهها الآمنة التي تمتد مئات الأميال دون عـائق ، والمحميـة عنـد الأعـالي بحزام صخري مرجاني يوءمن حوض الشاطئ من تدافع قوة الموج ومـن خطـر التيارات المائية والدوامات البحرية الداخلية المزعجة .

لا يقل روعة عن ذلك ، ما تملكه – فـي هـذا الإطـار – شـواطئ المـدن السـاحلية اليمنية دون استثناء غير أنه يتوجب الإشارة إلى أن شاطئ مدينة الخوخة ، يمثـل على الصعيد الطبوغرافي، وحالة المناخ يمثل ظاهرة طبيعية فريدة وسط أجواء المناخ الساحلي المشبع بالرطوبة ، حيث تكتسـي أجـواؤه مسـحة مـن الطـراوة ، والاعتـدال فـي درجـة الحـرارة ، وتظلـه أشـجار النخيـل الباسـقة ، وجوفـه غنـي بمخـزون الميـاه العذبـة ، بمقـدور السـائح حفـر خمسـين سنتـمتراً إذا شـاء تحـت الأرض ليجد نبع مياه بارد بين يديه صالح للشرب والاستحمام.

منجم معدن الفضة في بلادنهم

هناك على بعد مائة وثلاثين كم، من العاصمة صنعاء إتجاه شرق- يوجد منطقة غنية بمخزون معدن الفضّة . تسمى هذه المنطقة المجهولة ، والمعزولة عن العالم بأعداد سكانها البدو الرحل المكدودين ، تسمى منطقة (الرضراض) تقع هذه المنطقة داخل المكون الصخري الجبلي الواسع العريض المسمى بحبيل الصلبْ القريب من بلاد نهم محافظة صنعاء،

داخل هذه المنطقة الجبلية الوعرة ، على ارتفاع ألفين وخمسمائة متر من سطح البحر يجثم منجم معدن الفضة الذي كان يعمل وفقاً لأقوال علامة اليمن أبي الحسن الهمداني حتى مطلع العصر الإسلامي ، قبل أن تتوقف نهائياً عملية الإستخراج منه ، وأعمال التعدين وذلك إثر سقوط دولة آل يعفر اليمنية في القرن الرابع الهجري.

تدخل التركيبة الجيولوجية لهذه المنطقة ضمن التكوينات الجيرية والبازلتية حديثة التكوين قياساً إلى حقبة نشوء الجبال البركانية الخامدة المبكرة ، والتي انساح معها وتفجر مخزون الأرض من المواد الكلسية المعدنية ،والمركبات الكيميائية العلاجية، في حين ظلت هذه المواد محتفظة بنفسها داخل المسطحات الجبلية الصخرية غير البركانية .

تشكل منطقة الصلب هذه خير مثال لظاهرة المكونات الصخرية الجيرية والبازلتية الغنية بمعدن الفضة والنحاس، وحجر الصوّان ، والعقيق الأحمر، والبلق الأبيض والأحمر الشفاف، ومشتقات المادة الطباشيرية .

يتكون منجم الفضة بمنطقة الرضراض من ثلاثة آبار جميعها يقع على مسطح

جبلي مستوي يرتفع الفين وخمسمائة متر عن سطح البحر، ضمن مساحة ثلاثة كيلو متر مربع، تشكل هذه المساحة مجمل مخزون معدن الفضة النفيس. تمثل مناجم هذا المخزون مكان القلب داخله، يصل عمق أحد هذه المناجم إلى مائتي متر.

يقول علامة اليمن الكبير الهمداني ، معلقاً على طبيعة هذا المنجم « ليس في خراسان ولافي أي مكان آخرمايشبه منجم معدن الفضة هذا ويعقب قائلاً : إنه منجم الرضراض الواقع في الحدود بين نهم ومخلاف يام في أرض حمدان التي دمرت عام ٢٧٠ للهجرة الموافق ٨٨٣ للميلاد، * (٢٧)

على مقربة من موقع هذا المنجم كانت توجد قرية كبيرة مزدحمة بالسكان ، وفيها غيل ماء والكثيرمن أشجار النخيل..



إتضح عند التحقق من - طبيعة موقع القرية كما هو واضح في الصورة يساراً والتي لم يبق لهاوجود على الأرض اتضح أن هذه القرية كانت مركزا لأعمال التعدين ، وصهر المواد الخام وصولاً إلي إستخراج معدن الفضة الخالي من عنصر مادة النحاس اللصيقة بمعدن الفضة.

لاتزال آثار مخلفات عملية التعدين واضحة على الأرض الواقعة على سفح الوادي.

حجم تصدير معدن الفضة إلى الخارج ومعدل مقدرة الإنتاج في العام

بخصوص عملية تصدير معدن الفضة والإتجار به على الصعيد المحلي والخارجي، تقول بعض المدونات التاريخية المعاصرة لحياة وأعمال هذا المنجم، تقول بإنه كانت تتم من داخل هذه القرية عملية الإتجار مباشرة ، حيث كان يفد التجار إلى القرية هذه مباشرة من مدينة البصرة كما من صنعاء، حاملين منها عند عودتهم الأطنان الكثيرة من معدن الفضة الخالص على متن قوافل الجمال التي كانت تصل أعداد بعضها نحو ألف جمل ، بما يعادل قافلتين كل فصل، فضلاً عن قدرة المنجم على تغطية حاجة السوق المحلية منه، وتمكين الصاغة، والفنانين الحرفيين، من تشغيل دورة حياة وأعمال الإبداع الفنية التي كانت تجسدها أياديهم الماهرة، في شكل صناعة الحلي، وأدوات الزينة وترصيع المزاهر والخناجر، والتحف الفنية التشكيلية التي برع فيها الصناع اليمنيون القدامى بفضل وجود عنصر معدن الفضة الذي كان يوفره لهم منجم منطقة الرضراض هذا.

على صعيد التبادل التجاري مع الخارج خلال حقبة عمل هذا المنجم التي تعود بدايتها - كما يقول التاريخ - إلى العهود الغابرة في أيام الدولة السبأية الإولى في الألف الثاني قبل الميلاد. التي نهضت قواطع أحجار قصورها ومعابدها، وهوبسات منشآت الري الصناعي وذلك على مادة معدن الفضة والنحاس، كمادة مكملة ومقوية، عثر مؤخرا على لفيف منها في أطلال سد مأرب بلغ طول الواحد منها ثلاثين مترا لم يكن يتسنى الحصول عليها في غياب وجود هذا المنجم،

كان التجار اليمنيون يرافقون هذه القوافل إلى مدينة البصرة حيث يستبدلون قيمة سبائك معدن الفضة هذا بالبضائع الشامية والعراقية التي كانت تفتقر اليمن إليها على ذلك العهد السحيق بالأخص الأقمشة الحريرية ، وتوابل الهند والخزف الصيني الذي كان مشهوراً على نطاق العالم القديم ولازال حتى الآن . وفي هذا الإطار كشفت الدراسات التاريخية المعاصرة ، بأن البعث الحضاري اليمني القديم كان قد تقدم حضارة العراق وبلاد الرافدين بدخوله قبلهما العصر البرونزي، الذي يشكل إنتاج وإستخدام معدن الفضة أهم ملامح هذا العصر،

في حين كانت العراق لاتزال يومها تعيش في حقبة العصر الحديدي الذي لم تكن قد إستخدمت فيه وسائل وأدوات الإنتاج البرونزية كعنصر تحويل من وسائل الإنتاج الخشبية والحجرية إلى إنتاج الأدوات البرونزية .

بهذا المعنى كانت حاجة العراق على ذلك العهد الى منتوج اليمن من معدن الفضة التي كانت تتعامل معه الحضارة اليمنية القديمة بكفائة عالية تمثل هذا التعامل في ظاهرة إكتشاف مناجم الذهب والفضة ومهارة أعمال التعدين وصهر السبائك وصناعة الحلي والخناجر ومايدخل في إطار ذلك من أدوات ووسائل أعمال الإنتاج المتقدمة.

على صعيد الأحصاء الإقتصادي والمردود الإنتاجي لمنجم معدن الفضة في منطقة الرضراض ولإفران صهر وتنقية هذا المعدن داخل تلك القرية الصناعية ، فقد بلغ حجم ماتنتجه أفران الصهر هذه من مادة الفضة الخالصة ، في الأسبوع الواحد مايساوي حمولة جمل واحد ، وقدره عشرين ألف درهم ، وهذا يعني بأنه كان في حوزة اليمن على ذلك العهد مستوى دخل وطني من العملة الصعبة يصل إلى مليون درهم في العام .

لقد كان سعر أوقية الفضة الخام في السوق المحلية اليمنية يساوي ٤٢٠ درهماً ، بما يعني أنه كان للأوقية من الفضة قوة شراء داخل السوق المحلية والعربية والعالمية عالية جداً،

الأمر الذي كان يتناسب مع رغبة التاجر اليمني عند شراء السلع الأجنبية الموازية، ولم تتأثر قوة الشراء هذه سلباً على حياة التاجر اليمني إلابعد أن كف هذا المنجم عن العمل، وأصبحت مادة الفضة نادرة الوجود - إرتفع على أثرذلك سعر الأوقية إلى دينار مطوق، أي نحو عشرة أضعاف سعرها السابق، تماماً كما هو حال الدولار عليه اليوم كوسيلة للتجارة العالمية، حيث يعجز التاجر اليمني المعاصر من الوفاء بإلتزاماته أمام التبادل التجاري الحر الموازي وذلك بسبب توقف أعمال الإنتاج الداخلي الذي تتوقف عليه أعمال المقايضة مع الخارج ، كما كان يفعل أجداده مع منتوج السلعة التجارية لمعدن الفضة كعنصر موازي لإستيراد المنتوج السلعي البضائعي الخارجي .

وقد علق علامة اليمن الهمداني قبل الف سنة على فاجعة توقف العمل في منجم الرضراض هذا بقوله :

«لقد قابلت إثنان من كبار تجار بلاد فارس قدما إلى اليمن لبعض أعمال لهما فيه ، وقالا لي بعد أن شاهدا أثار المناجم الخربة من منطقة الرضراض قالا : كم من الأموال ياأهل اليمن أضعتموها في الأرض».

هذان التاجران الفارسيان كانا يعرفان بدقة مامعنى كلامهما هذا لعلامة اليمني الهمداني. لقد كانا يعنيان القول بإنه ليس فقط إضاعة أهل اليمن لإموال الله داخل هذه المناجم فحسب ، بل توقف عجلة الحياه المزدهرة داخل اليمن نفسها ، وإصابة أعمال الحرفيين الفنيين اليمنيين بالشلل ، وتوقف أعمال الإبداع الفني التشكيلي ،

وموت صناعة الحلي ومواد الزينة وأعمال الزخرفة ، وفوق هذا وذاك حرمان المجتمع اليمني من السلع البضائعية الخارجية التي كان يفتقر إليها .

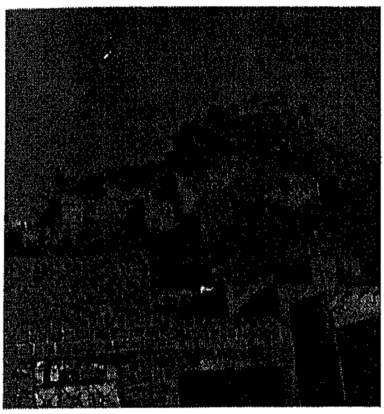
لهذا لاغرابة إذا ماسارعت حكومة الثورة مؤخراً بإبرام عقد إتفاق مع بعض الشركات الفرنسية بهدف إعادة روح الحياة إلى هذا المنجم وجعله يلعب مجدداً دوره الفاعل في تنمية الحياة وإزدهارها على الأرض اليمنية .

عقد ذلك الإتفاق في مطلع الثمانينات ، وباشر في أثره الخبراء الفرنسيون أعمال المسح في المنطقة ، وحاولت أجهزتهم العلمية سبر غور مخزونه من معدن الفضة ومعرفة حجم مردود هذا المخزون على الصعيد التجاري العالمي..

غير أنه قد مضى الكثير من الوقت الكافي لمعرفة كل ذلك ، ولم تظهر حتى اليوم للأسف أية نتائج مبشرة في حين تحاول اليمن جاهدةً استعادة مجدها الزاهر ، وتنتظر بفارغ الصبر عودة عمل هذه المناجم.

قلعة القاهرة في مدينة حجة
التأريخ وفن هندسة البناء

تدخل قلعة القاهرة بمدينة حجة وذلك في عداد القلاع والحصون الدفاعيه التي أرتبط نشوءها بوجود المدن ومراكز بعض المحافظات والأقاليم ، وأصبحت جزءاً من حياة المدنية على الصعيد الأمني والدفاعي ، كما على الصعيد التاريخي والسياسي ، وحيث قامت مثل هذه القلاع وتقوم في أحيان كثيره بإنجاز مهام عسكرية وأمنية مزدوجه هما الدفاع الخارجي عن المدينة من جهه وحماية الأمن الداخلي ومنفى للخصوم السياسيين ، ومعتقلاً لهم من جهه ثانيه .



صورة رقم (٣)

تجسدت عملية الإزدواج هذه بوضوح في قلعة القاهرة القائمة كما نلاحظ صورة رقم (٣) على قمة الجبل المسمى بإسمها والذي يشكل مع كل من قلعة (نعمان) وحصن (الجاهلي) وقلعة (الظفير) المجاورة يشكل تحصيناً دفاعياً ليس لمدينة حجة فحسب بل لحماية المنطقة المحيطه بها ، ورقيباً على خطوط مواصلاتها العامة المؤدية إلى نواحي وعزل كل من بني العوام ، ولاعه ، والشغادره ، ونجره ، وبني قيس ، ومسور ، وكحلان تاج ، وبني جديله ، وإلى المحابشه من ثم والطريق الفرعية منها النافذة نحو عبس وبلاد التهايم : حرض ، وميدي ، والحديدة

على هذا الأساس تمثل قلاع مدنية حجة وفي مقدمتها قلعة القاهرة هذه وحصن (مبين) في المحابشه ، تمثل في مجموعها نقطة إرتكاز لحماية أمن المناطق الشمالية والشمالية الغربية ، ومد النفوذ والسيطرة منها على طرق المواصلات من وإلى مناطق الحدود اليمنية داخل المخلاف السليماني : عسير وموانيه وجزره على ساحل البحر الأحمر .

تنسب مدنية حجة - كما تقولَ المصادر التاريخية غير الموثقة - تنسب إلى القيل حجة بن أسلم بن عليان بن زيد ، بن جشم ، بن حاشد (١٢) .

وكانت على الصعيد التاريخي موطن العديد من حكومات الأئمة السابقين ، ومستند بعض الحركات المذهبيه المناهضة للحكم المركزي في بغداد والقاهرة الفاطمية ، كما كانت ملاذاً أمناً - في العصر الحديث - لأحفاد دولة الإمام القاسم ،وخط دفاعهم الأخير في وجه العواصف السياسية والثورات الوطنية ، لعبة فيها قلعة القاهرة هذه دور المدافع القوي والحامي الأمين .

ينطبق نفس الأمر في ظل ظروف الصراعات العشائرية المحلية ، وأعمال الإقتتال حول مدينة حجة بين بعضهم البعض من جهه ، أو بينهم وبين الأئمة من جهة أخر كان ذلك يحدث على الدوام في العصور القديمة والحديثة وذلك كلما دب الوهن والضعف في جسم الدولة المركزية في صنعاء .

في نهاية الأربعينات وبداية الستينات من هذا القرن شهدت قلعة القاهرة هذه التي يعود تاريخ إنشائها إلى القرن السابع عشر ، شهدت جملة من الأنشطة الحربية والأعمال العسكرية الهامة التي غيرت طابع اللوحه السياسية لليمن المعاصر.

حدث ذلك مرتينً بوتيره متسارعة ، الأولى عشيه حركة ٤٨ ، والأخرى عام ٥٥

وذلك في أعقاب تحرك قوات المعارضة للحركتين وإتخاذهما من مدينة وقلعة حجة منطلقها لمقاومة تلك الحركات وإسقاطها أخيراً على يد كل من ولي العهد ، الإمام أحمد بالنسبة لعام ٤٨ وولي عهده محمد البدر بالنسبة لعام ٥٥ .

فقط بفارق سبع سنوات بين الإنتفاضتين تم إجهاض الحركتين وذلك مقابل فوز مدينة حجة وقلعتها بالنصر وحصول الحكم الإمامي على الحرية وتمكنه - بفضلهما - من الإستمرارية ، إلا أن أعوام ١٩٦٢م ، ١٩٦٥م ، ١٩٦٨م كانت مميزة وحاسمة في حياة المدينة هذه وقلعتها المتعملقه على جبل القاهرة حيث أنتقل زمام المبادرة خلالها إلى يد قوى الثورة التي تمكنت قيادتها من السيطرة على القلعة والمدينة والإنطلاق منهما لإستعادة المناطق والمدن المجاورة التي سقطت في يد القوى المضادة للثورة (٢٢) .

لم تكتسب قلعة القاهرة شهرتها من ناحية ثانية إلا مؤخراً ، بعد إن إنتقل مركز الحكم إلى مدينة حجة في القرن السابع عشر على يد الدولة القاسمية وإضمحلال دور قلاع وحصون مدن مسور حجة ، وبيت عذاقه المجاوره التي تولت لأعوام طوال مهمة الحفاظ على سلامة أمن المناطق الشمالية الغربية هذه وذلك خلال العهدين الإسماعيلي والصليحي ، ودولة آل شرف الدين بعدهما والتي أتخذت من حصن مبين مركز إدارياً للمنطقة .

نبعت الشهره المعاصرة لقلعة مدينة حجة (القاهرة) هذه من كونها - بالإضافة إلى تمكن ثورة سبتمبر من السيطرة عليها - كونها قد إحتضنت بداخلها لسنوات قادة حركة المعارضة التي كانت بالنسبة لهم بمثابة مدرسة كبرى خرج منها صوتهم الى عالم النور، ودونت فيها مذكراتهم السياسية ، وصممت خططهم الثورية المستقبلية ، بهذا المعنى نظر الناس اليها كمدرسة فكر وإشعاع جديدين تركا

بصماتهما على سيرمجرى احداث ثورة ٢٦سبتمبر ٦٢ ، كما على حركة ٥٥، وأنتفاضة عام ٦١ بقيادة المجاهد الكبير والوطني العظيم حميد بن حسين الأحمر، والملازم الشهيد عبد الله محمد اللقية خريج سجن قلعة القاهرة هذه ، وأحد تلامذة اولئك الرواد الأول المعتقلون داخلها (٣١)

صفات ومكونات القلعة

من حيث طابع موقع القلعة ،ومكونات عناصر فن هندسة بنائها المعاري ، فهي كما تبدو من الخارج تقف عملاقة على قمة جبل القاهرة ، على إرتفاع الفي قدم عن سطح البحر.

على عكس القلاع والحصون المجاورة فإن الطريق اليها مكشوفة ، سهلة الإرتقاء وخالية من اي حماية محكمة، وتبدو من حيث المواضعة الطبوغرافية كما لو أنها طريقاً عادية غير مميزة، يستخدمها المشاة ، ويرتادها السواح دونما صعوبة ، الميزة الوحيدة للقعة على الصعيد الدفاعي الإستراتيجي في ان طابع هيكل مبناها الخارجي الظاهري يشكل جسما واحدا مع سورها الذي يغطي كل مساحة القمة بما لايسمح لأي كان إجتياز القلعة سوى عن طريق بوابتها الرئيسية الواقعة في الجهة الغربية .

بسبب تلك الخاصية الطبوغرافية السلبية لموقع القلعة وطريقها المكشوفه فقد تأهلت - بسبب نقطة الضعف هذه - كي تكون مكاناً سكنياً طبيعياً ، وحصناً أمناً للإقامة الدائمة كأي حصن جبلي آهل بالحياة والسكان .

وقد أدرك مصمم خارطة مبنى القلعة الخاصية الطبوغرافية للموقع وهشاشة،

تضاريس الطريق المؤدية الى قمة الجبل ، فوضع خطة البناء على ذلك الأساس بخيث أخذ الشكل الدائري التربيعي الذي يسمح بالتجوال داخله بأمان ، والصعود منه كذلك الى غرف الإقامة كما الى سطح القلعة المكشوف ومواقع الإستحكامات فيه ، والى خزان الماء ومبنى المستودع ، ودورة المياه ، مثل أي سكن عادي على رؤوس الجبال في اليمن تتوفر لأصحابه الحماية الداخلية من القناصة في الخارج ، مع إمتلاك الصلاحية في نفس الوقت لعملية العزل الإجتماعي ، وإبعاد ساكنية عن الحياة العامة ، وممارسة النشاط السياسي الخارجي ، وتعذر فكاكهم من الأسر داخله وهو ما كان بالفعل كما أشرنا .

تبلغ مساحة مبنى القلعة والسور عند مستوى قمة الجبل شبه المستطيلة ، سبعمائة متر مربع ، يشكل مبنى القلعة الرئيسي المكون من ثلاثة طوابق القسم الداخلي للقلعة والذي يتم الخروج منه الى سطحها عبر بوابه صغيره ، حيث تقع الدفاعات الخارجية المطلة على واجهة المدينة وأجزائها الشرقية والغربية شبه المخفية ، أسلوب فن عمارة القلعة يمثل بشكل عام الطراز المعماري القديم المعدل ، فهو من ناحية تصميم المداخل والمخارج وحجم نوافذ الغرف وأسلوب وضع السلالم وقواعد الحبطان ، يمثل طابع فن العمارة اليمني الأصيل ، في حين يحكم هيكلية شكل المبنى الداخلي ، أسلوب هندسة العمارة التركية الذي يملك قدراً من السعة والإنفتاح ، وتوفر بعض الإضائة الخارجية .

في ضوء الأهمية التاريخية للقلعة التي خط عليها قصة حياة اليمن الجديد ، ولموقعها السياحي المناسب الذي يوفر متعة مشاهدة أجمل المناظر الطبيعية في اليمن ، ياحبذا لو تحول موقعها الرائع هذا - في ظل أجواء الأمان والإستقرار - تحوله الى مكان عام تتوفر فيه وسائل الخدمة والراحة ، وهو ما يتردد ذكره على لسان بعض

السواح الأجانب الذي يفدون الى هذا الموقع بالألف على مدار العام ؛ ويغادرونه مضطرين بعد لحظات بسبب إنعدام أماكن للراحة والجلوس ، دون مطعم أو بوفية لتناول المرطبات وأخذ بعض النفس والراحة ، والتمتع لبعض الوقت بهذه المناظر الطبيعية الحالمة التي قطعوا الآف الأميال وشدوا عصا الرحال بهدف مشاهدتها ، والتمتع بسحرها ، وإستنشاق عطر هوائها ، سوف لن يعمل ذلك سوى عن رفع معدل نسبة دخل المواطن اليمني ، ويوفر لخزينة الدولة الكثير من العملة الصعبة وإكتساب مزيد من السمعه الطيبة والذكرى الحميدة التي يحملها السواح لليمن الجديد وإنسانه المسالم العظيم .

ـ قلعة ومدينة ثلا ـ

على مسافة ٤٥ كيلومتر شمال غرب العاصمة صنعاء، تقع مدينة وقلعة ثلا الإستراتيجية المشهورة في التاريخ اليمني القديم والحديث.

ارتبط اسم القلعة هذه باسم مدينة ثلا التي تكّون مع سورها التاريخي والأبراج المحاذية لهذا السور من جهة الشمال. تكون معهما موقعا دفاعيا واحداً يشرف على ملتقى الطرق المؤدية إلى بلاد مسور حجة في الشمال الغربي، وإلى بلاد عيال سريح وعمران شمال شرق، وإلى صنعاء جنوبا.

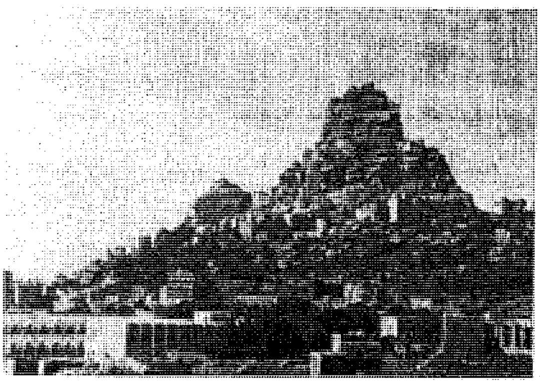
ينسب إسم المدينة إلى القائد الحميري الأصغر ثلا بن لباخة بن أقيان بن حمير. كما ورد في كتاب العّلامة المؤرخ الحجري (١٢).

رغم أنه لايوجد وثيقة خطية مسندية باللغة الحميرية تدعم هذا القول إلا أن المراجع التاريخية الكلاسيكية ومخلفات النقوش واللقى الأثرية نؤكد جميعها بأن قلعة ومدينة ثلا يعود منشئهما إلى العهد الحميري المتأخر على أعتاب القرن الرابع للميلاد وقد عدها العلامة الهمداني الذي عاش في القرن السابع الميلادي، نهاية القرن الثالث الهجري عد مدينة ثلا إلى مخلاف (أقيان) وهي نفس الفترة التاريخية التي يرد فيها ذكر تقسيم اليمن إلى عدد من المخاليف التي يتزعمها مجموعة الأقيال والأذواء الثمانية وذلك عشية ضعف ووهن الدولة المركزية الحميرية في نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس للميلاد.

من حيث الأهمية الاستراتيجية العسكرية لقلعة ومدينة ثلا، فإنه قل مايماثل دورهما الأمني والدفاعي على امتداد فترة الألفي عام المنصرمة، وذلك نظراالأهمية موقع القلعة والمدينة، وسيطرتهما على منطقة المثلث الاستراتيجي في قلب ملتقى

خطوط المواصلات داخل أجزاء اليمن الشمالية الغربية، والشرقية ، التي انتقلت اليها منذ مطلع القرون الوسطى المبكرة قبل الإسلام، حميا المعارك الوطنية ضد الغزو الحبشي والإستعمار الفارسي اللذان اتخذا من صنعاء عاصمة لحكم اليمن بعد أن فقدت عواصم الدولة الحميرية المتأخرة (ظفار، وبينون ، وغيمان) رونقها مع أفول نجم أسرة أب كرب أسعد الملكية ، وإستعادة السيطرة والنفوذ للزعماء العشائريين أصحاب النزعة الإنفصالية ، وحيث أصبحت هذه المنطقة بالتالي نقطة ارتكاز أعمال المقاومة الوطنية فيما بعد ضد الغزو العثماني، والإحتلال التركي ، وضد القوى الملكية المضادة لثورة ٢٦سبتمبر.

قيل في هذا الصدد ، بأن من سيطرعلى هذا المثلث، الواقع بين قلعة ومدينة ثلا وجبل الشيخ المحاذي لهما من الغرب، وبين حصن كوكبان وجبل (ذمرمر) في الجنوب ، وقلعة العروس على مدخل سهل وادي الأهجر النافذ إلى بلاد الحيمتين ومناخة حيث طرق الإمداد الرئيسية إلى شمال اليمن ، « من سيطر على هذا المثلث فقد أمتلك أرض اليمن». (٣٤)


منظر للقلعة من جهة الشرق

صدر هذا القول من قبل القائد العسكري العثماني سنان باشا الأول بعد أن فشلت قواته في الاستيلاء على مدينة وقلعة ثلا الإستراتيجية هذه رغم ضرب حصار حولها دام ثلاثة شهور دون جدوى مما أرغم هذه القوات على الإنسحاب والتقهقر من

المنطقة وعدم التفكير مجدداً

بمواصلة تقدم قوى الإحتلال العثماني في اتجاه شمال وغرب اليمن، واجبار القائد العسكري العثماني سنان باشا بالتالي على توقيع الصلح المشهور مع الإمام المطهر شرف الدين الذي كان قد تحصن مع قادة جيوشه في كل من قلعة ثلا هذه، وحصن جبل كوكبان وقلعة العروس وحاز على النصر وذلك بحلول نهاية القرن الخامس عشر.

في مطلع أعوام ٦٢ ومنتصف٦٣ ، و٦٤ ، و ١٩٦٨م ، إثر قيام الثورة اليمنية ، لعبت قلعة ومدينة ثلا دور الدفاع المتقدم والمسئول الأول عن بقاء حياة النظام الجمهوري الجديد. وبمجرد استيلاء قادة النظام الجمهوري بقيادة الفريق حسن العمري على مثلث القلعة الذي كان يواجه مقاومة عنيفة من داخل المثلث والمنطقة الإستراتيجية هذه ، تم تأمين عاصمة النظام الجمهوري من التهديد الملكي الذي كانت تحتشد قواه في بلاد مسور وحجة، والطويلة، والحيمتين وجبل عيال سريح خارج ذلك المثلث.

وبوصول أول مصفحة عسكرية مجنزرة إلى مدينة ثلا ورأس جبل كوكبان على إرتفاع ألفين وخمسمائة قدم بوصول ذلك السلاح الثقيل إلى قمة المثلث الإستراتيجي هذا تكون قوات الثورة قد أمنت لنفسها حماية منطقة واسعة من الأرض ، وقذفت بشبح الخوف على عاصمة الثورة إلى مكان بعيد عنها سرعان ما تلاشى شبح الخوف هذا نهائياً من البلاد بأسرها.

اليوم - في ظل ظروف الاستقرار - تشهد طرق المثلث الإستراتيجي هذه تشهد تحولاً جذرياً، فقد باتت الطرق معبدة بالإسفلت إلى رأس جبل كوكبان ، وإلى محيط قلعة العروس في الشمال، وبلاد الأهجر والمحويت والطويلة في الغرب، وأصبح مثلث

وصل بين كل الأقاليم والقرى ونقطة ارتكاز لمده شريان الحياة والتطور في عموم المناطق الشمالية الغربية.

على صعيد الجانب المعماري الهندسي لقلعة ثلا هذه نجد - قبل كل شئ - تميز موقعها على نتوء جبلي صخرى يرتفع طوله خمسة وستين متراً من سطح الأرض، حيث يشكل هذا النتوء الصخري مع بقية مبنى القلعة الواقعة عليه ارتفاعاً يصل إلى الفين وخمسة عشر قدم من سطح البحر، وتعتبر بهذا المعنى نموذجاً للموقع الدفاعي المثالي الذي يمد نظره نحو كل الإتجاهات ويبسط مرفقيه على طرق المواصلات في المنطقة ، لايشوش على بعض قدرات وإمكانات موقع القلعة هذه سوى جبل الشيخ العملاق المواجه لها من جهة الغرب ، والذي كان على الدوام خلال عملية معارك الحماية و الدفاع للقلعة ، يضع بعض العقبات والمشاكل العسكرية أمامها ، حيث كان بمقدور من يقف خلف جبل الشيخ هذا أو يعتلي رأسه وبهض جوانبه ، بمقدوره القيام بشن الغارة على القلعة والمدينة ، وقنص المدافعين عنهما، واصطيادهم برصاص البندقية الأمر الذي كان يتطلب اتخاذ إجراءات أمنية إضافية من قبل المدافعين عن القلعة، بالأخص بعد اكتشاف السلاح الناري في مطلع العصر الحديث .

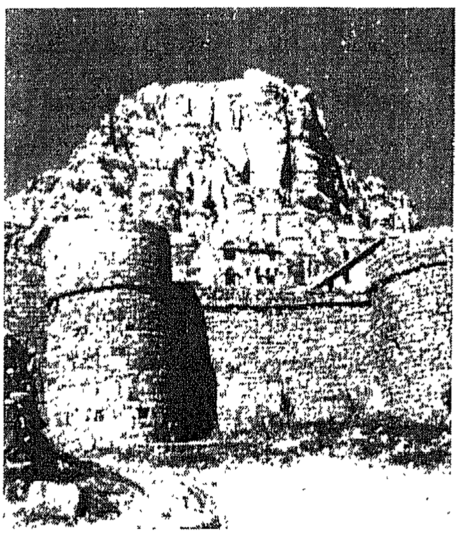
الطريق إلى سطح القلعة شبه مستحيل ولايوجد سوى ممر خاص نحت بعضه بإحكام في عرض الجبل بشكل عمودي ، ويتسع لمرورأكثر من شخص بالإمكان مراقبتهما من قبل المدافعين عن القلعة أومن قبل المحاربين في المدينة .

ويتحدث الناس عن وجود طريق سري داخل جبل القلعة يمتد من رأسها حتى أسفلها داخل المدينة هدفه تأمين نزول المحاربين إليها والطلوع منها بعيداً عن رصاص القناصة خارج المدينة، ومع أني لم أكتشف حقيقة وجود هذا الممر السري عندما

صحبت الفريق حسن العمري لزيارة القلعة عام ١٩٦٤م خلال عمليات المعارك الطاحنة يومها في المنطقة. إلا أن هذا الرأي قد وفر فرصة إضافية لبعض الدارسين والباحثين المعاصرين مكنتهم من فهم سر ارتباط القلعة والمدينة بعملية الدفاع المشترك واعتبارهما موقعاً دفاعياً واحداً لايتجزأ وذلك على عكس بقية القلاع الأخرى البعيدة عن المدن التي تنتفي منها صفة وحدة الدفاع المشترك .

وهذه ميزة آخرى تسجل في نظرهم لصالح قلعة ثلا، وتكسبها فضيلة الموقع الدفاعي المثالي الذي يجد له متسعاً داخل المدينة التي تمده بدورها بعناصر البقاء والاستمرارية في أعمال الدفاع الرئيسية، وهو ماكان قد أذهل القائد العثماني سنان باشا الأول ودفعه للإعتراف صراحة بعبقرية هذا الموقع العسكري الذي وحد بين مهمة القلعة والمدينة في وقت واحد، وجعلهما جزءاً واحداً لايتجز.

القاسم المشترك في ظاهرة عملية التوحد الدفاعي هذا في نظري يكمن في وضعية مبنى السور الحجري الذي يلتف حول المدينة والقلعة على إمتداد ألفين متر كما توضح الصورة .←



يقع جبل القلعة في هذا الإطار على الركن الشمالي الغربي للمدينة ، ويشكل جسمه جزءاً من عملية السور الوقائي الذي يربط بين أجزاء السور من الشمال الغربي ، والجنوب الغربي للمدينة مكملاً بجسمه هذا عملية الإلتفاف الكامل حول المدينة والقلعة في نفس الوقت .

المواصفات الداخلية

لقلعة وسور المدينة

يتغير شكل ارتفاع مبنى السور من مكان لآخر فهو يبلغ عند الجزء الشمالي الشرقي أقصى ارتفاع له بحوالي واحد وعشرين متر ، في حين لايزيد هذا الإرتفاع في بقية الأجزاء سوى عن سبعة إلى عشرة أمتار خاصة في القسم الغربي والجنوبي الشرقي ، أي في تلك الأجزاء البعيدة عن موقع جبل القلعة،

يدخل مبنى جامع الإمام محمد بن الهادي بن الإمام المطهروذلك ضمن إطار مبنى السور في الجزء الشرقي منه مما يدل على تجدد عمارة جدار السور الشرقي في عهد دولة الإمام المطهر شرف الدين (القرن الخامس عشر).

يتموضع كل من السور وجبل القلعة هذا على ثمانية أبواب كبيرة الحجم نسبياً وليس على بابان كما تدعي إصدارات الهيئة العامة للسياحة (١) يتوسط كل واحد من هذه الأبواب عقد دائري علي ارتفاع أربعة إلى خمسة أمتار، وعرض ثلاثة أمتار، في حين تنهض على مدخله بعض الاستحكامات الدفاعية في هيئة برجين

---

(١) ينسحب هذا لاخطاء المعرفي وذلك على وصف معضم أوضاع المدن اليمنية فقد جاء بأن أبواب صنعاء القديمه كانت أربعة فقط في حين أن أعدادها يصل إلى (١٢) باب .نجملها كالتالي : باب شعوب، باب اليمن ، باب الشقاديف، باب خزيمه ، باب البونيه ، باب الروم ، باب البلقة ، باب عبيله ، باب السلام ، باب القاع ، باب بير العزب ، باب الصلبي .

نفس الخطاء في مايخص وظيفة كلاً من سمسرة النحاس وسمسرة محمد أبن أحسن حيث تقول مصادر الهيئة العامة للسياحة في أخر أصدار لها بأن هذه السماسر كانت تستخدم بمثابة نزل للمسافرين في حين أنها لم تكن كذلك بل كانت تؤدي دور المستودعات الكبيرة للتجارة ومخازن لنقود الفضيه التجار الكبار نوع ماريا تريزا ، إلى غير ذلك من الأخطاء المعرفيه التاريخيه التي لايتسع المجال لذكرها .

مدورين على غرار نمط هندسة الدفاع العسكري العثماني ، يطلق السكان على الواحد من هذه الإستحكامات الإضافية اسم (النوبة) وأعداد هذه النوب كثيرة إلى الحد الذي يبدو معه السور وكأنه موشى بالخطوط المدورة البارزة. يصل عدد هذه النوب إلى أربعين نوبة بما في ذلك نوب الاستحكامات الواقعة على مداخل البوابات الثمانية التي يشكل مدخل القلعة الرسمي أحدها، ويقع في الجانب الشمالي الغربي للمدينة

مدينة ثلا الواقعة داخل حزام السور هذا ليست بالمدينة الكبيرة، غير أن طابع شكل معمارها وهندسة طرق شوارعها، وأسلوب فن الزخارف التشكيلية على بعض مبانيها وداخل جامعها الكبير بطرازه المعماري اليمني المحلي الأصيل العائد للقرن السادس عشر الميلادي ، إنما يشكل بعداً واسعاً للمدينة ويكسبها فخامة وعظمة داخلية قل وجود وقع لصداها في النفس والوجدان عند مشاهدة المدن الكبيرة المعاصرة ، الفارغة من المضمون الإنساني وخلومظهرها المعماري من الطابع الفني المصحوب بجلال التاريخ وزهاء الماضي المتألق .

يتكون رأس القلعة من مساحة صغيرة رئيسية مضلعة الشكل يتوسطها بركة ماء للشرب هي عبارة عن عين جارية تنبع من داخل جوف بعض النتواءات الصخرية المضلعة هذه ، يتدفق منها الماء وينزل بدوره إلى المدينة عبرقنوات حجرية صناعية تصب في بركة على شكل صهريج لخزن الماء وتصريفه لصالح سكان المدينة، فقد أحسن مصمم بناء القلعة إستغلال ضيق مساحة القمة، وأبقى عملها مقصوراً على مهمة الدفاع فقط في هيئة ثلاثة إستحكامات داخلية مدورة الشكل وعليها سقف ترابي وخشبي ، ونوافذ صغيرة غير مرئية من الخارج ، وهو أسلوب معماري معدل في حياة الاستحكامات اليمنية القديمة طرأ مؤخراً في أعقاب إكتشاف الأسلحة

النارية، كما استحدث لنفس السبب حائط حجري ساترمن تحركات المدافعين عن القلعة من القناصة داخل جبل الشيخ الواقع إلى الغرب .

يتميز طابع فن بناء استحكامات القلعة هذه بما في ذلك مباني المستودعات ومخازن الذخيرة التي تعد بالأصابع وكذا مباني الاستحكامات الخارجية الخمس الموزعة على مقربة من خصر جبل القلعة والتي تطل بدورها على كل من جبل الشيخ، في الغرب، وعلى الجنوب والشمال، وشرق المدينة.

يتميز فن بناء هذه الاستحكامات الدفاعية المستحدثة بالطابع اليمني الحميري القديم المعدل ببعض أنماط طراز فن العمارة العسكرية التركية بما يتناسب مع تطور تقنية وسائل الدفاع الحديثة، ومع هذا فقد انعدمت ظاهرة التشكيلات الفنية الخارجية التي تتميز بها القلاع العثمانية والأوروبية التي تتخذ من أعمال التخريم والتربيع والتضليع معالم فنية بارزة على واجهة القلاع والحصون.

قلاع وحصون الطويلة

ليس هناك من تفسير تجاه زخم وأهمية عدد القلاع والحصون المنتشرة على ارض الطويلة سوى أن هذه الأرض تقع على الصعيد الجغرافي في مركز القلب داخل مناطق اليمن الشمالية الغربية وكونها تمثل على الصعيد الطبوغرافي همزة الوصل ونقطة التقاء هذه المناطق فيما بينها من جهة وبين المناطق المجاورة من جهة ثانية فضلاً عن أن ارض الطويلة هذه تعتبر على الصعيد التجاري ملتقى حركة القوافل التجارية النافذة من والى أقسام البلاد اليمنية الواقعة شمال شرق وشمال غرب والبوابة الرئيسية على الصعيد العسكري لمدخل المثلث الأرضي الاستراتيجي المؤدي إلى العاصمة صنعاء من ناحية والى مدن وقرى الأراضي في الشمال والشرق من ناحية أخرى .

ترتفع منطقة الطويلة عن سطح البحر بمقدار ألفي متر وتضم مجموعة من النواجي والعزل والعديد من الأقسام والأفخاذ واسر القضاة ومشايخ العلم والأدب كان في طليعتهم عالم اليمن الكبير القاضي صالح بن مهدي المقبلي مؤلف مخطوطة (العلم الشامخ) وكتاب (الأبحاث المسددة في فنون متعددة) .

تتصل بلاد الطويلة هذه بأراضي مسور والمصانع وثلا ولاعة في الشمال و أراضي همدان وصنعاء في الشرق، ومن الغرب بلاد المحويت ووادي سردود والحيمتين وحراز في الجنوب . .

تتموضع أراضي بلاد الطويلة على الصعيد الجيولوجي تتموضع تضاريسها على الطبقات الصخرية الجيرية المحولة وتغطي المكونات البركانية بعض

نتوءاتها الجبلية التي تمتد كما يلاحظ الزائرمن حدود ناحية بني الخياط مـــروراً بمركز المدينة وحتى أراضي المحويت في الغرب .

لعبت بلاد الطويلة على الصعيد التاريخي دور الجسر الذي عبرت عليه سنابك قوى الاحتلال العثماني الأول في القرن الخامس عشر الميلادي بقيادة الوالـــي العثماني سنان باشا الأول الذي اتخذ من مدينة وقلاع وحصون الطويلة مقـــراً لحامية جيوشه ومركزاً لتحركات هذه الجيوش على طول وعرض اليمن.

وفيها استشهد في العصر الحديث العقيد محمد الوادعي قائد فيلق الثورة الثـالث الذي كان يتولى منها صد هجوم القوى المضادة للثورة عام ١٩٦٣.

هناك العديد من القلاع والحصون التي تمتد كما نشاهد على مقربة من مدينــــة الطويلة وتطوق محيطها من جميع الاتجاهات .

رغم أن الجبال الخمسة الشاهقة التي تعتلي عليها تلك القـــلاع والحصـــون لا تمتلك قمما مسطحة وغير مفتوحة على نفسها على عكس القــــلاع العســـكرية الهامة الأخرى الآهلة بالمنشآت الأمنية والتحصينات الدفاعية إلا أن هذه الجبال رغم ذلك لم تفقد كما نشاهد خاصية الاستحكامات الدفاعية المتوفرة لدى القلاع والحصون العسكرية الأخرى فقد تم حفر مواقع استحكامات عســـكرية علـــى مقربة من قمة هذه الجبال شبة المخروطية وشيد على خصرها مجموعة القلاع والحصون وأماكن الإقامة الجنود ومكاتب للقيادة لا تزال أقسام منها تعمل حتى اليوم وتثير فضول الكثير من الناس بما في ذلك فضول واهتمام السائح الزائـر حول تاريخ منشأ هذه التحصينات وعن طبيعة دورها الدفاعي والأمني بالنسبة للمدينة والمنطقة المحيطة على السواء الأمر الذي يقال فيـــه الشـــيء الكثـــير

وحيث يتداخل معه الخيال إلى جانب الحقائق الفعلية يشير السكان – في هـذا الإطار – إلى مجموعة من القصص والحكايات العجيبة عن القلاع والحصـون الخمسة هذه ، وعن سماتها وذلك دون تمييز في الأداء والوظيفة الدفاعية لكـل قلعة على حده .

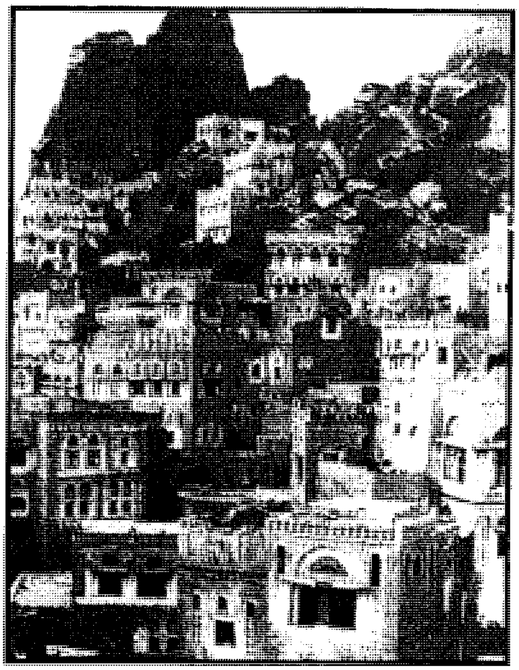
المهم في نظر أصحاب هذه الحكايات هو المفاخرة في ارتفاع معدل عدد هـذه الحصون التي تجمعت في بقعة واحدة من الأرض حيث يشيرون بأصحابـهم قائلين بعتزاز : بأن هناك حصن القرانع مثلاً الواقع شرق المدينة وهناك يقـع على مقربة منه قلعة ذهيان ثم حصن شمسان وأخيراً حصن المنقر العمـلاق الموجود في غرب المدينة إضافة إلى قلعة حجـر السـيد وحصـن الطويلـة الرئيسي المجاور.

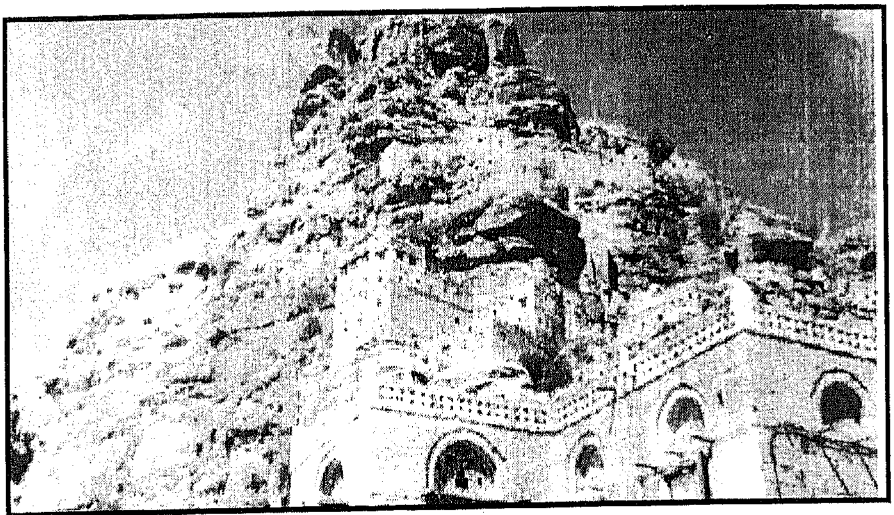
كما يبدو من خلال تمعن نظر الزائر المشاهد لمواقع هذه القـلاع والحصـون الخمسة بأنه كان لكل واحدٍ منها دور معين على الصعيد الدفاعي الخـارجي كما على الصعيد الأمني الداخلي وتصريف الشئون العسكرية وحفـظ المـؤن والعتاد ، لعبت فيه قلعة حصن الطويلة هـذا دور قـائد الجوقـة الموسـيقية المنظم،والذي يشغل في نفس الوقت اكثر المنشئاة وأعلى قمم الحصون الأخرى المجاورة .فضلاً عن إمتلاك هذه القمة منبع مياه للشرب كانت تغطي حاجـة بقية القلاع بما فيها قلعة حجر السيد التي ترتبط به مثل غيرها من القلاع عـن طريق بعض الجسور المعلقة والتي وضع على قمتها مدفع عثماني كبير عيـار مائة وعشرين .م. لا يعرف أحداً على الصعيد التاريخي كيف أمكن للقـوات العثمانية حمل هذا المدفع إلى قمة حجر اليد هذه رغم ارتفاع قمتها الشـاهقة

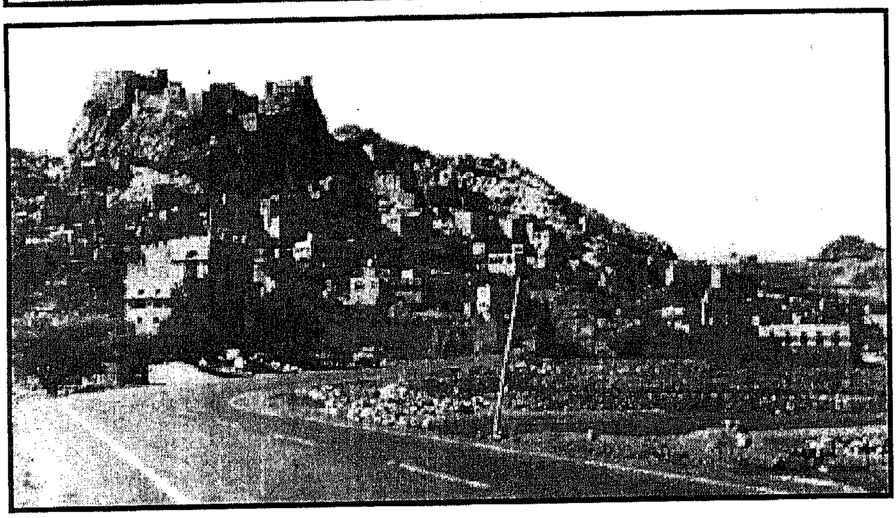
الى .ألف و مائتين قدم من سطح الأرض فضلاً عن ضيق سعة الطريق إلـــى هذه القمة المنقورة اصلاً في عرض الصخر والتي لا تتسع لمرور أكثر مـــن شخص واحد وحيث لا يعلم أحداً شيئاً عن هذا الأمر سوى أن موقع المدفع هذا وقع مرة في يد عناصر قوى المقاومة الوطنية الشعبية الأمر الذي أفقد صواب القيادة العسكرية العثمانية مع تساقط حممه على الحاميات العثمانيـــة ومراكـــز القيادة في الحصن والمدينة.

لم يبق اليوم مع كل ذلك سوى الذكريات عن عمل هذه القلاع والحصـــــون و شغف السكان بالتحدث عنها على الدوام وتطلع السياح بالتـــالي إلـــى جماليـــة الموقع كمعلم سياحي يشكل مع مباني مدينة الطويلة التاريخية بانوراما أثريـــة رائعة ونموذجاً نادراً لمدن العصور الوسطى ذات السمة الخاصـــة والجاذبيـــة الساحرة . والتفردبالتالي في شكل ونوع البناء والطراز المعماري الكلاسـيكي الضارب في القدم،والذي يعتبر عبر التاريخ بأشكال متباينة واساليب متغـــايرة تطبع كل منطقة على حده ، وتكسبها صفاتها وميزاتها الخاصة بها ، المحكومة اصلاً بطابع العزلة الاجتماعية الطويلة وبقانون الحيز الارضـــي الصـــارم ، وموقع البناء الصخري ، ليس من السهل هذه الخصوصيات الدقيقة وذلك فـــي غمرة إنبهار الزائر إزاء مشاهدة اللوحة العامة للطراز المعماري الكلاسـيكي الذي يبدو للوهلة الاولى شبيهاً ببعضه هناك يوجد بالإضافة إلى ذلـــك يوجـــد موقع سياحي أثري آخر يقع عند كف بعض المصاطب البركانية الكائنة.عنـــد الكيلو تسعة عشر على طريق شبام الطويلة حيث يقابل المرء مبـــاني حصـــن أثري سكني يقوم علي نتوء جبلي بركاني يطلق عليه اسم حصن الخير وهـــو

عبارة عن مرتكز جبلي مضلع الأشكال يتموضع إلى الخلف على هيئة مثلث مقعر يحيط به مجموعة من المباني السكنية التي تشكل خلفيتها مثل كل الحصون السكنية خط الحماية والدفاع الخارجي الذي يصعب تجاوزه إلى الحصن إلا عن طريق بوابته الوحيدة الواقعة إلى الشرق وهو نموذج لأسلوب المباني التاريخية السكنية التي كان يتحصن السكان خلفها من أعمال الغزو الخارجي المفاجئ فضلاً عن ميل الإنسان اليمني الأول ورغبته في السكن على قمم الجبال عوضاً عن شغل قسم من الأراضي السهلية الزراعية المحدودة التي تمده بالغلال وتقيه من غائلة الجوع.







حصن « المخيّر » الواقع شرق مدينة الطويله ويرى في الأعلى صوره مفرده لحصن الطويله الرئيسي .

ـ قلعة قصر السلاح في صنعاء ـ

الحديث عن قلعة قصر السلاح في العاصمة صنعاء يعني فتح ملف تاريخ اليمن في العهد الوسيط والحديث الذي لعبت فيه قلعة وقصر السلاح هذادوراً بالغ الأهمية في سير مجرى الأعمال الحربية والأحداث السياسية لصالح هذه الدويلة المحلية أو تلك ولخدمة هذا القائد العثماني أوذاك ، المهم في الأمر أنه من سيطر عسكرياً على قلعة وقصر السلاح بالعاصمة صنعاء، فقد امتلك - من وجهة نظره - مشروعية حكم اليمن، كل اليمن حتى ولولم يكن يسيطر حقيقة سوى على بضعة كيلو مترات خارج حدود القلعة ومحيط العاصمة صنعاء.

حدث ذلك منذ تاريخ إنشائهما في نهاية القرن العاشر الهجرى، مطلع القرن السادس عشر الميلادي علي عهد دولة الإمام شرف الدين، ومقدم القوات العسكرية الفورية المصرية المناهضة للوجود البرتغالي على ساحل البحرالأحمر وخليج عدن .

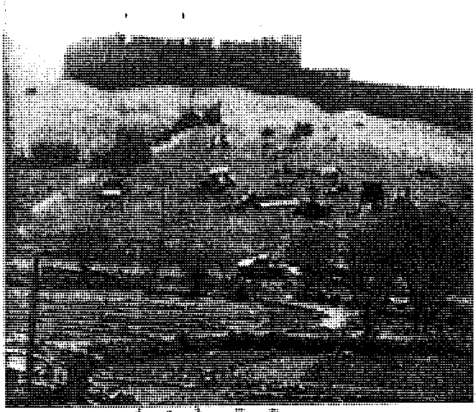
لقد احتل القادة العسكريون الفوريون العاصمة صنعاء واتخذوا من أكمة قصر السلاح المرتفعة هذه قاعدة للحكم، وثكنة للجنود ومستودعاً للمؤن والذخيرة بعد أن استحدثوا بداخله قلعة دفاعية على قمة ربوة صغيرة ملاصقة لمبنى ساحة القصر على الركن الجنوبي الشرقي منه ، ترتفع تسعمائة وثلاثين مترعن سطح البحر.

القلعة هذه كما تبدو للزائر اليوم تنتصب على مفرق الطريق إلى جبل نقم، وإلى جامع المشهد « الجبانة سابقاً » وتغطي أبراجها الستة المفتوحة المطلة على الجهات الثلاث أمامها نحو الشرق ، والشمال والجنوب تغطي أعمال الدفاع الخارجية

والقيام في نفس الوقت بمهمة حماية منشئات القصر الداخلية، في حين تنتصب فوق هذه الأبراج إلى الجنوب نقطة استحكام دفاعية ورقابية تشرف بدورها على حاميات القصر وتراقب الحركة داخل مايسمى (جربة المدافع).

ترتبط القلعة من ناحية أخرى بسور القصر الطويل الذي يمتد مسافة ثلاثة كيلومترات ويحيط بالقصر والقلعة كالمعصم يبلغ ارتفاعه عند بعض النقاط عشرة أمتار. وتتخلله مجموعة من مراكز الحماية في هيئة أبراج صغيرة مدروة يطلق عليها اسم(النوب) بني بعضها بالآجور، والآخر باللبن الترابي، يأخذ شكل هذه النوب التي تبرز إلى الخارج بعدة أمتار تكعيبية، تأخذ طابع هندسة العمارة اليمنية الدفاعية التي تستهدف الإبقاء على متانة السور والحفاظ عليه من الهزات الأرضية ويبلغ عدد هذه النوب الذي يرتفع بعضها كما نلاحظ صورة رقم (٥) نحو عشرين متر، يبلغ عددها إثنين وثلاثين نوبة أو بالأصح اثنين وثلاثين حامية، عشر منها في الشمال والشرق، وأخرى مثلها في جنوب القصر ، والباقي موزعة على قسم السور الشمالي والغربي.

ليس لهذا السور حسبما يشاهد الزائر سوى باب رئيسي واحد يقع جنوب مبنى قصر السلاح ، يطلق عليه إسم باب (ستران) أي الباب المستور، وهو بالفعل مستور خلف جدار السور لايسهل على المشاهد التحقق منه، وتعزى هذه التسمية - كما تقول المصادر التاريخية - إلى ظروف عملية



صورة رقم (٥)

الثلاث أمامها نحو الشرق ، والشمال والجنوب تغطي أعمال الدفاع الخارجية والقيام في نفس الوقت بمهمة حماية منشئات القصر الداخلية، في حين تنتصب فوق هذه الأبراج إلى الجنوب نقطة استحكام دفاعية ورقابية تشرف بدورها على حاميات القصر وتراقب الحركة داخل مايسمى (جربة المدافع).

ترتبط القلعة من ناحية أخرى بسور القصر الطويل الذي يمتد مسافة ثلاثة كيلومترات ويحيط بالقصر والقلعة كالمعصم يبلغ ارتفاعه عند بعض النقاط عشرة أمتار. وتتخلله مجموعة من مراكز الحماية في هيئة أبراج صغيرة مدروة يطلق عليها اسم(النوب) بني بعضها بالآجور، والآخر باللبن الترابي، يأخذ شكل هذه النوب التي تبرز إلى الخارج بعدة أمتار تكعيبية، تأخذ طابع هندسة العمارة اليمنية الدفاعية التي تستهدف الإبقاء على متانة السور والحفاظ عليه من الهزات الأرضية ويبلغ عدد هذه النوب الذي يرتفع بعضها كما نلاحظ صورة رقم (٥) نحو عشرين متر، يبلغ عددها إثنين وثلاثين نوبة أو بالأصح اثنين وثلاثين حامية، عشر منها في الشمال والشرق، وأخرى مثلها في جنوب القصر ، والباقي موزعة على قسم السور الشمالي والغربي.

ليس لهذا السور حسبما يشاهد الزائر سوى باب رئيسي واحد يقع جنوب مبنى قصر السلاح ، يطلق عليه إسم باب (ستران) أي الباب المستور، وهو بالفعل مستور خلف جدار السور لايسهل على المشاهد التحقق منه،



صورة رقم (٥)

تستر الإمام يحيى عندما ولى هاربا من هذا الباب في السر خلال زحف القوات العثمانية نحو العاصمة صنعاء في عام ١٩٠٥م بقيادة أحمد فيضي باشا.

لقد ارتكز مبنىً بوابة ستران هذه على ثلاثة أبراج حماية، إثنان منها خارج السور للقيام بمهمة المراقبة الخارجية والثالث خاص بحماية البوابة من الداخل. نفس النظام المعماري العسكري الذي رافق مداخل القلاع والحصون في القرون الوسطى الإسلامية، وهو ماكان عليه حال بوابة قلعة قصر السلاح الرئيسية الواقعة في الجانب الغربي وذلك قبل إزالة الإستحكامات الدفاعية تلك من أمامها في السبعينات من هذا القرن حيث صار الباب مكشوفاً ولم يبق من رسوم هيئة المدخل إلى القصر سوى عقد البوابة الكبير، وبابها العملاق المطعم بالحديد والبرونز.

مبنى القلعة والقصر من الداخل

كان الشك ولايزال يساور بعض الناس في أن موقع قصر السلاح هذا هو نفس موقع قصرغمدان المشهور الذي وصفه علامة اليمن الهمداني قبل ألف عام قائلاً : بأنه قصر اليمن الشامخ الذي لامثيل له في الجزيرة العربية قبل أن يهدم من أساسه في عهد خلافة عثمان بن عفان بدعوى التذكير بعهد الجاهلية الأول الذي كان يتخذ من الأحجار تماثيل شبيه بصور الإنسان والحيوان .

في حين تقول نتائج أعمال الدراسة والبحث المعاصرة في أن موقع قصرغمدان المذكور لم يكن هنا على مرتفع ساحة قلعة وقصر السلاح هذا الذي نوشك التعرف عليهما من الداخل.

أين كان موقع قصر غمدان إذاً؟

نعم كان بالفعل على مقربة من أكمة قصر السلاح الحالي هذا وتحديداً في حي

الجبانة من جهة الغرب على بعد مسافة نصف كيلومتر حيث يقع اليوم سوق الحدادين والنجارين ، وقسم من سوق الدحاح، وكلاهما قريب من مبنى الجامع الكبير.

ينتظرعلم الآثار إفساح الطريق أمامه للتنقيب عن أساسات ومحتويات قصر غمدان والتي لن تكون غائرة داخل منطقة الجبانة هذه بارتفاعها المتميز عن سطح الأرض قياسا إلى انخفاض الأراضي المحيطة المجاورة لها مثل سوق الحلقة وسوق العنب، وسوق الحبال . والجامع الكبيرأيضاً.

يشغل موقع قصر السلاح هذا مساحة واسعة داخل مضلع هذا المرتفع من الأرض الواقعة شرق العاصمة صنعاء، والذي يمثل من الناحية الجيولوجية إمتداداً لنتوءات جبل نقم المحاذي له من الشرق.

كثيرة هي المنشآت العمرانية الخدمية الموجودة داخل ساحة القصر هذه ، أبرز هذه المنشآت هي مستودعات الأسلحة والذخيرة، وأماكن حفظ الحبوب التي يقال لها (الشّوَنْ) وجميعها تقع كما يشاهد الزائر في القسم الجنوبي الشرقي من القصرعلى مقربة من مبنى القلعة المطلة شرقاً على جبل نقم .

بسبب هذه الخاصية المحمولة على خلفية وجود مخازن ومستودعات الأسلحة والذخيرة هذه فقد كان قصر السلاح عرضة على الدوام للإقتحام، وقبلة المخاطرين الراغبين في الاستيلاء على نظام الحكم والانطلاق منه لمقارعة (القوى الأجنبية الغازية، أو قهر التمردات الداخلية وإخافة الخصوم السياسيين، ووضعهم داخل سجونه ومعتقلاته.

في هذا فقط تكمن الأهمية التاريخية والاستراتيجية العسكرية والسياسية لقلعة وقصر السلاح في العصر الحدث، وليس لأي شئ آخر.

حدث ذلك على عهد معظم الأئمة، كما في العهد العثماني الأول، والوجود

التركي بعدذلك، ومع الإمام يحيى في صراعاته المتبادلة مع القوات العثمانية، ثم مع حركة ثورة ١٩٤٨م بقيادة عبدالله الوزير الذي جعل من هذا القنصر مركزاً لحكومته التي سقطت بعد أسابيع لمجرد تمكن قوات الإمام أحمد المعارضة للثورة من السيطرة مجدداً على القصر، ومخازن الأسلحة ، كي تشهد هذه الساحة من جديد بعد أقل من خمسة عشر سنة اقتحام قوى ثورة ٢٦سبتمبر عام ١٩٦٢م بقيادة المشير عبدالله السلال وذلك بهدف الاستيلاء على مخازن الذخيرة التي كان يتوقف على انتزاعها من هنا إنتصار وبقاء الثورة، وبسط نفوذها بالتالي على بقية الأرض اليمنية .

تضم ساحة القلعة والقصر في جوانبها بالإضافة إلى ذلك تضم مباني الإدارة العامة للقصر ، ومقرإقامة الوالي العثماني والثكنات العسكرية المخصصة لضباط وجنود الإحتلال العثماني الأول ، قبل أن يتمكن قادة الغزو التركي الثاني من إنشاء المباني العسكرية الجديدة خارج العاصمة التي أطلق عليها أسم «العرضي الأسكي ، والعرضي الطبشي ، وباروت خانه» .

وهناك حتى عهد قريب كان يتوسط ساحة القلعة مبنى قصر الإمام يحيى بطوابقه الخمسة، ومفرجه الأعلى الذي يطل برأسه نحو العاصمة صنعاء وضواحيها ، والذي تم نسفه بقنابل الدبابات من الأساس عام ١٩٦٩م إثر تمرد الشيخ أحمد عبدربه العواضي الذي اعتصم بداخله مع ثله من الجنود ، وأعلن العصيان على حكومة القاضي عبدالرحمن الإرياني الذي أمر باعتقاله تحت تهمة قتل أحد المواطنين عمداً .

على أرضية القسم الشمالي من مبنى القلعة والقصر يوجد كما يشاهد الزائر المنشاءات الخدمية الملحقة بالقصرأحد هذه المنشئات يخص مستلزمات التموين

العسكري والآخرالمهم هو مبنى الفرن الأوتوماتيكي الحديث الذي يغطي حاجة أفراد القوات المسلحة في محافظة العاصمة من الخبز اليومي الطازج ، علاوة على تأمين غذاء معظم أصحاب الدخل المحدود وفقراء الأحياء المدقعين . كما يوجد من ناحية أخرى مبنى جامع القصر ومناراته العالية شيد كلاهما في عهد الاحتلال العثماني على الطراز التركي.

يطالع الزائر في الأخير مشاهدة مبنى سجن القلعة سئ الصيت والسمعة، الواقع على الركن الجنوبي الغربي على مقربة من البوابة الرئيسية للقصر ، هذا السجن العتيد سبق وأن أدين تاريخياً بجريمة ابتلاع خيرة أبناء اليمن ، وأمضت بداخله عمليات التعذيب السياسي وتم قهر كثير من العلماء والمفكرين بدءاً بصاحب كتاب شرح الأزهار مروراً بالشيخ المحلوي ، والدعيس ، والصفي محبوب مناضلي حركة ٤٨، وانتهاء بالروائي الكبير محمد عبدالولي أحد مناضلي ٢٦سبتمبر و ١٤أكتوبر صاحب ملحمة (صالح العمراني) نزيل سجن القلعة هذه.

تشغل مساحة مبنى السجن بضعة أمتار لاتتعدى المائة ، وتضم جنباتها مجموعة غرف مقاس ٤ × ٣ سبعة منها أرضية مفتوحة على الساحة وثلاث تقع في الأعلى يتم الصعود إليها عن طريق سلم حجري وذلك إلى جانب عدد من الزنزانات الإنفرادية يطلق عليها إسم (الطابق) لا تتعدى مساحة الواحد منها مترين ، لا يدخله الهواء والشمس ، و كل ما كانت تستوعبه إمكانية هذا السجن بأعداده التي قد تصل إلى المئات من مختلف المساجين على كل شكل ولون .

بدءاً من أصحاب الجرائم الجنائية مروراً بالرهائن أولاد كبار العشائر القبلية ، والطلبة ، وإنتهاءً بالعناصر السياسية ، وأصحاب الرأي ، والمدافعين عن حقوق وكرامة الإنسان .

فقط في منتصف الثمانينات تم هدم مبنى هذا السجن وأعيد مجدداً بطريقة مختلفه تتوائم جزئياً مع حقوق الأنسان .

وفي المتحف الحربي يوجد البوابه الرئيسيه للسجن وكان الأجدر بالجهات الثقافية ذات العلاقة أن تتعض من هدم مبنى سجن نافع في حجه والشبكه في تعز وتنصح المسئولين بالأبقاء على مظاهر تلك السجون كوثيقه تاريخيه لكيفية أنتهاك حقوق الأنسان ، لاكن كما يبدو فإن هذه الجهات تغط في سبات عميق مثلها مثل نوم أهل الكهف بالنسبة لوزارة الأسكان والتخطيط الحضري ومنظمة حماية البيئة وذلك أزاء الأنهار السبعه العذبه لتي تتدفق بغزاره من أكام شارع الرياض «هائل سعيد» في أتجاه الأحياء المجاوره ونشر شذاها العطر على أجواء العاصمه وتكسبها جمالاً وجاذبيه فوق جمالها وجاذبيتها المعتاده .

ومع هذا فإن قلعة و قصر السلاح يمثلان بالرغم من ذلك نقطة جذب سياحي وفكري خطت على كل ركن فيه قصة حياة اليمن وتاريخ أهم الأحداث السياسية والعسكرية التي جرت على أرضه في العصر الحديث.

ـ قلعة المقاطرة ـ

تعتبرقلعة المقاطرة واحدة من أهم القلاع الدفاعية الاستراتيجية داخل الأراضي اليمنية، وهي بمقدار ما تبلغه من علو وارتفاع شاهقين على قمة جبل المقاطرة، فإنها تحتل على الصعيد الطبوغرافي مكان القلب داخل مناطق الجبال الغربية في الحجرية ليس بعيدا عن مدينة التربة المركز الرئيسي لمخلاف المعافر الاستراتيجي الذي كان يشكل أحدأهم المخاليف اليمنية السابقة في العهد الإسلامي الأول كما في العهود الحميرية المتأخرة، فضلا عن ارتفاع معدل كثافة أعداد سكان هذا المخلاف الذي يتبع اليوم محافظة تعز، ولتاريخه السياسي والعسكري الحافل، ومساهمته الحضارية العمرانية، إضافة إلىَ أهمية موقعه الجغرافي الذي يتوسط منطقة مثلث تضاريس الركن الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة العربية الواقع بين مضيق باب المندب غربا، وخليج عدن جنوبا، والأراضي التعزية وبلاد شرعب في الشمال والشرق.

قلعة المقاطرة هذه التي كان يطلق عليها في الماضي قلعة (سودان) بموقعها الحساس في قلب هذا المثلث الأرضي الاستراتيجي، تمثل من ناحية أخرى ـ على الصعيد الطبوغرافي ـ مربط الفرس بالنسبة لمدخل سلسلة جبال السراة التي تبدأ مسيرتها الطويلة نحو أراضي الحجاز في الشمال انطلاقا من محاذاة موقع جبل قلعة المقاطرة هذه، أكسبها موقعها ذلك ميزة أخرى إضافية تتمثل هذه الخاصية أو الميزة في طبيعة التكوينات الصخرية المحيطة بسفح القلعة التي تضرب حوله حزاماً وقائيا محكماً كما لو أن هذا الحزام الجبلي قد عمل خصيصاً لهذا الغرض وتم صنعه بيد الإنسان.

كما يبدو، فإن ألحديث عن قلعة المقاطرة هذه إنما يعني الحديث في الأساس عن

مجمل حياة وتاريخ مثلث الأرض اليمنية الاستراتيجي هذا الذي ارتبط وجوده ومصيره بهذه القلعة التي أصبحت بدورها جزءاً لا يتجزء من هموم وأحداث هذا المثلث وشاهداً على وقائعة العسكرية الدامية كان للقلعة فيها دور القائد الموجه والمرشد والساهر، والملاذ الآمن للمقاتلين عند اشتداد الخطوب ونزول المصائب .

يتجسد دور القلعة على صعيد التاريخ العسكري الاشرافي والدفاعي هذا في أنها عاصرت منذ إنشائها في العهد الحميري الوسيط قبل ألفي عام من الأن ، عاصرت عدداً من الأحداث الداخلية التي كانت تنشب على خلفية الصراعات المحلية، والتنافس على الحكم وأعمال الغزو الخارجي الذي كان يستهدف على الدوام جعل منطقة القلعة ومثلث حزامها الأرضي على مداخل البحر الاحمر وخليج عدن ، منطلقا للاستيلاء على الأراضي اليمنية ، والتمركز على قلعة المقاطرة هذه كخط دفاع له وحماية في نفس الوقت ، وإحكام القبضة منها على المداخل البحرية ، وتشديد الرقابة على خطوط المواصلات الهامة التي تنفذ إلى شمال وشرق الأراضي اليمنية.

أحد أهم الوقائع العسكرية التي خاضت فيها قلعة المقاطرة الصراع مع القوى الأجنبية الغازية ، هي لحظة المواجهة العسكرية غير المتكافئة مع قوى الأساطيل البحرية البرتغالية في منتصف القرن الخامس عشر للميلاد ، وقت أن اقتحمت بعض قطع هذا الأسطول السواحل الغربية والجنوبية لليمن وشنت مدفعيتها الغارة تلو الأخرى على مدينة عدن وجزيرة الشيخ سعيد، وإرسال عيون الأسطول البحري البرتغالي الى محيط قلعة المقاطرة تمهيداً لاحتلالها كخط دفاع يؤمن مراكز القوات البرتغالية على السواحل اليمنية من الهجمات البرية الداخلية .

نفس الأسلوب الذي واجهته قلعة المقاطرة مجدداً خلال التواجد العثماني الأول

نفس الأسلوب الذي واجهته قلعة المقاطرة مجدداً خلال التواجد العثماني الأول الذي قدم الى باب المندب وخليج عدن بهدف مناهضة الوجود البحري البرتغالي، وقيامه بخطب ود اليمن ومصالحة قادة حامية قلعة المقاطرة هذه وإغداق الهبات والعطايا لهم، مقابل تعاونهم مع قادة الفتح العثماني الأول، والسماح لهؤلاء القادة بالتمركز في القلعة، وشن عمليات الهجوم المشتركة منها ضد مراكز تحركات الاساطيل البحرية البرتغالية في البحر الأحمر وخليج عدن.

ومن داخل بلاد المعافرهذه، والمناطق المحيطة بأرض قلعة المقاطرة انطلقت في العصر الحديث عناصر قوى الحركة الوطنية المناهضة لنظام الحكم الاستعماري في جنوب اليمن وضد سلطة الاستبداد والقهر في الشمال.

لكل تلك الأمور مجتمعة اكتسبت قلعة المقاطرة هذه شهرة تاريخية واسعة، امتدحها الشعراء اليمنيون الأول، وجاء ذكرها في مدونات كتب التاريخ العربي الاسلامي، ولا يزال يقصدها العلماء والباحثون في شتى بقاع الارض حتى اليوم بهدف معرفة القيمة العسكرية التاريخية لهذه القلعة واطلاعهم عن كثب على الدور الذي نهضت به داخل حزام المثلث الأرضي اليمني الاستراتيجي المحاذي لسواحله، ومنافذه البحرية الهامه، والتعرف بالتالي على الكيفية التي تعامل بها الانسان اليمني مع هذا الموقع الاستراتيجي، وطرق الاستفادة من القلعة على صعيد الدفاع الخارجي وحماية الأمن الداخلي، فضلاً عن رغبة أولئك العلماء والباحثين المتخصصين في التراث العسكري، الجامحة في التعرف على فن هندسة بناء القلاع العسكرية اليمنية، والإحاطة بمستوى مهارة المعماري اليمني الأول الذي ذاعت شهرته في الآفاق.

ترتفع قلعة المقاطرة هذه إلى ٢٧٥٠ مترا عن مستوى سطح البحر وتقوم - كما يشاهد الزائر- على مسطح صخري يتموضع على تل مرتفع داخل قمة جبل المقاطرة العملاق الذي يرتفع بدوره عن مستوى سطح الأرض بـ ٢٢٠٠ متر.

وحيث تمتلك قمة الجبل هذه -كما يبدو- مساحة واسعة تمتد من الشرق إلى الغرب غنية بموارد المياه ، وصالحة للزراعة يزاولها هناك بعض السكان المحليين.

يعتبر جبل قلعة المقاطرة من حيث مكوناته الصخرية امتداداً لسلسلة الجبال البركانيه اليمنية الجنوبية الطويلة ، ونقطة النهاية لها عند خط عرض ٣٢٥° على مقربة من سلسلة جبال السراة ذات الخاصية الجيوفيزيائية ، والمكونات الصخرية المتنوعة .

لبس في أي مكان آخر تتجسد بهذا الشكل الظاهرة الطبيعية كما هي عليه في موقع قلعة المقاطره هذه ، سواء من حيث اختلاف وتنوع التركيبه الجيولوجيه بشقيها الجيري والكلسي ، أو في مظهر تشكلاتها الصخرية الخارجية الجميلة التي يلتف قسم منها -كما يشاهد الزائر- في هيئة معصم يغطي محيط جبل القلعة ويمد أذرعته إلى أركانها في شكل تحصينات أرضية طبيعية تمثل خط الدفاع الأول للقلعة أجاد مصمم أعمال التحصينات الدفاعية الأول للقلعة .

استغلال هذه الفرصة وأقام قلعة حراسة أطلق عليها اسم قلعة العبد وقد التبس أمر هذه التسمية على بعض المؤلفين والمؤرخين العرب ، فاطلقوها بدورهم على قلعة سودان هذه الواقعة على قمة جبل المقاطرة .

توجد طريق واحدة فقط للوصول إلى قمة جبل القلعة ، هذه الطريق كما تبدو منحوتة في أصل الجبل من الصعب تجاوزها بسلام ، وهي كما هو واضح من ناحية ثانية غير قابلة للاختراق ، وتحت متناول حماة القلعة، والهبوط منها لا يتم إلا بعد

اجتياز تحصينات قلعة (العبد) بوابة الدخول الأول النافذة إلى سلم الدرج الحجرى المصمم داخل الجبل

ينتهي سلم الصعود هذا البالغ ٣٧٠ درجه ينتهي عند محاذات مسطح القمة ومنه تتدرج في اتجاهين مختلفين صوب مداخل القلعة الخفية عن الأنظار ، وهما مدخلان على هيئة بوابة مصنوعة من الحجارة المماثلة لسور القلعة كما قيل لي ، حيث يصعب على المرء حسب ما يقال أيضاً التفريق بينهما ، وتخدعه عملية التمويه هذه التي أجاد المعماري اليمني الأول ابتكارها عن طريق تقنية إخضاع المواد الحجرية الصلبه لعملية التزاوج بين الأجزاء الحجرية هذه المصحوبة بأعمال الحفر والنحت التقني ومهارة تركيب هذه الاجزاء في بعضها البعض لتشكل في النهاية بوابة محكمة الصنع لا تقل عن تصميم البوابات الخشبية المماثلة.

تمثل ظاهرة الأبواب الحجرية هذه حالة شائعة في قوام بعض القلاع والحصون اليمنية الحميرية

تتكون ساحة مبنى القلعة ، كما يشاهد من قسمين رئيسين تشكل التحصينات الدفاعية الخارجية للقلعة بطرازها المعماري اليمني القديم القسم الأول بما في ذلك السوروبركة المياه ومستودعات الحبوب والأعلاف والذخيرة

أما القسم الثاني من مكونات مبنى القلعة فهو عبارة عن مجموعة مبان قديمة معدلة يمثل البعض منها منظرة أو نافذة يطل منها المشاهد في النهار على سلسلة الجبال المحيطة الملونة، وفي الليل تتلألأ أمام ناظريه أضواء مدينة عدن على بعد ١١٠ كيلومتر في شكل لوحة فنية أخاذه تجمع بين جلال الليل وعظمة حركة الكون، كما لو كان هذا المشاهد داخل مرصد للفضاء الخارجي يقع على أعلي قمم جبال الأرض.

وبهذا المعنى تشكل القلعة بموقعها الجمالي الطبيعي وروعة فن هندسة بناءها المعماري الحميري القديم تشكل أنموذجا فريدا لأماكن الجذب السياحي العالمي، ومختبرا لدراسة العقلية اليمنية القديمة الابتكارية، ومهارة المحارب اليمني المحب للأرض، والعاشق بدوره مثل كل اليمنيين للسلام والعمل.

ـ حصن الدملوه ـ

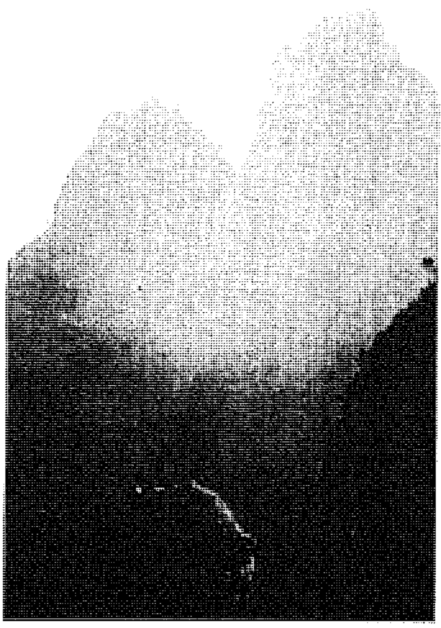
يقع حصن الدملوة الشامخ هذا في منطقة بالحجرية التابعة لمحافظة تعز.

أطلقت عليه المدونات التاريخية العربية الإسلامية اسم حصن جبل (الصلو) نظراً لأهمية موقعه الاستراتيجي الطبوغرافي داخل التركيبة الصخرية الجبلية العملاقة التي تشكل نسبة عالية من حيث الكثافة ، والتنوع ، كما من حيث التشكيلة الجمالية والاتساق الفني بين مجموعة المناظر الطبيعية المتعددة ، داخل مناطق أراضي الحجرية العالية هذه قال في ذلك الرحالة والمؤرخ أبن أبي الدمينة : جبل الصلو هو جبل أبي المغلس ، منه أي من هذا الجبل قلعة المغلس التي تسمى الدملوه ، أبن المغلس هذا الذي ذكره المؤرخ ابن أبي الدمينه كان أحد أهم الذعماء المحليين المواليين لدولة آل زريع في عدن القرن الخامس عشر للميلاد ، وقد ألتبس الأمر من ناحية أخرى على بعض المؤرخين العرب فاطلقوا على حصن الدملوه هذا أسم (منيف ذبحان) وهو أسم الجبل الذي يجاور جبل الصلو من ناحية الغرب ،كما أطلق عليه أخرون أسم حصن (القور) وذلك لوقوعه أيضاً وتعملقه على قمة جبل (القور) هذا المشرف بدوره على وادي ذبحان والأراضي المحيطه به وحيث يسيطرمن على تلك القمة على المناطق المجاورة ، وينفذ ببصره على خطوط المواصلات العامة التي تتشابك مع بعضها بين كل منطقة وأخرى، بما في ذلك داخل جبال منطقة ذبحان نفسها .

قال صاحب المعجم عن حصن ذبحان هذا قال : الدمْلوه ، بضم أوله ، وسكون ثانيه ، وضم اللام ، وفتح الواو ، هو حصن عظيم باليمن ، كان يسكنه آل زريع المستقلون في كل تلك النواحي .

بإمكان المرء أيضاً أن يشاهد من على قمة حصن جبل القور هذا صفحة مياه

البحر الأحمر المحاذية لميناء موزع جهة الغرب. ويدخل من هذه الناحية في عداد أهم القلاع والحصون العالية في اليمن ، التي اكتسبت شهرة تاريخية واجتذبت اهتمام الكثير من الأفواج السياحية الأجنبية والزوار المحليين، والعلماء والباحثين المتخصصين في بناء الاستحكامات العسكرية والمواقع الجبلية الاستراتيجية التي كانت مسرحا للأحداث التاريخية الحاسمة،



على قدر أهمية حصن الدمُلوه هذا على الصعيد المعرفي ، بقدر ماكان مهماً أيضاً بالنسبة للزعماء المحليين على ذلك العهد، يستمد البعض منهم قوته وجبروته انطلاقاً من السيطرة على هذا الحصن وادعاء ملكيته ، ونسبه إلى نفسه وعشيرته كجزء مكمل لمظاهر الجاه والسطوه ، وإرهاب الخصوم المنافسين له . والرهان على هذا الحصن بالتالي في مواجهة الخطوب والأحداث العسكرية ، والتغيرات السياسية ومحاولة الإعتصام بداخله لتحقيق اهداف خاصة او مصالح عامة .

حدث مثل هذا الأمر مع أبو جوهر بن عبدالله المعظمي صاحب النفوذ الأول في منطقة ذبحان والصلو ، عندما رأى نفسه غير قادر على مواجهة خصمه القائد الأيوبي المصري طغتكين أخو صلاح الدين الأيوبي ، الذي قدم إلى اليمن على رأس

قوة عسكرية كبيرة لحماية الأراضي المقدسة وساحل البحر الأحمر وخليج عدن من هجمة الصليبيين ، فعرض على هذا القائد شراء حصن الدُملوه هذا ، وذلك مقابل السماح له ولعشيرته وأفراد أسرته الخروج من هذا الحصن سالمين ، ومغادرة اليمن إلى الخارج.وكانت قد إحتمت داخل هذا الحصن إحدى السيدات الوجيهات المناهضات لتعسف الجباة ومحصلي الضرائب على عهد الدولة الزريعية في عدن حتى تحققت مطالبها وإعتراف ممثل الدولة في المنطقة بكامل الحقوق ومنع سلطات الضرائب من ممارسة أعمال الظام والإبتزاز.

المواصفات المعمارية للحصن

تكتسب مواصفات هندسة بناء وطريق الحصن خاصية معمارية مميزة ، فهو من الخارج قد صمم أولاً بطريقة فريدة ومحكمة تتناسب مع موقع جبل قور الاستراتيجي هذا وقد اختار له المصمم الموقع الطبوغرافي المناسب داخل ساحة قمة الجبل المخروطي الشكل ومتعدد الأضلاع بحيث لاتوجد ثغرة ما قد تشكل منفذاً إلى الحصن بأى حال من الأحوال ، وهو مالم يتوفر عمله في بعض القلاع والحصون الدفاعية اليمنية القديمة التي يلجأ أصحابها عادة إلى استحداث وسائل استحكام أمنية إضافة على هيئة أبراج حماية تقام على خصر الجبل، أو عند بعض تعرجات طرقه المتخفية.

لذا يصعب من هذه الناحية التسلل إلى داخل الحصن فضلاً عن أن الطريق إليه صعبة ، محكمة الصنع ومعقدة ومكشوفة في نفس الوقت أمام المدافعين عنها من داخل الحصن أو موقع الحراسة السفلي ، حيث أن أي محاولة من هذا القبيل معرضة للفشل الذريع.

وقد تعززت مناعة وحصانة الطريق هذه المبنية أصلاً بإحكام وإتقان ، تعززت - كما يشاهد الزائر - بوجود استحكام دفاعي وأمني طبيعي في صورة أخدود أو فجوة صخرية عميقة عند منتصف الطريق إلي قمة الحصن بعمق سبعة أمتار وعرض خمسة، يقال لهذا الغور الجبلي الطبيعي اسم (حور قّرة) كثيراً مايسمع الزائر القصص والحكايات الأسطورية العجيبة عن معجزات هذه الظاهرة الطبيعية ومايفعله موقعها فى بني الإنسان من عجائب لاتصدق، وحتى المدونات التاريخية وكتب الأقدمين لم تخل من ذكر هذه الأعاجيب ، وقصص الخيال الأسطوري التي يجوز أصحابها أعمال المعجزات ، ويؤمنون بدورهم ، مثل أصحاب الفكر الشعبى في مقدرة من يقف على فوهة هذا الحود الأرضي على أعمال السحر وإمكانية تغير شكل الإنسان إلى حيوان ،

ذلك ماجاء على لسان القاضي المفضل إبن أبي الحجاج الحارث في مصر وفقاً لرواية أحمد بن أيمن الورد اليمني عام ٦١٣ للهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .(٨)

تقوم قاعدة الطريق إلى مبنى القلعة والحصن على سلمين من الحجر مضلعي الشكل.

يطلق عليهما السلم الأسفل والسلم الأعلى ، يتكون السلم الأول من أربعة عشر ضلعا ، ومثله السلم الثاني الذي يفصله عن السلم الأول غور جبلي طبيعي يطلق عليه السكان المحليون إسم المطبق، ويقع على مقربة من هذا الاستحكام الطبيعي برج حراسة صغير لايملك أهمية من حيث أسلوب فن هندسة بناء الاستحكامات العسكرية.

يبلغ ارتفاع السلمين ، الأسفل والأعلى ثمانمائة ذراع أو بالأصح ستمائة متر

وهي أقصى المسافة من سطح جبل الثّور حتى قمته على ارتفاع ٢٥٠٠ متر عن سطح البحر.

يتكون مبنى حصن الدملوة عند القمة وذلك من مساحة صغيرة مثلثة الشكل تقع القلعة الدفاعية للحصن في الركن الشمالي الغربي للساحة ، ولها مدخل واحد فقط من الجهة الشمالية للحصن ، وعلى أركانها الأربعة توجد ثلاثة أبراج مدورة ، وفقاً لنمط فن بناء القلاع العسكرية اليمنية القديمة ، أحد هذه الأبراج أعيد بناءه مؤخراً وأدخل عليه بعض التعديلات على الطريقة العثمانية .

كما يوجد في القلعة بركة ماء على عين أو نبع متدفق تهبط مياهه إلى وادي الجنات على الشمال من الحصن ويشغل بقية أجزاء الساحة هذه مكونات الحصن الأساسية وهي عبارعن مجموعة من المنازل الصغيرة وثلاثة قصور غير كبيرة يتوسطها جامع صغير له محراب جميل موشى بالخطوط الزخرفية

وكان الحصن قد تعرض في القرن السادس الهجري لاعادة البناء من جديد وإستحدثت بداخله اربعة ابواب تحت اسماء مختلفة اجملها صاحب صفة بلاد اليمن. (٨)

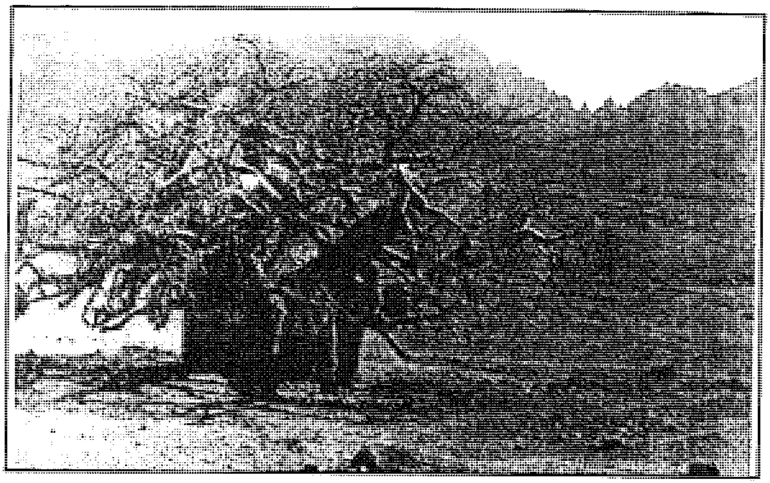
على مقربة من ساحة مبنى القلعة توجد شجرة عملاقة عمرها أكثر من خمسمائة عام تدعى الكهلة يستظل تحتها كما يقال مائة شخص على وجه التقريب وهي أشبة بنبات السمار ذي الأوراق اللينة والأغصان الدقيقة ، وعلى مقربة من هذه الشجرة الجميلة الوارفة يقع جامع صغير فيه منبر ، ومنهل ماء عذب يشرب منه سكان الحصن والحراس المتوجدون على السلم الأسفل.

الإطلالة من قمة الحصن على المناظر الطبيعية المحيطة به تستحق مجازفة السائح الزائر في الوصول إلى الحصن واعتلاء قمته هذه بهدف مشاهدة أروع لوحة فنية

الزائر في الوصول إلى الحصن واعتلاء قمته هذه بهدف مشاهدة أروع لوحة فنية طبيعية لاتتكرر في أي مكان آخر.

قال عنها الشاعر محمد بن زياد المازني قبل أكثر من خمسمائة عام :

ياناظري قلبي　　　　تراه كما هوه
إني لأحسبه　　　　تقمص لؤلؤه
ماإن نظرت بزافر / في شامخ
حتى رأيتك جالساً في الدُمْلُوه.(٨)



حصن غيمان الأثرى

يقع حصن(غيمان) في نفس المنطقة التاريخية الأثرية المشـهورة التـي تحمـل الاسم نفسه(غيمان) نسبة إلى القيل الحميري (ذي غيمان) أحد أحفاد تبـع بـن سـبا الأصغر،كما يقول النسابة العرب. والذي عثر أحد الرحالـة الأجـانب علـى تمثـال برونزي له تم إيداعه في المتحف البريطاني .
تتبع مدينة وبلاد (غيمان) من الناحية الإدارية،ناحيـة بنـي بـهلول الواقعـة جنـوب شرق العاصمة صنعاء على بعد عشرين ك.م.
والطريق إليها يمر عبر خط الأسفلت المتجه إلى بـلاد سـنحان عنـد الكيلـو(١١) ومنه إلى منطقة غيمان ومدنه الأثرية على خط ترابي بواقع تسعة ك.م.
تتكون مدينة غيمان الأثرية- على الصعيد الطبوغرافـي- مـن قسـمين يطلـق علـى أحدهما اسم(غيمان العليا) والآخر اسم (غيمان السـفلى) وكلاهمـا يقـع علـى راس جبل صخري يطل على وادي غيمان الزراعي الجميل ضمن مائه وخمسـين مـتر من سطح الأرض، وألفين وخمسمائة متر من سطح البحر .
وصف بعض الشعراء القدامى هذا الموقع الطبيعي الجميل بقوله:

وغيمان محفوفة بالكروم *** لها بهجة ولها منظر

يتموضع القسم الأعلى من المدينة الأثرية علـى مكـون صخـري شبه مضلـع يمتد مـن الشـرق إلـى الغـرب، وفـي إطـاره تقـع أطـلال حصـن وقصـور المدينـة الأثرية،بما فيها أطلال القصر التاريخي الشهير الـذي اتخـذ منـه الملك أب كـرب اسعد المعروف محلياً باسم أسعد الكامل مقـراً لحكمـه فـي القـرن الخـامس للميـلاد وذلك إلى جانب كل من مدينة ظفار في بـلاد يريـم وبينـون فـي الحـداء علـى قدم المساواة والأهمية التاريخية والاستراتيجية فيما بينها

شغل هذا الملك العظيم الذي دفن في مدينة غيمان هذه شـغل حيزا واسـعا مـن الشهرة العالمية وحظى على الصعيد المعرفي التاريخي باهتمام علماء الاستشراق الغربيين باعتباره أحد أهم الملوك الحميريين المتأخرين الذي نهض مجددا بمهمـة إعادة وحدة الأرض اليمنية ومد نفوذها إلى شمال الجزيرة العربية أراضي الخليج

حيث ازدهرت في ظله حركة التجارة الخارجية وتطور أعمال الصناعة والزراعة واسترجعت بوجوده مدينة غيمان عافيتها بعد الوهن والضعف الذي كان قد ألم بها في ظل صراع الزعامات المحلية على الحكم ، يشير إليه أحد هؤلاء العلماء- في هذا الصدد - بالقول إلى أن عهد أب كرب اسعد كان بمثابة فترة الانعطاف والتحول في بنية النظام الإقطاعي ، وذلك إلى مرحلة أعلى من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية المتسمة بطابع الحرية الفردية وممارسة حقوق الملكية الخاصة واستخدام النقود كوسيلة للتبادل البضائعي والإنتاج الزراعي والحرفي عوضا عن أسلوب المقايضة البدائية .وسيطرة الدولة والمعابد على الأرض[١] واحتكار وسائل الإنتاج الذي كان لا يزال سائداً في بلاد الرافدين ومصر (البطليمية) وبلاد فارس المجاورة

الوصف الطبيعي والأثري للمنطقة

من يزور مدينة وبلاد غيمان لن يدهشه فقط مرأى وادي كروم العنب والفواكه الأخضر الجميل.ومكونات هذا الوادي الصخرية المتناسقة الملونة وهواء المنطقة الصحي العليل – وروعة وحسن أخلاق أهلها وكرمهم للضيف وللسائح على حد سواء بل ستدهشه أيضا رؤية الأطلال التاريخية والمعالم الأثرية المتناثرة هنا وهناك في مقدمتها آثار حصن غيمان وبقايا أسواره المدورة التي يقال بأنه كان يوجد سبعه منها تشكل السياج الوقائي.لمباني ومنشئات الحصن وقصوره ومعابده قبل تهدمها منذ دهور.

لم يعد موجودا من هذه الأسوار سوى ثلاثة منها تتداخل كما يبدو مع بعضها على امتداد مائه وثلاثين متر بداء من محاذاة الحصن في الأعلى وحتى الأجزاء السفلى من موقع جسم مدينة غيمان العليا .

كانت منشئات هذا الحصن الذي تتموضع ساحته على زاوية حادة تمتد من الجنوب إلى الشمال، كانت مكونه في الأساس من عدة قصور مازال آثار بعضها ماثلا للعيان ، بالأخص داخل الأقسام الجنوبية حيث تنتصب مجموعة من القواطع

---

[١] - بترو فسكي _ ميخائل _ تاريخ اليمن قبل الإسلام ترجمة محمد الشعيبي دار العودة ١٩٧٩

الحجرية الرخاميــة الملســاء الموضوعـة بعنايـة علـى جسم الجدار وفقاً للطـراز المعماري اليمني الكلاسيكي ذي التوليفة الهندسية الأحادية غير المطعمة بأية مواد إضافية .

كما يطالعنا من ناحية أخرى، قسم آخر من أطلال القصر الملكـي التـي تعتليـه حالياً عمارة مستحدثه،يمكن للمشاهد رغم ذلك التعرف على ساحة القصر المعبـدة بحجر البلق الأبيـض ومشـاهدة أحـد الممـرات النـافذة إلـى الفنـاء الداخلـي للقصـر والمرصعة بدورها بحجر المرمر غلى هيئة سلم يتوجب اعتلاءه قبل الدخول إلـى ممرات القصر .

الصعود إلى قمة الحصن يتم عبر طريق مرصوفة بالحجارة يصـل عرضـها إلـى نحو أربعه أمتار ،تستند جوانب هذه الطرق على كتف قاطع معماري حجري يبلـغ ارتفاعه ثلاثة أمتار ،فيما يشبه أسلوب طرق وممرات حصون العصـور الوسـطى الأوربية التي تجري عليها عربات الأمراء والملوك الإقطاعيين .

لم يكن أحدا يعرف تـاريخ بنـاء هـذا الحصـن،ولا متـى شـيدت الطريـق الحجريـة المحكمة هذه الموصلة إليه على ارتفاع مائتين وخمسين متر.

غير أنه عثر مؤخرا عند جدار بوابة مسجد المدينـة عثـر علـى نقش حجـري بلغة المسند، فيـه إشـارة إلـى أن بنـاء الحصـن قد تـم فـي منتصـف القـرن الثـالث الميلادي وذلك في عهد الملك " نشا كرب " بمعنى انـه قـد شـيد فـي أوج ازدهـار حياة مدينة غيمان التي بدأت منذ أوائل القرن الأول الميلادي وذلك عشية تدشين ظهور مملكة سبأ وذي ريدان الحميرية التي انتقـل إليـها صـولجـان الحكـم مـن يـد مكربـي دولـة سبأ فـي مـأرب وصـرواح. أصبحـت مدينـة غيمـان ،نتيجـة لذلـك- العاصمة الثالثة لهذه المملكة الجديدة بعد مدينة ظـفـار ، و بينون.

هناك معلم اثري آخر كان له ارتباط وثيق الصلة بحياة الحصن هو صـهريـج الماء الواقع عند سفح جبل الحصن من ناحية الشرق،والمنقور أصلا فـي الجبـل وحيـث كانت تتدفق إليه مياه الأمطار الساقطة من جبـل غيمـان، وذلـك عبـر فتحـة داخلـه عملت بإحكام وفق حسابات دقيقه، ومقاييس هندسية هيدروجولوجية بما لا يسـمح بتسرب أية قطرة ماء تنزل إليه مع تدفق السيول الجارفة من الجبل .

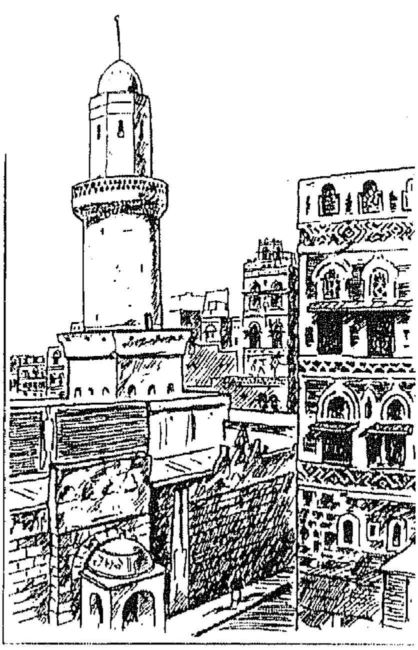
المثير للاهتمـام- فـي هذا الإطـار أيضـا هـو مجموعـة الحفريـات الأثريـة داخـل جبل(العقوف) المجاور للحصن مـن جهـة الجنـوب الشـرقي، والـذي يصـل عمـق

بعض هذه الحفريات إلى أربعه أمتار ،وعرض ثلاثة ،قيل أن هذه الحفر كانت بمثابة مقابر حجريه ، نزعت بعض أغطيتها الحجرية في غمرة أعمال البحث عن اللقى الأثرية ، وأعمال النهب والتصرف غير المشروعة بها وتسريبها إلى خارج البلاد

وكما لا يعرف أحدا شيئا عن مصير رفات الأجداد فقد اختفت كذلك آلاف القطع الأثرية الهامة بما فيها تمثال الملك ذي غيمان ، وحيث لا تزال أعمال النهب تتواصل في ظل غياب خطط الحفاظ على الموروث اليمني الحضاري وعجز قادة الأجهزة الإدارية المسئولة حتى عن إمكانية الحفاظ على القطع الأثرية الموجودة داخل مخازنها سيئة السمعة بما يطرح علامة استفهام كبيره حول النوايا المستقبلية المبيتة للاستيلاء على المزيد من هذه الآثار ،وطرحها مجددا في المزاد الدولي وتقاسم أثمانها مع تجار مافيا الآثار العالمية .
لا تشكل مدينة ومنطقة غيمان الثلاثي الحضري لمملكة سبا وذي ريدان الواجب رعايته والاهتمام به فحسب ، بل ويتصف على الصعيد السياحي المعاصر بجمال المنظر ، وبغنى تربة واديه الزراعي الخصب الذي يتجدد مع تدفق سيول الأمطار الحاملة للمواد المعدنية والعناصر الكيميائية القادمة من الجبال.
حيث يتوجب الحفاظ على جمالية هذا الموقع ، وبذل الجهود في سبيل إقامة المنشئات الخدمية عليه ، وأماكن الإقامة للسواح والمهتمين بالدراسات الأثرية وإيجاد مرشدين سياحيين لاستقبال السواح ، وجعله نقطة جذب سياحي رئيسي.

فن هندسة عمارة مبنى الجامع الكبير بصنعاء

شيد مبنى الجامع الكبير في العاصمة صنعاء وذلك قبل ألف وأربعمائة عام على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وتحديداً في السنة السادسة للهجرة النبوية الشريفة . يوم أن كان حكم صنعاء لايزال تحت انتداب القائد الفارسي المسلم(باذان)



إختير موقع البناء وفقاً لرغبة مبعوث الرسول صلى الله عليه وسلم إلى اليمن المهاجر بن أبي أمية المخزومي أخي أم سلمة زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم.

كان موقع مبنى الجامع الكبير هذا عبارة عن بستان ملحق بقصر القائد الإسلامي (باذان)غير بعيد عن موقع قصر غمدان الشهير بعدة أمتار إلى الشمال لايفصله عنه سوى الطريق الشمالية للجامع حيث كان القصر يومها لايزال قائماً ، لم يهدم إلا بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم. مباشرة وذلك خلال مايطلق عليه عام (الردّة) الذي تم فيه أيضاً هدم قلاع وحصون ممالك حضرموت وقتبان، وقيل بأنه هدم في عهد الخليفة عثمان بن عفان (رضوان الله عليه).

يحدد حالياً موقع الجامع الكبير في صنعاء بجنوب شرق العاصمة غرب الطريق

النافذة من باب اليمن إلى سوق العنب .

يشغل موقع الجامع الكبير مساحة ثلاثة كيلو متر مربع ، تشتمل على كل جوانب مبانيه الداخلية والخارجية، بما في ذلك صحنه الداخلي الواسع ، وقبته المربعة - التي شيدها الوالي العثماني سنان باشا الأول في القرن الخامس عشر للميلاد - ومقصوراته ، وأجنحته الملحقة ، ومآذنه العالية فضلاً عن مبنى مكتبة المخطوطات الأثرية ، ودار هيئة الآثار المجاور له في القسم الجنوبي.

يبلغ ارتفاع جدار المبنى نحو ١٧ متر وسمك ٣ أمتار ويقوم على مجموعة مداخل رئيسية كبيرة ثلاثة منها تقع في الشرق ، واثنان في الغرب ، وآخر في الجنوب.

كما يوجد باب صغير إضافي ، يقع على الشمال اقتصر الدخول منه على حاكم العاصمة ، ممثلاً في الماضي بالأئمة ، بعد ذلك برؤساء الجمهورية ..

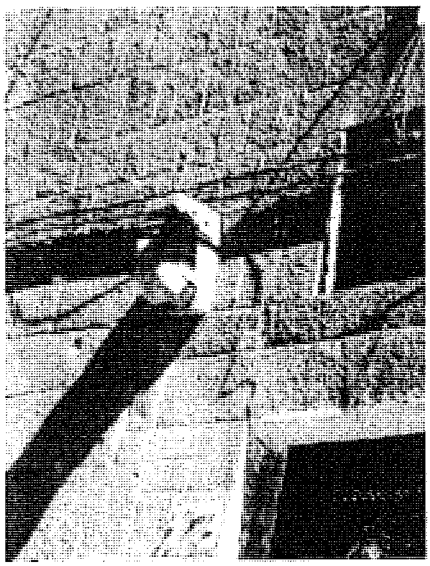
يلفت نظر المشاهد لجدار القسم الشمالي وجود رسم تخطيطي من الحجر في هيئة بوابة واسعة تقوم على دعامتين يتوسطها عقد مقوس.

يشبه هذا التصميم على الجدار بوابة عشتر العراقية الموجودة على مدخل متحف برلين الشرقية .

كما يتوسط القسم الغربي الخارجي من مبنى الجامع الكبير نقش حجري بلغة المسند : اليمنية الحميرية القديمة مقاسه مائتين وخمسين سنتيمترا في مائة وخمسة وعشرين سنتيمترا ،

على مقربة من هذا النقش على الشمال عند مدخل البوابة الغربية لمبنى الجامع الكبير ، هناك تمثالين حجريين لرأس بعض الحيوانات، صورة رقم (١) نقلا إلى هنا مع ذلك النقش من أساسات قصر غمدان المجاور، حيث يشاهد الكثير من هذه

الأساسات ، ودعاماته الإسطوانية التاجية، والتي تشاهد بوضوح في قوام معظم أجزاء مبنى الجامع الكبير هذا وتشغل أهم المواقع الذي ارتكز عليها صرح مبناه العتيد.


صورة رقم (١)

يلاحظ الزائر ذلك على مداخل البوابات الرئيسية للجامع في شكل قوائم الجدار الرئيسية وعقود البوابات التي ترتفع عالياً إلى ستة أمتار وكذا على عتبة القاطع الداخلي لإحدى هذه البوابات الثلاث الشرقية حيث يستند عليه جسم هذه البوابة الداخلي في شكل قطعة حجرية ضخمة من البلق الأبيض، لم يتسنى معرفة محتوى هذا النقش بالكامل. غير أن القراءة الأولية له تفيد بأن له علاقة بموضوع بناء قصر غمدان.

ومثل هذه الأحجار المنقوشة بلغة المسند تترائى للمشاهد في أكثر من موقع داخل مبنى الجامع الكبير.

غير أن أهم هذه الكتل الحجرية الحميرية القديمة التي تحتل مكاناً بارزاً في مبنى الجامع الكبير هي الأعمدة الإسطوانية التاجية ، التي تقوم عليها عقود سقف المبنى بشكليها البيضاوي والمقوس والتي تبلغ أعدادها مائة وسبعة وتسعين عقداً منصوبة على ثلاثمائة وتسعين إسطوانة تاجيه ، أو بالأصح دعامة حسب اللهجة المحلية ، ٤٥ منها في المقدمة ومثلها في مؤخرة المبنى . وأربعون في الجناح الشرقي ومثلها في الجناح الغربي إضافة إلى أعمدة رواق صحن الجامع وعددها ٢٩ دعامة معظم

هذه الدعائم منقول من مخلفات قصر غمدان ، إن لم يكن جميعها على الإطلاق باستثناء مجموعة بسيطة منها تعد بالأصابع تضاف إلى الاسطوانات الخمس التي كان قد قام عليها صرح أول قسم من مبنى الجامع في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم. الذي يطلق عليه اليوم إسم (الموخرة).وذلك قبل أن يتم إعادة بنائه مجددا على هذا الشكل الذي يبدو عليه اليوم ضمن قوام عمارة الأقسام الأخرى المستجدة التي نهضت كما تقول المصادر التاريخية على يد اليعفريين في القرن الثالث الهجري وبالتحديد عام ٢٦٥هـ في أعقاب الإنهيار الذي لحق بمبنى الجامع القديم وملحقاته، والمنازل السكنية المجاورة. وذلك من جراء فيضانات السيول التي غرقت فيها العاصمة صنعاء ذلك العام، وشرد نصف سكانها وفقا لما صرحت به البيانات الإحصائية المعاصرة لتاريخ حدوث هذه الكارثة الطبيعية المفجعة. وقد طمست معالم النقوش والأشكال التاجية التي كانت واضحة على الدعائم، كما اختفت للأسف أيضا خطوط الآيات القرآنية والأشكال الزخرفية التي كانت تحف بجدار مبنى الجامع وذلك خلال عملية التجصبص عام ١٩٨٧م على يد المساعدة السعودية.

المواصفات الهندسية لعمارة الجامع الكبير

مثل كل المساجد الإسلامية الأولى على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم.والخلفاء الراشدين. تميز هيكل البناء بالبساطة والتواضع، وهو ماكان عليه مبنى مؤخرة الجامع الكبير هذه، مثله مثل مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم. في المدينة المنورة ومسجد القيروان في المغرب العربي، وجامع مدينة الجند في محافظة تعز، قبل أن يأتي عليها الدهر، ويعاد تشكيل بناء هذه الجوامع من جديد، على أشكال مغايرة ووفق مخططات وتصاميم هندسية معمارية جديدة، وأساليب فنية متنوعة لم تكن مرغوبة ولامحببة لدى جمهور المسلمين الأول قبل التعرف على

أوضاع الحياة في الأقاليم المفتوحة، وانعكاس أثر ذلك على خط سلوك الأجيال اللاحقة، وعلى نمط حياتهم المعيشية وممارساتهم الذهنية والمعمارية.

تمثل ذلك في اللمسات الفنية التي رافقت عملية مكونات عمارة أجزاء وأقسام مبنى الجامع الكبير .الذي أعيد بنائه في العهد العباسي، وتشكل مظهره وفقا لبعض المواصفات الفنية المتبعة في كل من دمشق وبغداد ، حيث برزت لأول مرة مظاهر الفخامة والأبهة واستخدام وسائل الزينة والبهرجة على أجسام الأعمدة التاجية والجدران الأمامية، المحراب ومنبر الخطابة، وعلى أسطح السقوف الخشبية اللينة المستوردة خصيصا من الخارج.

كما في ظاهرة هندسة عمارة المنارات ذات الخرجات المدورة والقباب المدببة التي حملها الحكام الأمويون والعباسيون والأيوبيون معهم من بلاد فارس والأندلس، بالأخص الطراز القوطي الغربي والبيزنطي الشرقي.

فن هندسة عمارة الجامع الكبير (مبنى المؤخرة)

يطلق الناس إسم المؤخرة على الموقع التاريخي الذي أقيم عليه ثاني مسجد في اليمن على عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.وذلك تميزا له عن بقية أقسام مبنى الجامع الكبير الأخرى التي استحدثت بعد بناء عمارة (المؤخرة) هذه.

هذه الزيادة أو بمعنى أصح هذه الاستحداثات الجديدة المتمثلة في مبنى المقدمة والجناحين الشرقي والغربي، بما في ذلك صحن الجامع والقبة، والمكتبة، والمنارات، تشكل في مجموعها مايعرف اليوم باسم الجامع الكبير، وذلك تجاوزا لمفهوم مصطلح المقدمة، الذي يرمز به لذلك المسجد الصغير المتواضع الثاني من نوعه داخل اليمن الإسلامي القديم، بعد عمارة مسجد الجند الذي سبقه بفترة ستة شهور فقط

وذلك على يد مبعوث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. إلى مخلاف المعافر - الصحابي الجليل معاذ من جبل -رضي الله عنه.

كان مبنى المقدمة هذا قد تميز في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم. قبل تصدعه وإعادة بنائه في القرن الرابع للهجرة، قد تميز ببساطة المظهر، والتواضع في شكل هندسة البناء، وخلو ذلك البناء من الزخرفة ومظاهر أعمال التزويق على الجدران وعلى المحراب، والمنبر، وذلك عملا بتوجيهات الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.وتقليدا لطابع أسلوب بناء المساجد الأول في الإسلام، كمسجد الرسول في المدينة المنورة، ومسجد القيروان في المغرب العربي، وغيرهما.

يتكون المسجد أصلا وفقا لما تقوله المصادر التاريخية وذلك من القبله، والمنبر، وحجرتي (المسمورة والمنقورة) اللذين كتب عليهما إسم موضع المسجد، وتاريخ بنائه، ويلحق ذلك قاعة الصلاة الصغرى التي كانت قائمة على خمس اسطوانات حاملة لسقف مبنى المسجد وقواطعه الأربعة التي كانت تشغل مساحة محدودة يفصلها باب المقصورة الغربى الذي قيل فيه عن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم: بين المنبر والمقصورة روضة من رياض الجنة.

يوجد هناك داخل حرم مبنى مؤخرة الجامع هذا يوجد مرقد لجثمان أحد الأولياء يعتقد بعض الناس بأن صاحب هذا القبر هو نبي الله حنظلة قيل أنه عثر بداخله على لوح خشب كتب عليه : أنا نبي الله حنظلة، المرسل إلى قومه حمير وهمدان وأعرابهما.

غير أن أحدا لم يجزم القول بأن ذلك التعريف - إن صدق وجوده - قدكان باللغة العربية أم بلغة المسند الحميرية القديمة، وفي كلا الحالتين يستحيل وجود القبر هنا قبل بناء الجامع أو بعده مالم يكن واحدا من أولياء الصالحين المتأخرين أو كما

يقول البعض بأنه قبر وهب بن منبه، العالم والمؤرخ الكبير.

يعزى سبب عدم التوقع هذا إلى أنه لم يرد ذكر لإسم النبي حنظلة اليمني هذا لافي المصادر التاريخية العربية الإسلامية، ولافي النقوش اليمنية القديمة عدى ماورد عند بعض المفسرين العرب الأول، لكن دون أن ينسبه أحدا منهم إلى اليمن الحميري.

تاريخ إعادة بناء مؤخرة الجامع الكبير

لقد شهد مبنى مؤخرة الجامع الكبير هذا أول تعديل فيه وذلك في العصر العباسي المتأخر، القرن الثالث الهجري بعد أن اجتاحته فيضانات السيول، التي جرفت فى طريقها معظم مباني العاصمة صنعاء، بما في ذلك مبنى مقدمة الجامع الذي كان قد شيد في العهد الأموي خلال حكم الوليد بن عبد الملك.

نعم، لقد أعيد بعد ذلك الفيضان المدمر، أعيد بناء صرح الجامع الكبير كاملا بما في ذلك مبنى مؤخرة الجامع هذه، كما نراها عليه اليوم، كان ذلك على يد حكام آل يعفر المحليين، وفقا لأوامر الخليفة العباسي، وأدخل على مبنى المؤخرة خلال ذلك بعض التحسينات الداخلية مع إضفاء شئ من الرونق والزخرفة الجمالية عليها.

رغم مظاهر أعمال التغيير هذه التي نشاهدها على نطاق واسع في شكل العقود الدائرية المحمولة على عشرات الأعمدة الإسطوانية التاجية، أو في مظاهر اتساع الباحة وربطها بساحة المقصورة الشرقية والغربية، رغم كل ذلك التغيير إلا أنه قد تم الإبقاء على وضعية المحراب وحجري المسمورة، والمنقورة، كما كانا عليه منذ عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.دون مساس احتراما وإجلالا لقدسية موقعهما على الصعيد الروحي والتاريخي.

نفس الموقف الأخلاقي الذي اتخذه بعد ذلك مسئول الأوقاف (قاسم العزي)

نفس الموقف الأخلاقي الذي اتخذه بعد ذلك مسئول الأوقاف (قاسم العزي) الذي تولى القيام بأعمال الإنشاءات الإصلاحية الجديدة لجدار مبنى المؤخرة الجنوبي الشرقي بعد أن كان هذا الجدار آيلا للسقوط في عام ١٩٥١م حيث أعاد بنائه من الأساس وذلك على نفس المواصفات السابقة، ونوع حجر الحبش الأسود (الموقص) ذو الحجم الكبير مقاس تسعين سنتيمتر وعرض أربعين يصعب على المرء التفريق بينه وبين الجدار القديم اللاصق له.

جاء التعديل الثالث والأخير في وضع مبنى المؤخرة هذه وذلك في عام ستة وستين وتسعمائة وألف على يد وزير الأوقاف يومها القاضي حسين السياغي بهدف أعمال التوسيع، وإدخال المزيدمن الإضاءة الخارجية.

خلال عملية التوسيع هذه التي قامت بإزاحة الجدار الشمالي باتجاه صحن الجامع، وتوسيع باحة ركن المقصورة الشرقية. تم للأسف هدم المحراب الأول واستبداله بآخر يقع في الجوار إلى اليمين ومعه تم انتزاع أحجار المسمورة والمنقورة التي كانت على يمين المحراب الأول، انتزاعها ووضعها على جانب إحدى الإسطوانات البعيدة أصلا عن مكان المسمورة والمنقورة الأول كما عن المحراب الجديد الذي يدعى بأنه على نفس شبه المحراب الأول القديم.

لاترقى مجازفة الإخلال بموقع الأثر التاريخي الإسلامي الأول الذي تم الحفاظ عليه عبر الزمن منذ عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. لاترقى هذه المغامرة غير المحمودة إلى مستوى الدوافع والأهداف المصاحبة لعملية التوسيع الذي أتى على حساب المساس بالنصب الوثائقية الإسلامية المقدسة الأولى.

مظاهر أعمال التجديد في هندسة عمارة الجامع الكبير

على عكس ظروف أوضاع العمارة الكلاسيكية المتسمة بالجزالة، وضيق سعة باحة الفناء الداخلي وضعف الإضاءة الخارجية، نجد نمطا آخرا في هيكلية مبنى الجامع الكبير هذا حيث حلت العقود المقوسة والدعائم التاجية محل الجسور الصغيرة الحاملة والقواطع المنغلقة على نفسها داخل أضيق الحدود الأرضية شبه المظلمة، في حين نجد هنا طرازا معماريا منفرجا على نفسه واسع الباحة، قوي الإضاءة الخارجية، ومتوازنا في نفس الوقت، في عملية توزيع قوة ثقل البناء وذلك بين قواطعه الجانبية الثلاثة في الشمال والغرب والشرق، من جهة، وبين الدعائم الاسطوانية التاجية الحاملة لعقود السقف العريض، والممتد طويلا على مسافة مائة وعشرة أمتار.

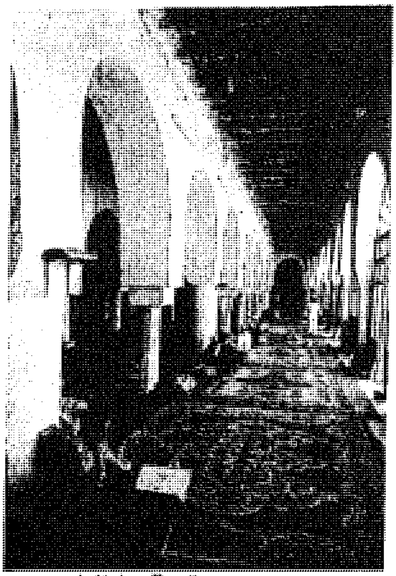
فقط بفضل مهارة واتقان عملية توزيع قوة ثقل البناء أمكن للفنان المعماري الجديد تشييد صرح مبنى الجامع الكبيرعلى هذه الشاكلة، وإعطاء باحته قدرا من الاتساع في الطول والعرض، مع منح قدر من الإضاءة الخارجية المعقولة التي لاتتوفر في ظروف نمط وأسلوب فن عمارة المساجد الأخرى شبه الواسعة.

إلى حد ما يصح القول بأن هذا العمل الهندسي المعماري اليمني الجديد لايرقى إلى مستوى فن هندسة عمارة الجامع الأموي الكبير في دمشق، حيث تتفشى هناك ظاهرة الإفراط في عملية التزويق الفني الفسيفسائي، غير أن شيئا من هذا القبيل قد تم فعله داخل مبنى الجامع الكبير في صنعاء على يد فنانين يمنيين جدد ظهروا في نهاية العصر العباسي ثم الأيوبي . تجسدت أولى مظاهر أعمال التجديد المعماري، والإبداع الفني وذلك في الكيفية التي عالج بها الفنان المعماري اليمني مشكلة الخروج من مأزق التقليد المعماري السائد في اليمن حتى القرن السادس الهجري منذ انهيار حضاراته العمرانية السابقة.

هذا المعماري الأصيل الذي كان لايزال محبطا على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي وتحكمه على الصعيد العقلي والفكري قوانين الحيز الأرضي الجغرافي المحدود الذي فرض نفسه عليه في صورة ذلك الشكل الخاص من البناء المعماري الضيق المنغلق على نفسه بين أربعة قوائم جانبية موصولة بعدد من الجسور أو الروابط الخشبية القصيرة، في حين تتطلب الأمر هنا حل معضلة الموائمة بين فخامة حجم صرح البناء الخارجي من جهة، والحفاظ في نفس الوقت على بقاء باحته الداخلية الطويلة العريضة مفتوحة على نفسها كي تستوعب في وقت واحد أكبر عدد من المصلين قد يصلون إلى المئآت، وربما إلى الآلاف، كما هو حال شكل باحة الحرم الداخلي هذا الذي تمتد عبره رؤية النظر من أقصاه إلى أقصاه دون عائق اللهم إلا من وجود عدد من الدعائم المصفوفة بتناسق، وتناغم خال من الاعتراض والتشوش.

لذا لم يكن أمام المعماري اليمني على ذلك العهد الذي لم تتعود عيناه على مرأى مثل هذا المشهد المعماري الجديد داخل بلاده حتى تلك اللحظة، لم يكن أمامه من بد سوى تمثل شكل وأسلوب فن العمارة فى حاضرة الخلافة الإسلامية في دمشق وبغداد وقرطبة. الذي يرتكز على مفهوم البنية الثنائية في تقاسم توزيع قوة البناء بين كل من العقود الدائرية من جهة، ومجموعة الاسطوانات التاجية التي تتموضع عليها من جهة ثانية مفاصل تلك العقود الحاملة لسقف المبنى الطويل العريض، والمرتفع، وذلك عوضا عن الهيكلية المعمارية الرباعية التي لاتفي بمتطلبات هذا الشكل المعماري الهندسي الجديد المنفرج على نفسه من الداخل دون الحاجة المباشرة لمساندة الحيطان الجانبية الأربع.صورة رقم (٢)

لقد احتاج الفنان المعماري اليمني على ذلك العهد احتاج إلى بعض الوقت لحل مشكلة التشوش والعتمة داخل الباحات الواسعة هذه، الناجم عن وجود الكثير من



صورة رقم (٢)

الدعائم التي تلقي بظلالها على الحيز الداخلي للمبنى وتضيق على شعته الخناق.

وقد جاء الحل لهذه المشكلة من وراء البحار بعد انقضاء أكثر من ثلاثمائة عام. وذلك على يد الحكام الأيوبيين والرسوليين الذين تضرب أصولهم إلى الشوم وأكراد العراق حيث انتقل معهم أسلوب فن عمارة المساجد التي تنهض باحتها على قباب بيضاوية عاليه كما هو حال جامع الأشرفية في مدينة تعز. كذا ماتم إدخاله إلى اليمن على يد قادة الفتح العثماني الأول مطلع القرن الخامس عشر للميلاد الذين حملوا معهم أسلوب الفن المعماري القوطي الغربي الذي كان قد تمكن منذ القرن الثاني عشر للميلاد من استبدال الدعامات والعقود الدائرية وذلك بالأقواس المدببة، والحوامل الجانبية التي تتولى عملية توزيع قوة صرح البناء نحو الخارج، على غرار عمارة جامع السلطان محمود في اسطنبول وقصر يلدز، وكنيسة أياصوفيا.

كذا على شاكلة قبة جامع البكيرية في صنعاء، وفي أسلوب هندسة عمارة كنيسة الأسكوريال في أسبانيا، حيث أمكن التخلص من ظاهرة الدعامات الداخلية المقوسة منها وغير المقوسة هذه وإعطاء فسحة أوسع للباحة مكنها من استيعاب أعداد غفيرة من الناس يفوق قدرة الجامع الكبير نفسه، رغم أنه أوسع من تلك المباني بثلاثة أضعاف.

لقد انسحبت عملية التجديد هذه من ناحية أخرى على ظاهرة فن النحت على خشب الزان المطواع وترصيعه بالنقوش والزخارف، ووضع الألوان الإنسيابية عليها، وهو مايراه الزائر على سقف مبنى الجناح الشرقي الذي تم تشييده في القرن السادس الهجري على يد الملكة الصليحية أورى بنت أحمد. وفقا لما تقوله بعض المصادر.

نعم تترائى للمشاهد أعمال الفنون التشكيلية هذه كما لوأنه أمام لوحة زخرفية فنية لاحدود لأبعادها التشكيلية المعبرة، أنجزتها يد الفنان اليمني الماهرة على استحياء دون أن يخطر على باله بأنه سوف يكون حديث المستقبل، وستتلهف الأجيال القادمة لمعرفة المزيد عن أعمال هذا الفنان، وإبداعاته، وكشف هويته الفكرية وثقافته الفنية، ومصادره المعرفية العالمية .. بما في ذلك محاولة معرفة تاريخ مساهمته في بناء أول منارة إسلامية على الأرض اليمنية، وفقا للطراز المعماري الإسلامى الجديد المدجن في مبنى عمارة منارتي الجامع الكبير هذه، كما في عمارة القبة التي تزين صحن هذا الجامع، التي تم عمارتها بعد ذلك في منتصف القرن الخامس عشر على يد الوالي العثماني سنان باشا الأول.

أولى المنارات في تاريخ اليمن الإسلامي
وفقا للطراز القوطي المبكر

على صعيد أعمال الإبداع والتجديد في هندسة عمارة الجامع الكبير تأتي في الأهمية بعد ذلك مسألة تشييد صرح عملية المنارتين الشرقية والغربية للجامع الكبير في صنعاء هذا التشييد الذي تطلب بدوره بعض المهارة الجديدة، والخبرات الفنية التى لم تكن سائدة بل وغير معروفة إطلاقا على عتبة القرن السادس الهجري، وقد جاءت الفرصة المواتية لإثبات مقدرة المعماري اليمني في ذلك العصر على تمثل هذا

الجديد.

حدث ذلك في أوائل القرن السابع الهجري عندما تعرضت منارتا الجامع الكبير القديمة للإنهيار، حيث لم تقو عمارتهما الصغيرة الخشنة، على الصمود لأكثر من ثلاثة عقود، الأمر الذي توجب عنده تشييد منارتين جديدتين على أنقاضهما، لكن وفق معايير ومقاييس هندسية معمارية مختلفة، وأساليب فنية مغايرة، على جانب من المتانة والقوة في الأساسات، كما في المواد والأحجار وقطع الحديد والأخشاب التي سوف تنهض عليها الدوارات والقباب ذات الأضلاع المثمنة، والزخارف النحاسية، وصور الهلال المذهبة،

لقد تابعت مصادر المدونات التاريخية - على ذلك العهد - تابعت قصة أخبار عمارة المنارتين على الشكل الذي نراهما عليه اليوم.

وذلك خطوة خطوة، باعتبار ذلك من وجهة نظر هذه المصادر حدثا تاريخيا مهما على صعيد تطور فن هندسة العمارة في يمن العصور الوسطى الإسلامية الزاخرة.

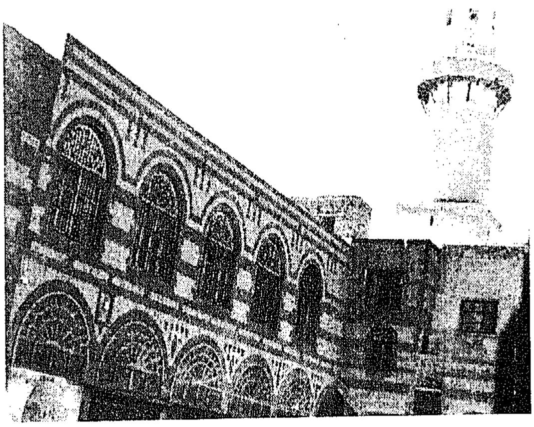
تقول تلك المصادر بأن الأمير علم الدين (ورد سار بن بيامي) الوزير الأول في دولة الأيوبيين قد أشرف بنفسه على تشييد عمارة منارتي الجامع الكبيرهذه.

لم تتوقف عملية الإشراف هذه التي دامت عامين، لم تتوقف عند حدود توفير الأموال اللازمة، وشراء المواد الضروية والإشراف اليومي المباشر على سير العمل فيهما فحسب بل قيام هذا الوزير الفارسي الأصل بوضع التصاميم، وطرحها بين يدي المعماريين اليمنيين على هيئة خطة مبتكرة تستهدف استحداث بناء الدوارات المخرجة لأول مرة، وتشييد القباب المثمنة على المنابر، وأرشدهم بالتالي حول كيفية صنع ذلك، ومدهم بالمواد والعناصر، بل ومشاركة المعماريين بيده في تركيب هذه المواد واستخدامها من ثم في ورشة عملية الابتكارات الهندسية المعمارية التي نشاهدها

أمـامنا اليـوم في شكل تلك الدوارات المخـرجـة، والقـبـاب المدببـة، والاسطوانات النحاسية وجميعها لم تكن معروفة من قبل في اليمن الإسلامي.

تقول في هذا الشيأن بعض المصادر التاريخية مايلي :

عند مـا وصلت مـرحلة بناء المنارة إلى (الدرابزين) وهي كلمـة فـارسـيـة تعني الدوار.



أصدر الأمـيـر علم الدين ورد سار بن بيامي، بعمل (الدرابزين) هذا فـعـمـل من ألـواح الخـشب الـزان المتـــــينة، وأحـكـمت صنعـة(الدرابزين) ولـم يعلم قط منذ الإسـلام أنه كـان في صنعـاء منارة لهـا (درابزين). وتضـيـف المصادر التاريخية قائلة:

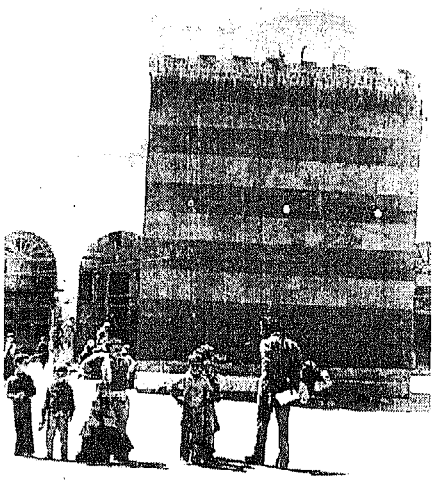
لم يـكـن أحـــدا مـن صنـاع صنعاء قد عـمل مثل ذلك ولاشاهد مثلها، والفضل كل الفضل يرجع إلى توجيهات الأمير علم الدين، وتبيان مخطط ذلك لهم، وذلك على غرار ماكان قد شاهده الأمير في عمارة منارات بلاد الشام، ومنارة الاسكندرية.

لم تقتصر عملية التجديد والإبداع على إدخال أسلوب عمارة الدوارات فحسب بل، وفقا لما تقوله المصادر التاريخية وهي على حق فيما تقول وذلك في استحداث ظاهرة عمـارة القباب البيضاوية المدورة ذات الأضلاع المثمنة، والتي نصب على

أعلاها - كما تشاهدون - ثلاث جوزات نحاسية، وضع على رأسها هلال مذهب، وهو مالم يكن معروفا من قبل، هكذا تضيف تلك المصادر.

تاريخ مبنى صحن الجامع الكبير وقبته

تبلغ مساحة صحن مبنى الجامع الكبير هذه نحو كيلو متر مربع، وهو شبه مستطيل، ويحتل بعض مساحته في النصف مبنى القبة الصغيرة بأضلاعها الأربعة وقامتها النسبية التي تصل إلى ثمانية عشر وهيئة طراز مبنى سقفها المعماري العثماني الذي دخل إلى اليمن لأول مرة مع الفتح العثماني بقيادة الوالي سنان باشا الأول من تولى بنفسه الإشراف على عمارة مبنى القبة هذه، ونظم وضعية صحن الجامع، وبلطه بالحجارة المستوية الموقصة وفتح له المنافذ المناسبة إلى داخل حرم الجامع وأقام على هذه المنافذ مجموعة أعمدة في هيئة رواق خارجي يوفر بدوره مزيدا من الإضاءة الخارجية، ويكسب مظهر الصرح بعض الجمال والرونق، قبل أن تدخل عليه التحسينات الفنية الجديدة، الممثلة في الحواجز الخشبية المطعمة بالألواح الزجاجية، أسهم في تكلفتها ودفع أجور إصلاحها كلا من المرحوم اسماعيل غمضان، و الحاج حسين الوتاري، وفقا لما تقوله بعض المصادر الموثوقة.



مبنى قبة الجامع الكبير وتظهر صورة الكاتب خلال عملية الدراسه والبحث

مكتبة المخطوطات التراثية في اليمن

يتوسط ساحة كل من المنارتين الشرقية والغربية مبنى مكتبة المخطوطات اليمنية الأثرية القديمة، وهو مبنى صغير ومتواضع يقوم على تسعة دعائم تدخل بدورها ضمن مساحة صحن الجامع الكبير في اتجاه الجنوب منه.

يطلق على مبنى المكتبة هذا اسم المكتبة الشرقية وذلك تميزا لها عن المكتبة الأخرى التابعة لوزارة الأوقاف، والتي تقع خارج مبنى الجامع داخل مبنى جديد شبه سكني كتب عليه يافطة تحمل اسم (مكتبة الأوقاف).

ماذا تعني حقيقة هذه المكتبات، وماأهميتها بالنسبة للإنسان اليمني المعاصر، كما للباحث والعالم العربي والأجنبي وللسواح أيضا.

لايجادل أحدا - ونحن نجول في ربوع هذه المكتبات - في أن أهم ثروة يمتلكها شعب من الشعوب هي مخزونه التراثي الفكري الحضاري.

وبقدر مايمتلك هذا الشعب ناصية المعرفة بقدر تأهله لشغل المكانة اللائقة والمشرفة بين أمم الشرق والغرب. فضلا عن أنها الوسيلة الوحيدة المعاصرة التي تربط هذا البلد بالعالم الخارجي، وترفع عاليا من درجة اهتمام السائح العربي والأجنبي والنظر إليه كموقع حضاري يستحق أبنائه الاحترام.

بالنسبة لليمن المعاصر، فإنه يمتلك - في هذا الإطار - مخزونا تراثيا معرفيا قد يفوق أي بلد عربي إسلامي آخر.

وينظر إليه - وفقا لذلك - المصدر الرئيسي للمعارف الفكرية العربية الإسلامية واليونانية الأكثر قدما والأوغل عهدا. بدءا بما خلفه علماء اليونان والفرس والرومان

والعبرانيون. مرورا بعلماء الكلام ورجال الحديث والأخباريين والفلاسفة العرب، وانتهاء بما أبدعه كبار علماء وشعراء اليمن منذ بداية القرن الهجري وحتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، وعلى رأسهم طاؤوس بن كيسان أول مؤسس مدرسة الحديث في البصرة ووهب بن منبه المؤرخ والعالم والهمداني، وابن الجلال، وابن الأمير، والشوكاني وغيرهم الكثير.

وحيث يصل عدد عناوين الموضوعات العلمية في هذه المخطوطات إلى سبعة وعشرين عنوانا، موزّعة على عشرة آلاف مخطوطة، ستة آلاف منها موجود في المكتبة الشرقية هذه وأربعة آلاف في مكتبة الأوقاف، جميعها تشتمل على موضوعات تتعلق بالدراسات العربية الإسلامية يوضحها الجدول التالي :

١ - تراجم
٢ - الديانة والأعراق
٣ - التاريخ
٤ - تفسير
٥ - شريعة وقانون
٦ - قواميس
٧ - طب
٨ - زراعة
٩ - موسيقى
١٠ - فلك
١١ - جبر وهندسة
١٢ - تصوف

١٣ - جغرافيا
١٤ - قصص
١٥ - رسائل
١٦ - سياسة
١٧ - إقتصاد
١٨ - فلسفة
١٩ - منطق
٢٠ - مقامات

كما يوجد بالمكتبة نسخة نادرة من المصحف الشريف، وهي واحدة من السبع النسخ التي جمعها الصحابة في عهد عثمان بن عفان. وثلاث مخطوطات عن العهد القديم باللغة العبرية تعود إلى القرن الأول قبل الميلاد.

سبق أن تلقت المكتبة وعدا بنقل المخطوطات العبرية هذه إليها من خزانة مكتبة الإمام أحمد في مدينة تعز التي كانت موجودة بها قبل مصادرة هذه المكتبة بعد قيام الثورة، مالم فإن مسئولية افتقادها يقع على كاهل مدير القصر الملكي المصادر عبدالله المقحفي الذي تعهد عام ٨٧ لمبعوث هيئة الأمم المتحدة. الاستاذ المرحوم محمود الغول، بنقل هذه المخطوطات فورا إلى مكتبة الجامع الكبير، قبل أن يسطو عليها جهاز المخابرات الإسرائيلي.

كان عمل أول فهرس لمخطوطات الجامع الكبير وذلك في عام ١٣٤٣هـ على يد القاضي المرحوم محمد بن محمد الحجري بتكليف من الإمام يحيى حميد الدين.

وظل العمل بهذا الفهرس المتقن جدا، ظل العمل به حتى ظهور الفهرس الجديد الذي أعده فريق علمي فهرسي متخصص من دولة الكويت الشقيقة وذلك عام

١٩٨٧م.

ماذا تقول الفهرسة الجديدة هذه عن نوع المخطوطات الموجودة فيها، وكم يصل أعدادها، وماهي مصادر وجودها هنا وطريقة الحصول عليها، ولمن تعود فكرة مبادرة إنشائها داخل مسجد الجامع الكبير في العاصمة صنعاء ؟.

وفقا لآخر أعمال المسح الميداني والبحث التاريخي، تبين أنه كان للمكتبة قسمين للحفظ والإيداع أحدهما أخذ اسم المكتبة الغربية، ويقع غربي مبنى الجامع الكبير وملحقاته،

كان هذا المبنى في الأساس قبل عملية تطويره - على يد وزارة الأوقاف - كان يشكل مستودعا وخزانة للكتب المخطوطة التي كان يتبرع بها المحسنون لصالح طلبة العلم بالجامع الكبير وهي عادة قديمة لدى اليمنيين، وجد الجامع الكبير نفسه عبر العصور يملك بعض المخزون الكبير منها، وصل عدده نحو أربعة آلاف مخطوطة.

على عهد الإمام يحيى في الثلاثينات تم بناء مكان جديد في القسم الشرقي من الجامع الكبير مشرف بدوره على صحن الجامع، وفيه أودع الإمام يحيى مجموعة كتبه التراثية، المخطوط منها والمطبوع ، وذلك عملا بوصية أجداده القائلة :

بأنه فقط داخل الجامع الكبير يمكن حفظ كتب التراث إلى الأبد في ظل وجود أعمال الحرب الدائمة، والهزات الاجتماعية والانقلابات السياسية المتوقعة في كل لحظة، بلغ مجموع كتب الإمام هذه ثلاثة آلاف ومائتي كتاب، مابين مخطوط ومطبوع وقد ضم إلى هذه المجموعة أخيرا الكتب المصادرة بعد الثورة من بعض أفراد الأسرة المالكة. أطلق عليها تسمية مجموع كتب دار السعادة التي كانت تحت حوزة الأمير سيف الإسلام عبدالله بن الإمام يحيى، وعددها ثلاثة الاف كتاب بين مخطوط ومطبوع منها المجموعة الكاملة لمؤلفات ماركس ولينين ، وبليخانوف، وآدم

ـــيث، أعظم وأهم من كتب حول المسائل الاقتصادية، وكيفـ ـ الاعتناء بثروات الأمم، وموارد ها المادية والبشرية.

السؤال المطروح هو مامدى العناية بهذه المخطوطات وكيف يتم ... .وضعها بين أيدي المحققين ورجال البحث والحفاظ عليها من الضياع والمرض الفير ...

بالأخص بين يدي العلماء والباحثين الاجانب الذين لايجدون مبتغاهم ... التراثي العربي الإسلامي في أي مكان آخر سوى هنا في مكتبة الجامع الكبير هـ رغم أن اليمن قد افتقد الآلاف المؤلفة منها عبر سنوات الضياع الماضية، وذلك ع... بد بعض الرحالة والدبلوماسيين العرب والأجانب، وصل مجموع عدد ماانتهـ... ء أحدهم على سبيل المثال خمسة عشر ألف مخطوطة ووثيقة ونقش بلغة المسند وذلك خلال فترة وجيزة من أعوام سبعة وثمانين وثمانمائة وألف، تنقل خلالها الرحالة الألماني المدعو (أولرينج سيتسن) في أرجاء اليمن واستأجر عشرات القوافل لحمل هذه المخطوطات التي جمعها من هنا وهناك إلى كل من ميناء عدن والمخاء لتشحن بدورها إلى أوروبا، وذلك قبل أن يقتل هذا السائح على يد قطاع الطرق وانتهاب قافلته الطويلة الأخيرة التي كان يعتقد بأنها تحمل الذهب والأحجار الكريمة. فضلا عمابحوزة الإيطاليين والبريطانيين، والفرنسيين، والأمريكيين، والهنود، والأتراك، والباكستانيين، والعراقيين، والمصريين.

تمكنت جامعة صنعاء مؤخرا بفضل الخطة التي وضعتها بين يدي مديرها الأستاذ الدكتور عبدالعزيز المقالح - وذلك من استعادة بعض صور هذه المخطوطات، من مكتبة الأسكوريال في اسبانيا، ومن روسيا، وبغداد، وبحلول عام ألفين وفقا لهذه الخطة، يكون قد استكمل تصوير جميع المخطوطات اليمنية المنهوبة.

الفضل لوضع فهرسة لعناوين المخطوطات المنهوبة هذه يعود للعالم والمستشرق

الألماني الكبير بروكل مان، الذي تمكن عبر رحلة علمية طويلة داخل المكتبات والمتاحف العالمية من تحديد أماكن ومواقع هذه المخطوطات وعدد نسخها، وعناوين موضوعاتها، وتراجم لحياة أصحابها ومؤلفيها، وأرقام حفظها داخل أرشيف هذه المكتبات الأمر الذي سهل إمكانية الحصول على نسخ من هذه المخطوطات وقرب موعد ضمها مجددا إلى المكتبة التراثية اليمنية هذه، ورفد كلامن مكتبة جامعة صنعاء وعدن لصالح الطلبة الباحثين والمحققين لكتب التراث،

ولاينسى في هذا الإطار فضل رئيس مركز الدراسات اليمنية في عدن الذي كان قد بادر قبل غيره، وقام منذ الثمانينات بجمع صور لبعض المخطوطات اليمنية الموجودة في بريطانيا وهو مالم تنهض به كل أجهزة الثقافة ودار الآثار والمخطوطات عبر سنوات تحملهما مسئولية إعادة كتب التراث حتى قام الدكتور المقالح في منتصف عام ٩٥ بوضع خطة استعادة هذه المخطوطات، ومنحي شرف تولي هذه المهمة التي تسير بفضل تعاونه على مايرام، لانبتغي سوى أن تحافظ هذه الأجهزة على مابحوزتها، وتصونها من العبث والضياع، والحفاظ عليها من النهب مجددا، وتسهيل مهمة طرحها بين يدي العلماء والباحثين، والمحققين في ظل أجواء علمية، وتقنية حديثة وظروف عمل أكثر كفاءة وفاعلية.



المؤلف في مكتبة الأسكوريال - أسبانيا

من هنا تأتي أهمية مكتبة المخطوطات اليمنية هذه داخل مبنى الجامع الكبير وتبقى مسألة العناية بها وصونها من الضياع مجددا هي المهمة الأصعب.

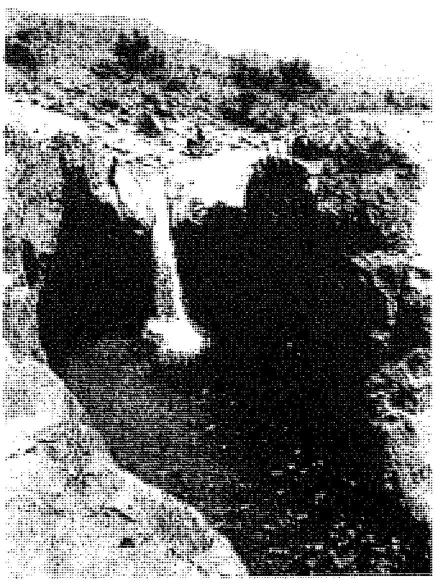
الباب الثاني

المنتجعات السياحية العلاجية

- دمت -

الظاهرة الجيوفيزيائية والجيولوجية لهضبة منطقة دمت

تحتل هضبة منطقة دمت موقعا متميزا ضمن سلسلة المنحدرات الجبلية المخروطية الجنوبية لليمن، والتي يرتبط وجود مخزون المياه المعدنية فيها بالترسبات الجيرية، والمواد الكلسية.



وهي من هذه النّاحية تقع جيوفيزيائيا على مقربة من نقطة التقاء البراكين اليمنية الجنوبية الغربية (الطويلة) العائدة للعصر الجيولوجي الثاني والثالث، بموازات خط جنوب شرق درجة ٣٣٠ و ٣٢٥ درجة شمال شرق.

اكتسبت هضبة منطقة دمت بفضل تمركزها داخل نقطة الالتقاء البركاني ميزة الغنى في كمية المواد المعدنية

وتركز العناصر الكيميائية المعالجة مما جعلها مؤهلة - أكثر من غيرها - لإقامة مشروعات المعالجة الطبيعية الحديثة ذات المردود الطبي والاقتصادي العالي ونظر إليها العلماء والباحثون بمثابة المنتزه الطبي المثالي على وجه الكرة الأرضية، ليس بسبب ماتقوله تقارير هؤلاء العلماء حول ذلك فحسب بل لحسن موقع الهضبة المنفرج، وروعة أثر ماتتركه في النفس والوجدان مناظر الجبال البركانية من سحر لايقاوم، قل وجود لوحة فنية طبيعية شبيهة بهذا المنظر السحري في العالم.

وقد امتدح اليمنيون الأول هذه المنطقة الجميلة وتغنى فيها شعراؤهم، وجاء ذكرها في معظم المدونات التاريخية، وأقام الأمراء والملوك خيامهم ومرابعهم عليها عبر التاريخ.

وتعشق السفر إليها مؤخرا الرحالة والباحثون الأجانب، وعني البعض منهم -منذ مطلع القرن العشرين- بدراسة هذه المنطقة السياحية العلاجية المثالية، وأسفرت هذه الدراسات في النهاية عن نتائج معرفية، ومعلومات علمية هامة لم تكن تخطر على بال أحد منذ فجر التاريخ.(١٥) ، (١٦)

يمكن في ضوء ذلك التعرف على جوهر المنطقة ، واستكشاف طبيعة حماماتها، وأسباب جاذبيتها، وسحر مرآها، ومحاولة استبطان مابجوفها من مخزون المياه المعدنية والعناصر الكيميائية العلاجية.

والتعرف بالتالي على حقيقة طرق وأساليب المعالجة الطبيعية، ونوع المنشآت المعمارية القائمة وظروف أماكن الحمامات المقامة، وكيفية تعامل المرضى والزوار مع ينابيع وعيون المياه المعدنية هذه، ودرجة الاهتمام بالحفاظ عليها، وصولها، وتوفير وسائل الهدوء والراحة حولها.

الحرضة ظاهرة طبيعية نادره

يتواجد داخل هضبة دمت مجموعة نادرة من الأجسام الجبلية البركانية المخروطية التي تزيد من جمال الهضبة في هيئة مسلات كأنها تماثيل صنعتها يد الأقدار في الزمن الغابر.

أحد هذه الأجسام ذلك الذي يسمى (الحرضة) والذي يأخذ شكل إناء فخاري كبير فوهته مفتوحة إلى الأعلى نحو الأفق، ينظر إليه كظاهرة فريدة بين الجبال المخروطية التي لاتشبهه على الكرة الأرضية، فضلا عن أن موقعه الجيوفيزيائي يمثل مكان القلب في مركز حركة التفاعلات الهيدروجيولوجية داخل الهضبة التي تمتد طويلا إلى الشمال نحو وادي (بنا) وحيث يستقطب مجراه مخزون المياه المعدنية الحارة في هذه الهضبة. ويقذف بها من ثم في شكل ينابيع تتفجر حوله وبداخله كأنها بنات أفكاره وفلذات كبده، من هذه الينابيع مايطلق عليه السكان اسم حمام الدردوش، وحمام الأمير، وحمام التعاون، وغيرها الكثير من العيون الأخرى المكشوفة التي تسيل في وادي الهضبة.

يصل ارتفاع هذا الجسم إلى ٩٠ مترا، والطريق إلى فوهته الواسعة التي تبلغ ٥٠ مترا مربعا يتم بواسطة سلسلة من المدرجات المنحوتة في الصخر تقع في واجهة قسمه الشمالي، ويصل منسوب المياه المعدنية الظاهرة من جوفه إلى ٤٥ مترا تحت قمته في حين تبلغ حرارة هذه المياه نحو ٤٥ درجة مئوية محمولة في الأساس بعنصري ثاني أكسيد الكربون الحر والهيدروجين، وأملاح الصوديوم، إلى جانب العديد من العناصر الكيميائية الأخرى التي تملكها مياه ينابيع الحمامات المجاورة له، سوف يتم عرض جدول بياني بأسمائها عند نهاية عملية الاستطلاع هذه.

أسلوب عملية الاستحمام الحالية

يلاحظ من مواصفات أماكن الحمامات هذه وأسلوب عملية ازدحام الناس وتجمع العديد من المرضى دفعة واحدة بداخلها، بما يتنافى مع وعي الإنسان المتحضر ولايجهل أحدا خطورة الإصابة الفورية بالعدوى المرضية القاتلة في ظل عملية الاستحمام الجماعية البدائية هذه وفي غياب وجود منتجعات صحية حديثة، وأماكن استحمام خاصة منفردة.

كما يترافق هذا الأسلوب - من ناحية أخرى - بتهديد انسداد منبع الحمام، وإضعاف قوة دفع المياه، وارتداد مجراه على نفسه نتيجة عملية الاستحمام داخل البرك هذه المقامة على المنبع نفسه.

هناك على بعد مسافة ٢٠٠ متر تقريبا من الحرضة تقع بئر غنية بدورها في مخزون المياه المعدنية وبخار ثاني أكسيد الكربون.

يشاهد الزائر مدى حدة تصاعد الغاز من فوهة هذه البئر التي تم حفرها عام ١٩٨٣م، تحت عمق ١٣٠ متر، الأمر الذي أثار علامة استفهام من قبل العلماء بشأن عدم إمكان احتفاظ مياه البئر بالمواد المعدنية والمركبات الكيميائية.

وقد اتضح من خلال عملية المسح لقوة انتاج هذه البئر البالغ ١٥ لتر في الثانية، وبدرجة حرارة تبلغ ٤٦ درجة مئوية، فإن ذلك يؤهلها كي تكون موقعا مثاليا لإقامة منتجع صحي علاجي إضافي داخل الهضبة. غير أن ظاهرة تسرب المواد المعدنية يهدد بسرعة نضوب هذه المواد من البئر.

وقد نصح العلماء والباحثون بضرورة سد هذه البئر في الوقت الحالي، إلى

مابعد إقامة المنشآت الجديدة واستخدام أجهزة المعالجة الطبيعية الحديثة.

وجاء في تحذير هؤلاء العلماء الصادر عام ١٩٨٧م من أن بقاء هذه البئر مفتوحة سوف تعمل على إضعاف قوة المواد المعدنية المعالجة، ليس داخل هذه البئر الغنية فحسب بل في مخزون ينابيع المياه الأخرى بما فيها مخزون الحرضة نفسه الذي يغذي الينابيع المجاورة، ويمدها بالعناصر الكيميائية، والمواد المعدنية الغنية في محتواها العضوي، وقوة فعاليتها العلاجية.

وقد تنتفي في القريب العاجل الفائدة المرجوة من وراء هذه الحمامات الطبيعية التي من الله بها على الإنسان ووهبه إياها بسخاء دون أن يحافظ هو نفسه على هذه النعمة، ويعرضها للضياع من بين يديه بالأخص الإبقاء على حالة تسرب تلك الغازات من هذه البئر، واستمرار أسلوب المعالجة البدائية والضغط على منابع الحمامات، وطريقة الاستحمام عليها مباشرة، إضافة إلى استمرار الزحف العمراني العشوائي داخل الهضبة وعلى مقربة من مواقع الحمامات، مع مايحمله ذلك من تسرب القاذورات ومياه الصرف الصحي على مخزون ومجرى المياه المعدنية النقية الصحية.

ويضم الكاتب صوته إلى رأي أولئك العلماء ويحذر بدوره من أن هذه الهضبة البركانية الجميلة سوف تفقد قريبا مثاليتها ولن تبقى إلى الأبد تلك الظاهرة الطبيعية الفريدة على وجه الأرض.

ويعول الناس فقط على مبادرة الأخ الرئيس القائد بعد أن طحنهم اليأس من المسئولين التنفيذيين الذين تقاعسوا -ولازالوا- عن القيام بواجبهم وعدم صيانة الهضبة من التدهور، وحرمان الدولة ورجال الأعمال من مصادر التمويل الخارجية

المرصودة لهذه الأغراض الإنمائية، والمشروعات الاقتصادية السياحية العلاجية الهامه.

المواد والعناصر المعدنية وفوائدها العلاجية

كانت نتائج أعمال البحث والدراسة قد أسفرت عن وجود مجموعه من العناصر الكيميائية والمواد المعدنية الموجودة في مياه هذه الهضبة وحماماتها الطبية الطبيعية: نوع هذه المواد والعناصر وتحديد نسبة أجزائها الكيميائية في اللتر الواحد والتعريف بفوائدها العلاجية، لعل أهم مايلفت النظر في واقع هذه القائمة الإحصائية هو وفرة عنصري الهيدروجين وثاني أكسيد الكربون الحر. إذ يشكل مانسبته ٣ على ألف في اللتر الواحد وهذا يعني بأن مادة الكبريت عالية جدا، وتشكل استخداماتها بشكل عشوائي خطرا على الصحة، خاصة لأصحاب مرض القلب، والضغط العالي، وأمراض الدورة الدموية، وهنا تأتي أهمية وجود إشراف طبي داخل هذه الحمامات بحيث يمكن لكل مريض معرفة الحمام الذي يفيده أكثر من غيره، وفقا لمشورة الطبيب المختص .

وقد سبق لفرق البحث والدراسة التشيكية والتونسية في هذا الإطار وضع تصاميم تطوير عمل هذا المنتجع العلاجي السياحي وغيره وذلك لصالح من يريد الاستفادة منها على صعيد العمل الاستثماري الخدمي التجاري غير أن مشاريع الخطط العلمية هذه - التي كلفت الدولة مبالغ طائلة - تنام هادئة داخل أدراج كل من وزارة الصحة، ووزارة الثقافة، والهيئة العامة للسياحة منذ عشر سنوات، ولم تقدم حتى اليوم للجهات الرسمية العليا ممثلة في هيئة الاستثمار المنوط بها واجب

طرح مشاريع الاستثمار بين يدي رجال المال والأعمال والصناديق الأجنبية المانحة الأمر الذي يطرح علامة استفهام عريضة تجاه عملية الإبقاء على هذه الدراسات الاقتصادية والعلمية حبيسة تلك الأدراج الحكومية التي ائتمنها رئيس الدولة على تسيير مصالح وشئون الوطن الخدمية والاقتصادية علما بأنه يستحيل بدون وجود مشروع الدراسة هذه قبول مبدأ فكرة إقدام أي مستثمر محلي أو أجنبي على عملية الاستثمار هذه، وليس من مبرر أمام إخفاء هذه الدراسات وعدم طرحها بين يدي رجال المال والأعمال، والصناديق الأجنبية المانحة والمقرضة إلا أن يكون الهدف من وراء ذلك الإخفاء هو تعمد حرمان الوطن من مظاهر التطور والتقدم فضلا عن انعدام الشعور بالمسئولية تجاه ثقة القيادة السياسية العليا، واللامبالاة من المسائلة السياسية والجنائية التي لن يتأخر حدوث زمن رفع هذه المسائلة في وجوههم عاجلا أم آجلا. وهو ماحدا بي إلى تبني إعداد ونشر هذه الدراسة عموما ليس فقط بهدف توسيع رقعة الوعي الوطني التاريخي العلمي، وترويج العمل السياحي الداخلي والخارجي وحفز أجهزة العمل السياحي بالتالي على إعادة النظر في خططها وبرامجها المتدنية، وتصحيح معطيات إصداراتها العلمية الوثائقية السياحية الخاطئة وماأكثرها، بل كذلك بهدف فضح الجوانب السلبية داخل أجهزة الحكومة،وتمكين القيادة السياسية العليا من معرفة جوانب التقصير والإهمال هذه التي تلحق الضرر بسمعة الدولة ككل، وتشوه خط سير عمل هذه الدولة وإحباط مشاريع الإصلاح المالي والإداري الذي تبنته حكومة الدكتور فرج بن غانم رئيس مجلس الوزراء والمسئول الأول عن خطط وبرامج الهيئة العليا للاستثمار خاصة إذا علمنا بأن من ضمن توصيات فرق البحث والدراسة التشيكية والتونسية في هذا الخصوص هو ضرورة إغلاق حمام علي في منطقة الحيمة الداخلية، ومناشدة المسئولين بعدم التهاون

في هذا الأمر نظرا لخطورة حالة التلوث داخل هذا الحمام وارتفاع نسبة المواد الكبريتية الضارة بالأوعية الدموية وجهاز القلب وإتلاف الغدد الصماء ومسام العيون وخلايا الدماغ، الأمر الذي لم يأخذ ذلك التحذير بعين الاهتمام مثله مثل توصيات أخرى ملحة تخص مستقبل منابع عدد آخر من حمامات المياه المعدنية العلاجية التي يهددها التلوث أيضا ويعصف بها الإهمال الناجم عن عدم مواجهة الزحف العمراني وتسرب مياه الصرف الصحي، وانعدام الرقابة الصحية والإشراف البيئي، وغياب التخطيط الحضري الأمر الذي سوف يعجل باندثار مواقع هذه المنتجعات العلاجية، وجعلها غير صالحة للاستشفاء واستقبال الأفواج السياحية.

وهو ماينتظر - وفقا لتحذيرات هؤلاء الخبراء - كل من حمام السخنة وحمام علي في آنس وحمام الجارف في بلاد الروس، كما سوف نرى خلال دراسة بقية هذه المواقع والتعرف مباشرة على حقيقة أوضاعها واكتشاف أسلوب التعامل معها، ومواقف الجهات المسئولة عن صيانتها، وتطلب العناية بها، بما يتوافق مع التحذيرات والتوصيات المطروحة بين أيديهم منذ عشر سنوات وأكثر .

منتجع حمامات آنس (علي) والجارف

تدخل معظم تضاريس منطقة آنس في إطار التكوين الجيوفيزيائي البركاني الخامد، وهي بالإضافة إلى كونها أرض زراعية خصبة تشغل كل مساحة قيعانها وسهولها الواسعة المفتوحة ، فإنها تملك من ناحية أخرى مناخاً جغرافياً معتدلا وهواء رائقاً على مدار العام .

وقد أهلها موقعها المتوسط بين السلسلة الجبلية البركانية الجنوبية (الطويلة) في الشمال والشمال الغربي لليمن أهلها للقيام بدور المعبر الإنتقالي على الصعيد المناخي نحو الأجواء الأخرى المجاورة الأقل اعتدالاً في الشمال والشرق و تلك الواقعة في الغرب ، التي تصل درجة حرارتها فوق الأربعين عند ساحل البحر الأحمر.

لذا فقد اشتهرت منطقة آنس بزراعة الحمضيات ، وذلك بقدر شهرة علماء هذه المنطقة التي احتضنت بدورها دولة الإمام المتوكل على الله إسماعيل الذي أعاد وحدة اليمن في القرن الثامن عشر للميلاد وتألقت في ظل هذه الدولة الوحدوية مدينة ضوران بحصنها وقلعتها التاريخية ، وصارت قبلة يقصد مدارسها ومعاهدها هواة العلم ، والمعرفة وطلاب السلطة والجاه والحكم .

على صعيد التركيبة الجيولوجية تحتل الصخور البركانية في منطقة بلاد آنس مساحة واسعة تشاهد بوضوح في تلك الترسبات الأفقية مع طبقات الصخور الجيرية والكلسية الغنية بالمواد المعدنية ، والعناصر الكيميائية بالأخص منها مادة البوتاسيومات، والكوارتز ذو اللون الداكن.

وحيث تخرج من جوف بعض هذه الصخور الجبلية البركانية، المياه الحارة، وذلك

عبر طبقة (الريوداسيت) الغنية بعنصر (البلاجيوكلاز) الذي يزيد على مادة البوتاسيوم بكثير ، تغلف هذا العنصر الحيوي ، مادة بلورية دقيقة تحفظه من عملية التبخر ، وكلا المادتين مفيدة لتنشيط الدورة الدموية ووهن العظام ، والتخفيف من أوجاع آلام الظهر والمفاصل.(١٥)

معدل فارق الإرتفاع بين هضبة المنطقة وبين قمم الجبال المحيطة لايزيد على مائتي متر ، ويبدومن حركة اتجاه الوديان بأنها في تغيير مستمر وفقاللتغيرات الأرضية الحاصلة في المنطقة التي يكثرفيها الهزات الأرضية والإرتجاجات الزلزالية عبر دوُرة واحدة كل عشر سنوات إلى عشرين سنة .

على الجانب الأيمن من منحدر وادي حمام علي يشاهد مجموعة من الجلاميد الصخرية البازلتية التي تمثل نتوءا طبيعياً للجبال البركانية العالية المجاورة .

من داخل هذه الجبال على ارتفاع ألف وستمائة متر من سطح البحر تتدفق ينابيع مياه حمام على المعدنية العلاجية، وتبعد هذه الحمامات عن مدينة ضوران بعشرين كيلو متر والوصول إليها يتم عبر منعطف جبل ينحدر نحو قرية الحمام هذه إذا كان القادم إليها من جهة مدينة ضوران، تبدأ هذه الطريق الممهدة وذلك من قرية جبل الشرق الواقعة على خط طريق معبر - الحديدة الإسفلتي غرب مدينة ضوران.

ليست حمامات علي هذه هي المنتجع الصحي الوحيد في منطقة بلاد آنس هناك أربعة مواقع آخرى تتفجر فيها ينابيع المياه المعدنية الحارة ، ويؤمها الكثير من الناس بهدف الاستحمام وطلب الشفاء . منها حمام القفر، وجارف وحمام(قمة).

تقع هذه الحمامات شمال غرب مدينة ضوران على بعد خمسة وعشرين كيلو متر، والوصول إليها سهل عبر طريق ترابي ممهد، وتمثل موقعاً سياحياً جميلاً يؤهلها

لإقامة منتجع صحي وسياحي حديث .

مواصفات حمام علي

عند الضفة اليمنى للوادي ا لذي تتوسطه مباشرة قرية حمام علي يوجد أربعة ينابيع حارة تمول عشر بركات موزعة بدورها على أربعة حمامات منفصلة عن بعضها، إثنان منها للرجال ، يعرف إحداها باسم حمام الإمام ، نسبة إلى الإمام المتوكل على الله إسماعيل ، والآخر باسم حمام الحسين أخيه. أما الحمامان الآخران فقد خصصا للنساء يطلق على أحدهما اسم حمام علي، والآخر اسم حمام(المصلى).

على صعيد تنظيم أسلوب عملية الإستحمام داخل هذه البركات ومواصفاتها المعمارية نجد حمام الإمام وحده الذي يمتلك بعض الخصائص الشكلية المميزة فهو من حيث المنظر الخارجي المعماري يحظى بوجود قاعة للراحة وبركة صغيرة للإستحمام بعيدة عن المنبع مساحة هذه البركة ثلاثة متر طول في ثلاثة عرض ، وعمق متر واحد .

وهناك بركة صغيرة ملحقة بحمام الإمام هذا ، خاصة بالأطفال تملك نفس المواصفات وتقع محل يسار مدخل ا لحمام .

كلا البركتين في حاجة إلى ثلاث ساعات يتم ملئهما بالمياه الحارة التي تبلغ ٦٣درجة مئوية وتواجه مشكلة ارتفاع درجة الحرارة هذه بطريقتين تتم الأولى بواسطة دفع الماء البارد إلى البركة ، والثانية عن طريق تسرب الهواء البارد القادم من ثقوب عملت خصيصاً في سقف الحمام تبلغ دائرة الواحدة منها خمسة عشر سنتيمترا على ثلاثين .

مواصفات حمام الإمام من هذه الناحية يشكل جواً مريحاً لمنبع مياهه المعدنية العلاجية هذه على عكس بقية مواقع الحمامات الآخرى بما فيها حمام النساء التى تتعرض منابعها للضغط نتيجة وقوع المنبع داخل برك الإستحمام الجماعية غير الصحية .

بالنسبة لحمام الحسين ، فإنه يحتوى على ثمان بركات مساحة كل واحدة منها مترين في واحد ، ويتطلب نصف ساعة لتعبئتها من المياة الحارة.

على غرار مواصفة حمام الحسنين هذا قد يكون حال وضع حمام النساء الذى يتعذر الدخول إليه غير أن القاسم المشترك بين كل هذه الحمامات التي يفد إليها الناس بالآلاف بمعدل مائة وخمسين شخصاً كل يوم . القاسم المشترك هذا هو خطر الزحف العمراني العشوائي الذي يهدد مستقبل عمل هذه الحمامات ذات الشهرة السياحية العالية والفوائد العلاجية الكبيرة .

يمكن تفادي هذه المشكلة عن طريق وضع مخطط للقرية واستحداث مجاري للصرف الصحي بعيداً عن محزون مياه الحمامات، وهناك إمكانية واسعة لاستغلال مجموعة الينابيع الأخرى المجاورة التي تشق طريقها في الأرض ويستخدمها السكان لأعمال الغسيل رغم أن خمساً من هذه العيون تملك قوة دفع أعلى بكثير من تلك الحمامات ، وتنتج الواحدة منها من ٤٠ إلى ٦٠ لتر في الثانية ، وهو معدل كبير جداً يؤهل الموقع لإقامة منتجع سياحي علاجي يتسع لألفي سرير في اليوم ، وتمتلك هذه المياه - بالإضافة إلى ذلك - درجة حرارة تبلغ ٦١درجة مئوية ، وكلها خالية من ثاني أكسيد الكربون الحر الضار بالصحة .

الفوائد العلاجية الطبيعية لحمام علي

وفقاً لما توصلت إليه نتائج أعمال الدراسة الميدانية والملاحظة السريرية ، والتحاليل المخبرية ، فإن مياه حمام علي هذه تتمتع ببعض الصفات الكيميائية العلاجية ، الخالية من عنصر البيكربون الحر ، مع ارتفاع نسبة المواد الكلسية والزنك ، والكوارتز، ومشتقات البوتاسيوم وذلك إلى جانب العديد من المواد المعدنية والعناصر الكيميائية الأخرى تشملها كما نشاهد قائمة الجدول البياني جميعها كما يحمل الخصائص العلاجية الهامة بالذات معالجة أورام الكبد ، وأمراض الإصابة بالتسمم الذاتي طويل المدى الناجم عن رش شجرة القات بالمواد الكيميائية فضلا عن مكافحة الأورام الخبيثة ، ومجابهة تلف الخلايا العصبية، وتنشيط الغدة الدرقية والنخامية التي يقوم عليهما سر نجاح المقدرة الدفاعية لجسم الإنسان .

وتمتلك منطقة الحمامات هذه من ناحية آخرى أهمية خاصة على الصعيدالسياحي سواء من حيث مناظر الجلاميد الصخرية البازلتية الملونة وجمال الوديان الخضراء الإنسيابية ، والمدرجات الزراعية البهيجة أو من حيث الهواء الطلق ، وصفاء الجو الخالي من التلوث اللهم إلا من وفرة الأوكسجين الذي تمتلك وديان المنطقة مخزونا كبيرا منه، كذا على صعيد الموقع الأثري التاريخي ، الغني بالقلاع والحصون وبمظاهر فنون العمارة ، وهندسة بناء الطرق المعبدة بالحجارة ، وتشييد صرح جامع المدينة الكبير اللافت للنظر في طريقة بنائة ، وطراز معماره اليمني الأصيل وحيث يشكل كل ذلك لوحة فنية يستحيل نسيانها بسهولة ،ويصعب على أي لوحة آخرى استبعادها والحلول مكانها .

منتجع حمام بلاد الروس (الجارف)

داخل وادي الأعشار الزراعي الجميل يقع منتجع حمام جارف العلاجي الطبيعي الذي لايكف عن استقبال مئات الزوار بوميا أولئك الذين يستهويهم جمال الطبيعة ومناظر الجبال والخضرة، والتمتع بحمام شمس لبعض الوقت أو الاستحمام داخل ينابيع المياه المعدنية الحارة العلاجية وهو مايفضله الكثير منهم، نظرا للفوائد الصحية العائدة منها.

يقع وادي الأعشتار هذا في قلب منطقة بلاد الروس على بعد ثلاثة وعشرين كيلومتر جنوب شرق العاصمة صنعاء ليس بعيدا عن مواقع آثار وأطلال قصور ومعابد الدولة الحميرية المتأخرة التي جعلت من أراضي (غيمان) المجاورة أحد مراكز الحكم الحضري الرئيسية الثلاثة بينون في بلاد الحداء، وظفار في بلاد يريم، وغيمان، هناك في بني بهلول اللصيق بوادي الأعشارهذا الموجود في بلاد الروس، حيث بمقدور الزائر السائح لموقع حمام جارف هذا الجمع بين المتعة السياحية الأثرية الهامة وذلك إلى جانب المتعة النفسية والمعالجة الجسدية الطبيعية.

يتموضع موقع حمام جارف هذا على مرتكز صخري صعب المرتقى ، كما وأنه بعيدا نسبيا عن مراكز التجمع السكاني، غير أن الإقبال عليه رغم ذلك كبير جدا ، ويؤمه الكثير من الزوار المرضى على مدار فصول العام من مناطق وأراضي شتى داخل اليمن وخارجه وذلك نظرا لما لمسه ويلمسه الكثير من الناس على صعيد المردود العلاجي أثبتت الأبحاث الميدانية، والمراقبة السريرية، والتحاليل المخبرية، مصداقية الاعتقاد الجماهيري هذا بالأخص مقدرة مياه حمام جارف هذا على معالجة الكثير من الأمراض التي صعب على المعالجة السريرية شفائها في حين تنهض مياه هذا الحمام

بتقديم العلاج الناجح لها نظرا لغنى مخزون مياهه بالعديد من المواد والعناصر الكيميائية الخالية من مركبات البيكربون الحر غير المرغوب فيه على الصعيد العلاجي الطبيعي الشئ الذي يتميز به موقع حمام جارف هذا.

ليس من تفسير غير هذا لسبب مبادرة رئيس الجمهورية الشخصي لتحسين أوضاع وعمل هذا الحمام استجابة منه لتزايد أعداد زواره المرضى، وحاجتهم الملحة إلى توسيع حجم نشاطه، وإيجاد أماكن جديدة للاستحمام تتناسب مع حجم هذا التزايد المستمر.

تمثلت هذا المبادرة التي تمت عام ١٩٨٧م تمثلت في إنشاء أربعة عشر بركة جديدة، سبع منها للرجال ومثلها للنساء، والأطفال كلها عملت بالبلاط توخيا للنظافة، ولمجابهة مظاهر التلوث البيئي الخارجي، الذي كان كثيرا مايرافق عملية الاستحمام الجماعية ويحد من فعاليتها العلاجية الهامة.

الوصف الطبيعي لموقع الحمام

يتصدر موقع حمام جارف على الصعيد العلاجي الطبيعي يتصدر أماكن المنتجعات الطبيعية الهامة في اليمن، ومؤهل أكثر من غيره لإقامة منتجع صحي حديث عليه بمقدور هذا المنتجع خدمة ألف مريض يوميا.

يرتفع موقع الحمام عن سطح البحر بنحو ١٣٠٠ متر يصحب هواه بعض الاعتدال في درجة الحرارة والبرودة الخارجية، ويكتسي موقعه داخل وادي الأعشار يكتسي بعض الرواقة والسكينة، مع الإحساس بشئ من التناغم مع أجواء الطبيعة المحيطة الوادعة.

على صعيد مكونات مياه حمام جارف من المواد المعدنية والعناصر الكيميائية فإنها عديدة وتتميز بالموازنة في معدل مركبات الأجزاء الكيميائية العلاجية في اللتر الواحد وعدم غلبة المشتقات البيكربونية.

تبلغ درجة حرارة مياه المنبع خمسة وخمسين درجة مئوية مع توصيلة كهربائية تصل إلى ١,٤٠٠ ميكروساس وقوة رفع ستة لتر في الثانية.

أسفرت نتائج البحث العلاجية بأن الاستحمام المنتظم داخل مياه حمام جارف هذا يمكّن من معالجة الروماتيزم المزمن وتصلب المفاصل، والتصاقها، ومفيد كذلك للتخلص من السمنة.

نظرا لارتفاع موقع الحمام وعدم قابلية التوسع فيه فإن لدى منطقة الحمام عموما إمكانيات أخرى هائلة تتمثل في وادي الحمام وفروعه حيث تتفجر هناك العديد من الينابيع الحارة المعدنية المفيدة، يخرج من أحدها الغاز الطبيعي على مستوى حرارة في المنبع تصل إلى اثنين وعشرين درجة.

وفقا لهذه المعطيات يمكن القيام بعملية التوسع داخل الوادي واستحداث ظروف معالجة طبيعية ملائمة تتواكب مع متطلبات العصر، على الصعيد الخدمي الطبي، وتهيئة أجواء المناخ السياحي المريح، والمناسب الذي يتوقف عليه اجتذاب أعداد السائحين الأجانب.

ويفضل في هذا الإطار الإبقاء على عمل البركات الأربع عشر هذه مع وجوب التركيز على تسهيل مهمة جريان المنبع إلى الخزان العام، وذلك بهدف تخفيف الضغط على المنبع وجعله يتدفق بشكل طبيعي، فضلا عن أهمية العناية بتجديد مياه هذه البركات بانتظام حفاظا على هذه المياه العلاجية من التلوث والإبقاء على

فعاليتها ومقدرتها العلاجية العالية ، وهو ماكان قد أوصى به فريق البحث العلاجي الطبيعي التونسى الذي أشاد بدوره عند زيارة ودراسة الموقع عام ١٩٨٧م -بطلب من الحكومة اليمنية- أشاد بمبادرة رئيس الجمهورية باعتبارها الخطوة العملية الأولى لرفع درجة عمل هذا الحمام الطبيعى الهام في حين تبقى مهمة تحسين ظروف الجو المحبط وتوفير الراحة والخدمة، وإقامة المنشئات الحديثة لمنتجع سياحي وعلاجي - تبقى على كاهل الجهات الحكومية المختصة، وعلى مبادرة إستثمار القطاع الخاص.

منابع مياه حمام السخنة

بعد الكيلو ثلاثين من مفترق طريق الحديدة – صنعاء ، وطريق الحديدة – تعز المعبدة بالإسفلت توجد قرية (المنصورية) من موقع هذه القرية على مسافة عشرين كيلو متر في اتجاه شرق تقابل المرء منطقة حمام السخنة المشهور بمياه منابعه الحارة المعدنية والعناصر الكيمائية ذات المردود الطبي والفائدة العلاجية الطبيعية العالية .

هناك طريق آخر إلى منطقة الحمامات هذه لا تزيد عن خمسة كيلو متر ، تقع هذه الطرق عند تقاطع طريق مطار الحديدة - صنعاء وتخدم القادمين إلى الحمام من الأقسام الجبلية وسكان منطقة باجل والقرى المجاورة لها الواقعة شمال وشرق منطقة الحمام.

ليس بعيداً عن حافة بعض قمم سلسلة جبال السراة الطويلة المشهورة التي تمتد حتى الأراضي الحجازية في الشمال ، تواجد ينابيع حمام السخنة المعدنية وذلك داخل القرية التي تحمل نفس الاسم والقائمة على سطح أحد المنحدرات السهلية الرملية التهامية التي تشكل في مجموعها مسطحاً سهلياً واسعاً يفصل بين سلسلة جبال السراة هذه وبين حوض البحر الأحمر بمعدل ثلاثين إلى أربعين كيلومتر في المتوسط .

تغمر منطقة الحمام مجموعة كثيفة من الرمال البركانية ذات اللون الكحلي الناجم عن مخلفات عوامل التعرية الأرضية لعناصر المواد الكلسية المفيدة لجسم الإنسان عند التضميط بهذه التربة الرملية لعدة ساعات على مكان الألم ، وهي ميزة هامة على صعيد المعالجة الطبيعية الإضافية ، تسجل لصالح موقع حمام السخنة هذا ، لا تتوفر مثل هذه الميزة لدى بقية المنتجعات.العلاجية الطبيعية الأخرى ، وكثيرا ما تسعى المصحات العلاجية الطبيعية الأوربية لاستجلاب مواد الرملة البركانية هذه ، وذلك بغرض الاستفادة منها ، واستخدامها عن طريق عملية التضميط ،والدلك كعلاج طبيعي إضافي يستهدف تقوية دفاعات الجسم الخارجية ضد أمراض الحساسية ، فضلا عن معالجة أمراض وهن العظام ،

والتخفيف من أوجاع آلام الظهر ، والمفاصل ، والقيام في نفس الوقت بترميم التشوهات الجلدية ، وإضفاء بعض الجمال والنعومة على الجسم .

(اجواء مناخ منطقة الحمام العام)

على صعيد أجواء حالة المناخ الطبيعي السائد داخل منطقة الحمامات كما على مستوى التركيبة الجيولوجية والوضعية الطبوغرافية فإنها تمتلك بعض الصفات والمميزات الجمالية الخاصة .

فهي من ناحية بفضل قربها من التلال الجبلية ، وابتعادها النسبي عن مناخ ساحل البحر الأحمر شديد الرطوبة والحرارة ، والارتفاع عنه بـ مأتي وستين متراً قد اكتسبت بعض الاعتدال المصحوب دوماً بهبات النسيم العليل ، واستنشاق هواء الجبال البارد النقي وبزخات الأمطار الموسمية التي تسقط بكثافة على سلسلة جبال السراة التي تضفي بدورها بعض الشفافية على المنطقة ، وتغمرها بالبهجة الحالمة.

وعلى صعيد المكون الطبيعي الجمالي لمنطقة الحمام هذه ، فإنها تحظى من ناحية أخرى بمناظر جمالية طبيعية محيطة فريدة في نوعها ، كما في أسلوب وشكل وضع هذه المناظر الطبوغرافي الصخري الفني الذي يسحر النظر ويجلو هموم القلب ،حيث تتوزع هنا وهناك مجموعة كبيرة من الجلاميد الصخرية البركانية المدببة . وذلك على هيئة مسلات عملاقة شبيهة بأعمدة هياكل المعابد اليونانية والرومانية والسبئية التي خلفها الزمن الغابر وسط الصحراء . وعلى سفوح التلال والاكام .

يصل قطر بعض هذه الجلاميد البركانية إلى سبعة متر مربع ، وارتفاع يبلغ في المتوسط إلى ثلاثين وأربعين متر.

يكتسب منظر هذه الجلاميد مزيدا من المهابة والجلال مع تبدل ساعات الوقت ، بالأخص عند منتصف الليل تحت ضوء القمر ، كما عند غروب الشمس ، وانفلاق وجه الصبح ، بما يكفل نقل وجدان ومشاعر المشاهد إلى أعماق ملكوت الكون ، حيث تشرق النفس هناك بالسعادة ويغمرها الطهر والسرور .

(المكون الجيوفيزيائي لمنطقة الحمام)

على صعيد المكون الجيوفيزيائي لحوض مياه حمام السخنة هذا ، وطابع نشاط هذا الحوض من الناحية الهيدروجيولوجية ، فإن منطقة الحمام تدخل عموماً ضمن التركيبة الجيولوجية لجبال السراة ، بالأخص عند القسم من نتوآتها الصخرية المحاذية - كما نلاحظ لمنطقة هضبة الحمام باتجاه الشمال ، والجنوب الغربي .
تتكون معظم هذه النتوءات الجبلية أصلاً من الصخور الجرانيتية التي يعود منشئها إلى بداية العصر (الموسيني) . الحقبة الأولى منه قبل ثلاثة مليون عام .
وقد وجد العلماء منذ وقت غير بعيد ، وجدوا داخل الطبقات الصخرية هذه . بعض مشتقات (الريوداسيت) (والداسايت) التي تمثل أحد أهم مصادر المواد المعدنية الرسوبية داخل الطبقات الصخرية الجرانيتية ذات السطوع ، وقوة الإشعاع الفائق. إلا أن أحدث أعمال الدراسة والبحث الجيوفيزيائي للمنطقة في أعوام ٨٧-٨٩ أثبتت على عكس المفهوم السائد في أن مصدر المواد المعدنية في مخزون مياه حمام السخنة يرتبط في الأساس بالطبقة الصخرية الكلسية المحاذية لمجرى وادي الهضبة حيث تكمن هناك بؤرة عملية الحركة والتفاعل الناجمة عن نقطة الالتقاء والتقاطع بين منطقتين بركانيتين خامدتين . وما كان يبدو لبعض العلماء بشأن حقيقة ارتباط المواد المعدنية بالطبقات الصخرية الجرانيتية ، ظهر مؤخراً بفضل استخدام الأجهزة الحديثة - بأنه لم يكن سوى ارتباط جزئي ليس أكثر .

(ظروف أجواء الاستحمام ، ونوعية المواد المعالجة)

لقد أصبحت مواقع الينابيع الحارة وذلك داخل قرية الحمامات ، وقد استخدمت بعض هذه الينابيع كمنتجع شتوي قبل ثورة اثنين وستين وتسعمائة وألف لأفراد الأسرة المالكة ، حيث نشاهد جزء من ساحة أحد الينابيع الهامة ، داخلاً ضمن ممتلكات القصر الإمامي ، لم يكن متاحاً للاستخدام الشعبي .

يتكون هذا الحمام - كما نشاهد - من ثلاث بركات مغطاة ، وقاعة للاستراحة وأخرى للتدليك ، وقاعة لحفظ الملابس .

تبلغ مساحة هذه البركات المنفصلة عن بعضها - تبلغ في المتوسط بين مترين ونصف طولاً ، وعرض متر ونصف ، ومثله في العمق . وتتطلب كل واحدة منها أربع ساعات لامتلائها بالمياه الحارة التي تبلغ درجة حرارة خمسة وأربعين ، وقوة دفع من المنبع تصل إلى اثنين لتر في الثانية .

فيما يخص نوع المواد المعدنية ، والمركبات الكيميائية العلاجية لمياه هذه الحمامات بأحواضها الستة في مبنى القصر وخارجه ، فهي عديدة من حيث مستوى الكم كما من حيث الكيف ، وغنى في المحتوى ،مع ارتفاع معدل نسبة الأجزاء والعناصر الكيميائية العلاجية في اللتر الواحد من الماء .

تكشف اللوحة البيانية رقم عن خمسة وعشرين صنف من أنواع المواد المعدنية المختلفة تشكل مركبات الكالسيوم والصوديوم نسبة عالية فيها تصل إلى خمسين م.جرام في اللتر الواحد من الماء .

في حين نلحظ بأن مادة (الزنك) (والروندبوم) تشكل من ناحية أخرى - أغلب مركبات العناصر الكيميائية لمياه حمامات السخنة .

بفضل هذه المواد والعناصر مجتمعة اكتسب حمام السخنة هذا أهمية طبية عالية .

ورأى فيه العلماء والباحثون المنتجع الصحي الطبيعي الأول والأهم في اليمن . والوسيلة العلاجية الطبيعية الأنجع ضد مختلف الأمراض المستعصية على الطب السريري، نخص بالذكر منها - أمراض الجهاز العصبي ، وترميم العظام وإفادة عضلات القلب ، فضلاً عن معالجة أمراض الحساسية الجلدية ، والربو ، وحالات النزلات المعدية ، والتخلص من معاناة آلام وأوجاع الإمساك المزمنة .

ما يثير اهتمام المشاهد - في هذا الإطار - أن مياه حمام السخنة خالية على الإطلاق من المواد الكبريتية الأمر الذي تكتسب فيه عناصر المواد العلاجية المذكورة في قائمة هذا الجدول ، تكسب فاعلية طبية عالية ومقدرة علاجية سريعة ، بما في ذلك معالجة أمراض ومشاكل انقطاع الدورة الشهرية عند النساء ، وضد تصلب الشرايين ، وإفادة أصحاب الضغط المرتفع .

هذه الفوائد الطبية الهامة ، فضلا عن جمالية موقع الحمامات هذه ، وصلاحية الطرق النافذة إليها ، كل ذلك يكسب هذا المنتجع أهمية كبيرة ، ويؤهله كي يصبح أحد أهم وأنجع المنتجعات الصيفية الطبية في اليمن ، وأجمل معلم من معالمه السياحية التي سوف تستهوي آلاف السواح الأجانب والمحليين ، وذلك على مدار العام الذي تظل فيه الشمس ساطعة طوال النهار لمن يريد الاستلقاء تحتها ، وليالي الصيف لا تقل متعة و جمالا عن ليالي الشتاء.

وسوف يلقى أي مستثمر - بسبب كل هذه الميزات - فرصته للكسب المادي المفيد ، الذي سيتدفق على الدوام من عائدات الفنادق السياحية ، ومردود أجور استخدام الوسائل العلاجية الطبية الحديثة ، والأجهزة التقنية المساعدة.

الشيء الرئيسي قبل اتخاذ أي خطوة على طريق إقامة منتجع سياحي وطبي حديث . هو إيقاف عملية الزحف العمراني باتجاه مواقع الحمامات ، وإعادة النظر في أوضاع القرية السكنية المحيطة بالموقع ، وترتيب أوضاع الصرف الصحي الذي يهدد مخزون المياه المعدنية العلاجية ، ويشوه مستنقعه جمال الموقع وينشر داخله الرائحة الكريهة والتلوث البيئي ، ولا يقل أهمية عن ذلك اتخاذ خطوات عاجلة لتنظيم عمل الحمامات بصورة متحضرة ، ومنع استغلال المرضى من قبل المتعهدين في هيئة التعاون ومستأجر قصر الإمام ، وإيجاد بديل آخر يستثمر الموقع ويتولى رعايته ، على الصعيد الوقائي وتنظيم عملية الدخول اليومي للحمامات ، وذلك مقابل عائد مبنى القصر ، ورسوم الاستحمام.

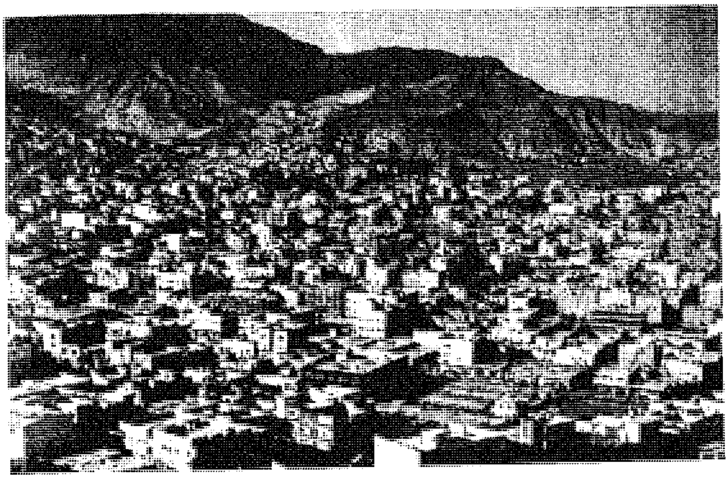
منبع مياه جبل صبر المعدنية العلاجية

منذ عام ١٩٥٦م، صار واضحا للعلماء والباحثين المعنيين بدراسة منابع المياه المعدنية العلاجية في اليمن، صار واضحا لديهم قيمة وأهمية ماتحتويه مياه جبل صبر من فوائد طبية كبيرة، تخص معالجة الحصاه في المسالك البولية، وبمقدرة هذه المياه على تفتيت الحصوات وإذابتها والتخلص من أوجاعها وآلامها على مجرى المسالك البولية عند الرجال والنساء على حد سواء.

كان معرفة ذلك قد تم على يد الطبيب الإيطالي العالم والباحث البروفسور (منتولي) الذي كان مقيما بمدينة تعز أعوام١٩٥٦/٥٥م. وذلك بعد أن أخذ بعض العينات من مياه جبل صبر هذه، وأرسلها إلى مدينة أسمره بهدف إجراء التحليل لعناصر هذه المياه والتعرف على محتوياتها، من المواد المعدنية والعناصر الكيميائية العلاجية، وذلك في أعقاب ملاحظته لكثرة حالات الإصابة لدى سكان جبل صبر بالتهاب المسالك البولية الناجمة عن تفتت الترسبات الكلسية في الكلى، وتسرب هذه المواد في شكل حصوات صغيرة إلى المثانة ومنها إلى بقية مجاري المسالك البولية، قبل أن تخرج هذه الحصوات بسلام مع إدرار البول مخلفة وراءها التهابات حادة، لم يكن الأطباء على معرفة جيدة بأسباب مصدرهذه الالتهابات التي كان يظن بأنها ناجمة عن ميكروب البلهارسيا، الذي كان منتشرا يومها بمنطقة تعز على نطاق واسع وذلك بفعل تلوث برك الاستحمام الجماعية واستخدام السكان لمياه الجوامع الراكدة.

يقع منبع هذه المياه في قرية المرازح التابعة لناحية (الموادم) داخل جبل صبر وذلك على محاذات منتصف هذا الجبل العملاق الذي يرتفع إلى ٣٠٥٠ متر عن

سطح البحر، وبالذات على مسافة ١٦٠٠ متر من ارتفاع الجبل عن سطح هضبة منطقة تعز ذو الوهاد والتضاريس المتنوعة غير المتماثلة في الشكل والمكونات الجيولوجية والصفات الطبيعية، كما من حيث المناخ واختلاف معدل درجة الحرارة في الفصل الواحد.



كما وأن هناك ينابيع أخرى تقع على مستوى أعلى من الأولى يستخدمها سكان جبل صبر لمزارع القات وذلك بعد تجميع المياه الخارجة من هذه الينابيع داخل بركة الجامع الواقع على مقربة من قصر دار النصر المقر الصيفي القديم في جبل صبر للأمير علي بن عبدالله الوزير في حكومة الإمام يحيى حميد الدين.

تتميز جميع مصادر مياه جبل صبر المعدنية بالبرودة وذلك على عكس بقية الينابيع الأخرى داخل المكونات الصخرية البركانية الجيوبية التي تملك درجة حرارة عالية، في حين يشكل حوض مخزون مياه جبل صبر المعدنية مستوى درجة حرارة سطحية تصل إلى الصفر، وتأخذ درجة حرارة أبرد عندما تتدفق من الينابيع إلى السطح يترائى للمرء وكأنها مياه جوفية عادية لاتملك أية خاصية علاجية حكمها حكم بقية ينابيع المياه العذبة الجارية عبر الوديان والسهول اليمنية المختلفة، في حين

تمتلك مياه جبل صبر الباردة هذه مجموعة من المواد المعدنية والعناصر الكيميائية العلاجية الهامة المفيدة للتخلص من حصى المثانة، وإزالة الترسبات الكلسية من المسالك البولية، وتفتيت هذه المواد داخل هذه المسالك وذلك بفضل مضاعفة عملية الإدرار التي تسرع فيها تلك الخواص المعدنية الموجودة في مياه جبل صبر هذه مما يؤهل موقع انتاج هذه المياه لإقامة منتجع صحي عليها خاص بأمراض المسالك البولية الناجمة عن ترسب الحصوات فيها، وانسداد المثانة من ثم، ومنع التبول الأمر الذي يستدعي إجراء عمليات جراحية شاقة باستخدام المجس الكهربائي، حيث تعتبر مياه جبل صبر البديل الأمثل لتلك العملية الجراحية المتعبة وقد نصح الأطباء الإيطاليون حكومة المملكة المتوكليه اليمنيه بإقامه هذا المعهد الهام وكان يتوقع من حكومة الثورة إنجاز ما لم تفعله حكومة الإمام .

نوع المعادن الموجودة في تلك المياة

تمتلك مياه جبل صبر هذه العذبة الباردة عددا من المواد المعدنية الهامة، والعناصر الكيميائية العلاجية وهي غنية بالأخص بمعدن المغنيسيوم، والصوديوم، والكربونات، ونسبة عالية من الكلورايد، وكلها رغم بعض المآخذ على العنصر الأخير، كلها ساعدت على الإسراع في إدرار البول، وقوة اندفاعه داخل مجرى المسالك البولية عند الرجال والنساء على حد سواء.

وهذا يعني امتلاك مقدرة فائقة على تفتيت حصى المثانة وتطهير الكلى والمرارة من ظاهرة الترسبات الكلسية الخطرة ، ثبت ذلك بعد إجراء سلسلة من التجارب العلمية داخل بعض المستشفيات الإيطالية في الخمسينات حيث تم إخضاع مجموعة

من الاشخاص المصابين بمرض المسالك البولية، وظهرت عليهم بوادر التحسن عند بدء تناول جرعات محدودة من هذه المياه، أسفرت في النهاية عن خروج الأحجار نهائيا والتخلص إلى الأبد من الأوجاع والآلام، نفس النتائج الإيجابية التي حصلت عليها مجموعة أخرى من المرضى المصابين بأمراض مضاعفات البلهارسيا البولية المعدية، ومرض حامض البوليك، والتهابات المثانة المزمن. (١٧)

لهذا لىس غريبا ترشيح موقع هذا المنتزه الصحي العلاجى لكي يكون المنتجع الطبي الوقائي الأول في اليمن، بالأخص معالجة أمراض المسالك البولية.

ويأمل العلماء منذ خمسين عاما -بالإضافة إلى ذلك- إقامة معهد طبي خاص بمعالجة ودراسة أعراض وأمراض المسالك البولية.

الصفات الطبيعية والجمالية لموقع مياه جبل صبر

على صعيد موقع منتجع مياه جبل صبر من ناحية جمال المناخ والتضاريس، والتركيبة الاثنوقرافية السكانية، لمنطقة تعز المحيطة به، فإنه باتساع حجمه، وشغل آكبر مساحة جغرافية في المنطقة مكتضة بالسكان ، تشكل أعمال الزراعة فيه الحرفة الرئيسية لهؤلاء السكان البالغ عددهم على كلا ضفتيه حوالي ٦٥ ألف نسمة، بما يملكه من تضاريس ووهاد جميله وهواء رائق معتدل تصحبه على الدوام هبات النسيم العليله التي تفتقر إليها مدينة تعز الرابضه تحت قدميه في وداعة حالمة، غير أنها ترفع أكفها إلى السماء طالبه التخفيف عنها من وطأة الازدحام ، وكرب الاختناق الناجم عن تلوث أحيائها وشوارعها بالغازات السامة المنبعثة من عوادم

السيارات ، مذكرة إياه (جبل صبر) بأيام سعادتهما المشتركة في الأيام الخوالي، يوم كانت المدينة التعيسه هذه تتقاسم مع جبل صبر السحر والجمال، وتشكل معه الثنائي السعيد لدولة الرفاه والحضارة الرسولية التي أقامت على جنبات المدينة مدارسها السبع المشهورة في التاريخ وذلك باسم المدرسة المنصورية، والمدرسة المظفرية، والمدرسة المؤيدية، والمدرسة المجاهدية، والمدرسة الأفضلية، والمدرسة الأشرفية، ثم المدرسة الطاهرية لاتزال بعض آثارها تتلألأ وسط المدينة في صورة مباني قببها البيضاء المرتفعة ، وشكل فن معمارها الهندسي اليمنى المدجن الرائع كما سبق الإشارة .

منتجع حمام العدين

ضمن سلسلة الجبال الجنوبية البركانية الطويلة ، تتواجد على خط عرض ثلاثمائة وعشرين تتواجد منابع مياه حمام(العدين) المعدنية العلاجية الهامة التي لم تكتشف بعد على الصعيد السياحي العلاجي الطبيعي ، كما على صعيد التركيبة الصخرية ، والتضاريس الجيولوجية ، والطبيعة الجيوفيزيائية.

تقع منطقة (العدين) وكلها آية في الجمال- تقع غرب مدينة (إب) مركز المحافظة لا يفصلها عنه سوى هضبة سهل المحافظة الأخضر الجميل الواقع إلى الغرب من المدينة ، ليس بعيداً عن سلسلة المصاطب الجبلية الصغيرة المحيطة بهذا السهل الزراعي المنفرج.

يشكل القاطع الغربي من هذه المصاطب المدخل الشرقي لناحية بلاد العدين التي تعتبر أحد أهم وأجمل أراضي محافظة أب ، حيث ما انفك تغني الشعراء بها ، وامتداح أجوائها ، وجمال مناظرها ، والنظر إليها بالتالي كمصدر للإلهام الشعري ، والإبداع الفني الأكثر رهافة وعمقاً في اليمن القديم والمعاصر.

يتراءى للمشاهد ، من هنا على هذا المرتفع الصخري الفاصل يتراءى أمامه منظر وادي (الدر) الذي يشق أراضي العدين نصفين مكوناً ضفتيها الجنوبية والشمالية، التي يتلوى داخل شعابها ومروجها الخضراء كالثعبان في تشكيلة فنية أخاذة ، لم يسع شاعر اليمن الغنائي القاضي علي العنسي ، إزاء هذه اللوحة سوى الوقوف بإجلال أمامها منشداً قصيدته الغنائية الإبداعية..

وامغرد بوادي الدر من فوق الأغصان
وامهيج صباباتي بترجيع الالحان
ما جرى لك تهيج شوق قلبي والاشجان
لا أنت عاشق ولا مثلي مفارق للاوطان.



هذه القصيدة المشحونة بالعاطفة والإحساس الجمالي المرهف . وبتوحد إيقاعها الموسيقي مع صوت الطبيعة ، ومع سيمفونية خرير مجرى نهر واديها العظيم: وادي الدّر هذا الرائع الجميل.

(التكوين الجيوفيزيائي لمنطقة الحمام)

تتبع تضاريس ناحية العدين ، تتبع المكونات الصخرية لجبال غرب محافظة إب ذات التركيبة الجيولوجية المتنوعة التي تجمع في وقت واحد بين الطبقات الكلسية الجيرية البركانية من جهة و الطبقات البازلتية من جهة أخرى ، تشغل الأخيرة قسماً من المنطقة الشمالية الشرقية وبعض أجزاء ركن المحافظة الغربي، في حين تحتل المكونات الصخرية البركانية معظم القاطع الجنوبي لبلاد العدين ، يقع أبرز نقاط تقاطعها على الضفة اليسرى - لوادي (الدّر).

تتفرج – تضاريس منطقة وادي الدّر على صعيد آخر تتفرج- على نفسها نحو الانبساط كلما اتجه مجرى الوادي إلى الغرب حيث تشكل في النهاية سهول أراضي بلاد العدين الزراعية الخصبة ذات الأجواء المناخية المعتدلة ، والهواء النقي الصحي الرائق الذي يعبق بشذا الورد والزهور ، وشجرة (الكاذي) العطرة ذات السيقان الشوكية، العريضة ، ورائحة المسك الزكية وحيث تمرح -على هوائها- وتغرد داخل هذه الأجواء حمام الدّر الملونة ، وطيور القماري البيضاء المطوقة ، والببغاوات المحاكية.

هناك على طرف بعض هذه السهول تنهض مباني مدينة العدين المركز الإداري للناحية ، القائمة على بعض المرتفعات المشرفة على أجزاء واسعة من السهول الخضراء المحيطة التي تكتسي مناظرها مع مباني المدينة طابعاً رومنسياً.

تتوحد فيه مباهج الطبيعة ، مع روعة خطوط مباني المدينة الشاهقة الملونة بالحجر الأبيض ، والأسود ، والطوب الأحمر ، والجص الأبيض ، وبجمالية تشكيلة عقود النوافذ وزخرفية الطوابق الموشاة .

بفن التقاطع التجريدي "(الأرابسك) ذو الطابع التشكيلي الذي لانهاية لدوائره الطويلة التي تكرر نفسها على امتداد حزام المبنى المربع متعدد الأدوار والطبقات .

يتموضع مخزون مياه حمام العدين - على الصعيد الجيوفيزيائي والطابع الهيدوجيولوفي ، وذلك عند نقطة تقاطع المصاطب البركانية الموجودة على الضفة اليسرى لوادي الدّر - باتجاه الغرب وفيها يقع بالتالي منابع مياه الحمامات الثلاثة هذه المتقاربة مع بعضها ، رغم ظاهرة اختلاف درجة الحرارة فيما بينها . حيث يميل أحدها إلى البرودة العادية المصاحبة للمياه الجوفية الطبيعية.

في حين ترتفع درجة الحرارة عند المنبعين الآخرين إلى مستوى عالٍ جداً يصل إلى خمسة وأربعين درجة مئوية.

السبب في هذا معروف للعلماء حيث حول هذه الظاهرة الجيوفيزيائية، في ارتباطها بطبيعة اختلاف الحاجز الصخري الذي يتوسط كلاً من حوض مياه المطرد البركانية الكلسية الجيرية الحارة. وحوض المياه المعدنية البارة الموجودة داخل الطبقات الصخرية البازلتية ، النوع غير الساطع منها أو المشع.

(الفوائد العلاجية)

على صعيد الأهمية الطبية لهذه المياه ، تقول نتائج أعمال التحاليل المخبرية بأنها تملك خاصية علاجية فريدة من نوعها لا تتوفر لدى بقية الحمامات المعدنية المماثلة وذلك من حيث مقدرتها على إفراز المادة الصفراء ، وتحسين أداء عمل البنكرياس المسئول عن الإصابة بمرض السكر.

كما تفيد من ناحية أخرى . لمجابهة ومعالجة التهاب الكبد الفيروسي . الناجم عن مضاعفات الإصابة بالبلهارسيا ، ولها فعالية أيضا ضد الإمساك المزمن الناتج عن تناول أوراق شجرة القات المشبعة بالمواد الكيميائية ، التي تؤدي على المدى الطويل إلى حالة التسمم الذاتي ، فضلا عن معالجة تلك الحالات الصعبة المتعلقة باضطراب الدورة الدموية وعدم انتظام فرز الغدة الدرقية.

الأطباء وحدهم من يعرف أعراض ومخاطر هذه الأمراض على الصحة العامة لجسم الإنسان.

لهذا تكتسب منطقة حمامات العدين الثلاثة هذه أهمية علاجية بالغة القيمة.

مما يؤهلها لاحتلال موقع متقدم على الصعيدين السياحي ، والطبي ، وصلاحية إقامة منتجع طبي خاص بإمراض الكبد الفيزوسي المعدي ، ولمراقبة مرضى السكري ، وأولئك المخزنين بالقات المبودر المعرضين للتسمم الذاتي.

منبع حمام الشعراني في جبال العود

على ارتفاع ١٦٦٠ مترا فوق جبل العود يقع حمام مياه منبع الشعراني، أحد أهم المنتجعات العلاجية الطبيعية في مناطق محافظة (إب).

يشكل جبل العود المرتفع هذا والمحاذي لجبل بعدان العملاق، يشكل امتدادا للسلسلة الجبلية البركانية الجنوبية (الطويلة) الواقعة على خط درجة ٣٢٥ جنوب شرق. والتي تزخر بامتلاك مادة الكلس الجيرية الغنية بالعناصر والمواد المعدنية العلاجية، وبمنابع المياه الحارة الحاملة لهذه المواد، والتي أصبحت مواقعها مع مرور الوقت معلما لأماكن المنتجعات العلاجية الطبيعية وهدفا لإقامة مشاريع المنشئات الطبية والسياحية.

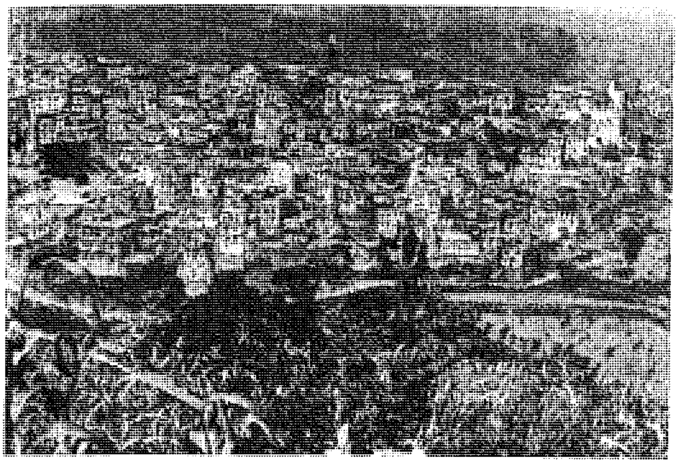
من هذه الأماكن يبرز في الصدارة موقع حمام الشعراني هذا، حيث الجو الطلق والهواء الصحي العليل، ومناظر الجبال الخلابة المحيطة، والوديان السهلية الخصبة، وشلالات المياه المتدفقة من رؤوس الجبال شاقة الطريق نحو وادي بناء بامتداده الواسع الجميل إلى منطقة هضبة حمامات مياه دمت نقطة بؤرة التقاء مركز التفاعل البركاني في المنطقة الجنوبية هذه ، الذي يشكل حمام الشعراني أحد منابعها داخل هذا المرتفع الجبلي الصخري العالي.

بالرغم من ارتفاع موقع حمام الشعراني هذا، وصعوبة الوصول إليه، بالرغم من كل ذلك فإن إقبال المرضى عليه واسع، ويؤمه سنويا - بالإضافة إلى سكان القرى والمدن المجاوره - يؤمه آلاف الزوار المرضى القادمون من مناطق وأراض شتى داخل اليمن، ومن خارجه أيضا، أملا في الحصول على الشفاء، ولقضاء بعض الوقت في الهواء الطلق، والتمتع بمناظر الطبيعة، وملكوت الكون. وأخذ حمام تحت أشعة

الشمس الناعمة المحمية بجدار الأوزون.

يبعد موقع حمام الشعراني هذا خمسة وثلاثين كم عن مركز محافظة إب، في اتجاه الطريق الذي شق منها صوب جبل العود،

ومن هذه الطريق الرئيسية تبقى مسافة عشرة كيلومترات غير معبدة للوصول إلى موقع الحمام.



ليس بعيدا عن جبل بعدان هذا المطل على مدينة إب يقع منبع حمام الشعراني.

يتواجد منبع ومجرى ماء الحمام في موقع صخري بركاني، يعود منشأه إلى الحقبة الزمنية الجيولوجية (الموسينية) في عهدها الثاني التي خمدت فيه معظم أنشطة البراكين في اليمن، حدد العلم المعاصر زمن وتاريخ ذلك الخمود إلى ماقبل مائة وثمانين مليون سنه. (١٥)

مايميز هذا الحمام الطبيعي عن غيره - من الناحية الشكلية الخارجية -في أنه مكشوف على وجه الأرض، ولايملك منبعه غطاء يحميه من عوامل الرياح والتعرية، ومجرى مياه المنبع هذا عار أيضا من الحماية الجانبية التي تقيه وتصد عنه مياه السيول والأمطار المشبعة بالأحماض والأتربة المتسخة، حيث يعمل كل ذلك على

إعاقة قوة وتدفق مياه المنبع، وتلويث مجرى مياهه ومخزونه المعدني، والحد من تأثير مفعول عناصره الكيميائية العلاجية، ذات الكفائة الطببة العالية والمردود الصحى الكبير.

الأمر مرهون هنا -أمام تحسين مستوى أداء عمل هذا الحمام في خدمة الزوار المرضى، المعرضين بدورهم لأمراض البرد، والزكام، والإخلال بنظام الدوزة الدموية، والنزلة الشعبية، والتهاب الرئة، والمفاصل، وأوجاع الظهر - مرهون بمدى اهتمام ومبادرة الجهات المستولة عن الصحة الوقائية، وحماية عناصر البيئة الطبيعية وتأهيل وتطوير أماكن ومواقع المنتجعات الصحية.

يكفي أن ننظر بوعي، وبشئ من الشفافية، والإحساس بالمسئولية تجاه هذا الموقع السياحي الجميل الذي يجتذب آلاف السياح الأجانب والمحليين وإلى أهمية المردود الصحي للناس، والعائد الاقتصادي العالي للدولة وللوطن في حال أداء هذه الحمامات الطبيعية عملها الذي أراده الله لها، على الوجه الأكمل، وتأمين ظروف أحوال الخدمة والراحة للمرضى الزائرين، وتوفير أدوات وأجهزة المعالجة الطبيعية الحديثة باعتبارذلك الشرط الأساسي في هذا العصر لما يمكن تسميته بالمنتجع الصحي الطبيعي، وهو مالايصح تسميته كذلك لكل مواقع وأماكن حمامات المياه المعدنية الطبيعية في اليمن المعاصر.

قد يكون لحاجز الأمية العلمية وعدم معرفة خصائص المعالجة الطبيعية، وجهل القيادات التنفيذية ورجال الأعمال والصنادبق المانحة بنتائج ماتوصل إليه العلماء والباحثون بشأن ذلك قد يكون السبب الفعلي المباشر للمواقف السلبية تجاه واجب القيام بالأعمال الخيرة وتسهيل نشاط الإستثمار السياحي الذي توليه الدولة عناية كبيرة وتعلق عليه آمالاً كبيرة.

ماذا تقول نتائج أعمال الدراسة والبحث بخصوص الفوائد العلاجية والطبية حمام الشعراني هذا ؟

وماهي بواعث قلق هؤلاء العلماء بشان عدم قيام هذا الحمام بالدور المطلوب منه لصالح المرضى والزائرين، ولصالح تطوير عمل هذا الحمام والحفاظ على استمرارية هذا العمل، وتطويره ورفع مستوى معدل عائده الاقتصادي السياحي العلاجي ؟

تقول بعض نتائج الدراسة الجيوفيزيائية والطبيعية لمنبع مياه ومجرى حمام الشعراني هذا بأنه يملك خاصية علاجية متميزة نظراً لارتفاع معدل التوصيلة الكهربائية للمنبع ، ولقوته الإشعاعية العالية ، التي تصل إلى ٦٧ درجة مئوية . وحيث تبلغ حرارة المياه داخل المنبع إلى ٤٣ در جة ، مع قوة دفع تساوي ثلاثة لتر في الدقيقة ، الأمر الذي يؤهل هذا الحمام لاحتلال موقع هام ومتقدم لإقامة مشروعات المنتجع الصحي المربح .

وعن خصائص مركبات ومحتوى مياه حمام الشعراني من المواد المعدنية والعناصر الكيميائية العلاجية ، ونسبة مستواها في اللتر الواحد من الماء ، وأنواع الأمراض المعالج لها. تقول نتائج الدراسة الميدانية ، والأبحاث المختبرية ، والمراقبة الطبية السريرية بأن معدل نسبة مادة رصاص الكبريت أقل منها بكثير بالنسبة لحمام هضبة منطقة دمت ، وهذا يعني بأن الاستحمام فيه لايشكل أي مضاعفة على مرض القلب وأصحاب ارتفاع ضغط الدم . إضافة إلى انخفاظ معدل درجة الحموضة، إلى أربعة وستين من عشرة في المائة والأملاح أقل من واحد على الألف . بمستوى جرام واحد في اللتر.

وتكثر في المقابل عناصر الكالسيوم والبوتاسيوم ، ونترات الصوديوم والهيدروجين ، والمانجنيز وكلها مفيدة لمعالجة الكثير من الأمراض وفي مقدمتها ، معالجة أمراض فقر الدم وإصلاح الدورة الدموية ، والنزلات الشعبية ، وأمراض الرئة ، وشد عضلات القلب ، والتخفيف من آلام المفاصل وأوجاع الروماتزم ، والصداع النصفي إضافة إلى معالجة أمراض الحمل عند النساء وضد الإصابة بعدوى الزهري، والحساسية الجلدية عند الأطفال.

كل هذه الأمراض تكلف المجتمع والدولة مبالغ مالية باهضة ، في حين تقوم هذه الحمامات بمعالجتها مجاناً خاصة إذا ماتوفرت ظروف البيئة المكانية المناسبة ، والأحوال الصحية، والأجهزة والوسائل التقنية الحديثة المستخدمة لهذا الغرض في كل المنتجعات الصحية المماثلة في العالم .

على صعيد الأهمية السياحية لموقع حمام الشعراني هذا والمردود الإقتصادي يرى الباحثون والعلماء إلى أنه ينتظر موقع حمام الشعراني هذا مستقبلاً زاهراً لبس فقط بسبب جمال الموقع وروعة المناظر الطبيعية المحيطة التي تترك أثرها الإيجابي لدى السواح الأجانب بل وللعائد الطبي والفوائد العلاجية العالية لصالح رواد الحمام من المرضى الزائرين خاصة مرضى القلب والغدد الصماء ، الذي سيجدون هنا مبتغاهم عوضاً عن المعالجة السريرية والسفر إلى الخارج وإنفاق آلاف الدولارات . الأمر الذي سوف ينعكس إيجاباً على سرعة وتيرة تبدل أوضاع حمام الشعراني الحالية ، وسوف يصبح مع مرور الأيام هدف زيارة السواح الأجانب وقبلة مرضى القلب وكل من ينشد الوقاية الصحية التامة ، والراحة النفسية ، والسلامة الجسدية .

غير أن الأهم من هذا وذاك في هذه اللحظة هو ضرورة الإسراع في إقامة جدار

لحماية مجرى المنبع من التدمير، والتلوث، وإنشاء مجموعة برك صغيرة للاستحمام الانفرادي البعيد عن الضغط على المنبع، والحفاظ على استمرارية قوة الدفع الحالية حتى يقيظ الله من يقوم بعملية التغيير الجذري للموقع، وجعله أكثر فائدة للزوار المرضى، وللسياح عشاق الطبيعة، وأماكن الهدوء، واستشراف صور الجمال والنظافة حول هذه الأماكن الجوهرة التي لاتقدر بأي ثمن.

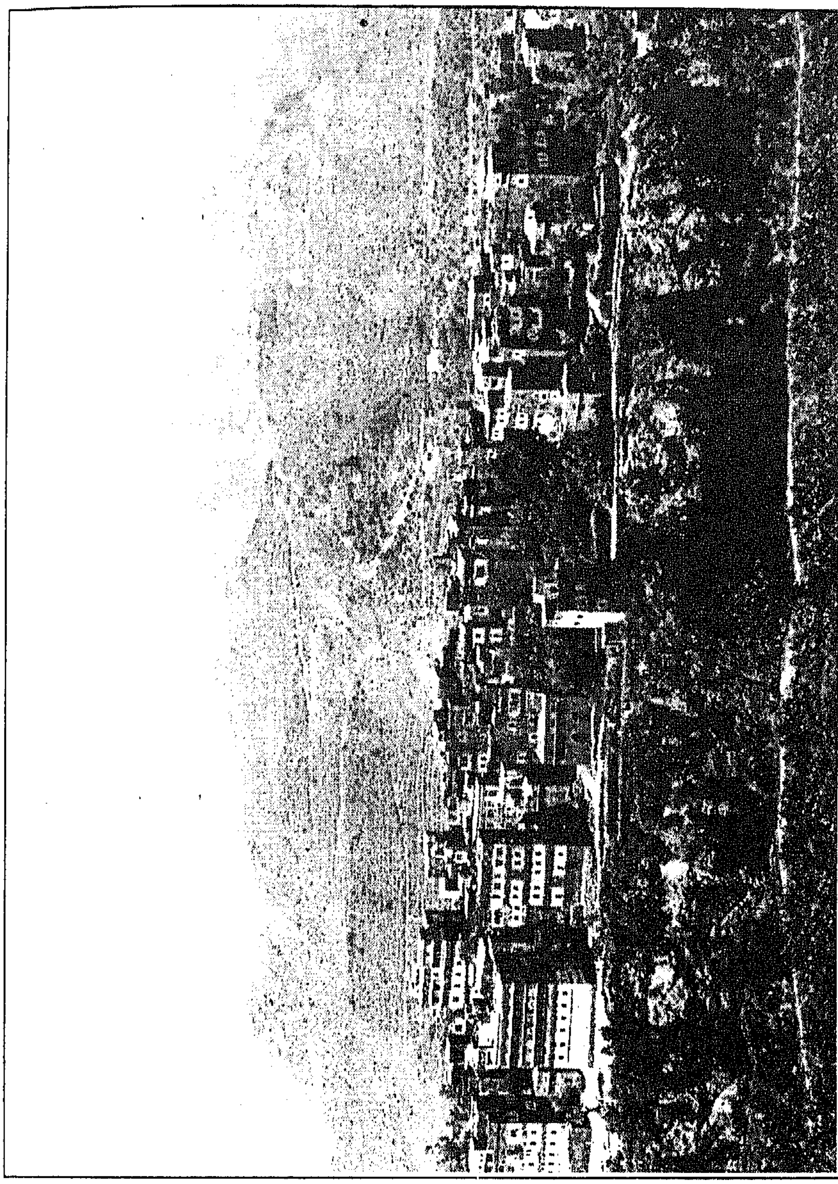
(منتجع حمام علي في الحيمة الداخلية)

عند الكيلو واحد وسبعين على طريق صنعاء - الحديدة توجد قرية بني منصور النقطة الأقرب إلى موقع حمام (علي) القائم في ناحية بني يوسف أحد أجمل مناطق بلاد الحيمة الداخلية ، وحيث لا يبعد هذا الحمام عن قرية بني منصور هذه سوى عشرة كيلومتر إلى الشمال وذلك عبر طريق ترابي شبه ممهد تتخلله بعض الوهاد والآكام المخضرّة ذات الصبغة الجمالية المتفردة والتقاطعات الصخرية الملتوية على بعضها في تركيبة فنية طبيعية ساحرة .

تدخل تضاريس بلاد الحيمة الداخلية ضمن تركيبة النتوءات الصخرية الواقعة على شرق سلسلة جبال السراة الطويلة التي تقطع الأراضي اليمنية عبر مسافة اربعمائة كيلومتر تمتد من الجنوب إلى أقصى الشمال.

تكتسب المكونات الجبلية في بلاد الحيمة الداخلية بعض التناغم والتناسق وذلك كما لو أن هناك يد رسام شاءت ريشته إلا أن تجعل من كل جبل على حدة / حداً فاصلاً يرمز به كعلامة مؤشرة إلى مواطن هذه العزلة والناحية أو تلك ، ويسير شكل تناغم هذه الجبال وتناسقها يسير من الشرق إلى الغرب ، وفق خطوط طويلة مستقيمة تفصل بينها مجموعة الوديان التي تتلوى عبر تلك الخطوط كالثعبان شاقة الطريق إلى الغرب. في حين يتعملق فوق هذه اللوحة الفنية الطبيعية من الأرض الملونة ، يتعملق من الشرق جبل النبي شعيب مما يزيد هذه اللوحة الطبيعية بهاء وجمالاً ، ويكسبها الكثير من مظاهر الوداعة والسكينة الناعمة الدافئة تحت ظل دفئ وحماية هذا الجبل.

ليس بعيداً عن تقاطع بعض منحدرات (سايلة) بني يوسف على ضفته اليسرى بالذات - تواجد منبع مياه حمام (علي) الحارة المعدنية ، الذي يأخذ هيئة مكان صغير متواضع ، مبني بالحجر لا تزيد مساحته الأرضية التي يقع فيها منبع المياه الحارة لا تزيد عن أربعة متر في ثلاثة وارتفاع مترين ونصف ، تقوم بمهمة استيعاب مجاميع أعداد المرضى الزائرين في مجموعات قد تصل إلى عشرة أشخاص دفعة واحدة كلهم ينشدون الشفاء من مرض مختلف ومتباين عن مرض الآخر.



منظر لمركز الحيمة الداخلية

فهذا يشكو من آلام المفاصل ، وآخر من الإصابة بالربو ، وثالث من حمى الصفراء ، إلى آخره.

لا يجمعهم هنا سوى حافز الهم الواحد المشترك هو التخلص من الأوجاع المرضية التي يجهلون مصدرها ، وعدم معرفة كيفية التخلص منها اللهم إلا ما سمعوه أباً عن جد من أن مياه هذا الحمام كفيلة بشفاء جميع الأوجاع.

المهم في نظر هؤلاء الزوار المرضى مثلهم مثل أجدادهم وآبائهم الذين وفدوا إلى هنا عبر التاريخ هو أن يحقق لهم هذا الحمام ما هو مطلوب ، بما يرقى إلى الهالة الدعائية التي منحته إياها العقلية الشعبية أطلقت عليه للتفضيل اسم (حمام علي) ليدخل في عداد الظاهرات الطبيعية الأخرى الخارقة في نظرهم التي تحمل نفس الاسم ، مثل حمام (علي) في آنس ، وفلقة (علي) في جبل وادي ظهر ، وحمام (علي) في الحجرية ، كما في حمامات بلاد أرحب.

لا يجد العلم أي تفسير لظاهرة ، إشاعة الاسم الواحد المشترك هذا بين مجموعة متباينة ومختلفة من الظواهر الطبيعية ، سوى اللجوء إلى التفسير (الميثولوجي) الذي تتوحد حوله مجموعة من القيم الفكرية ، والمصطلحات اللغوية الواحدة التي تتقاسمها أعراق أثنية مختلفة ومتباعدة على الصعيد الجغرافي والثقافي.

(التكوين الجيوفيزيائي لمنطقة الحمام)

على صعيد التركيبة الجيولوجية لمنطقة حمام الحيمة الداخلية هذه فإنها تعتبر امتداداً لسلسلة مكونات الجبال البركانية الشمالية الخامدة التي تعود إلى الحقبة الثالثة من العهد الموسيني.

يتراءى للمشاهد تموضع بعض نتوءاتها الصخرية في شكل تلك المصاطب التي ترى متجهة إلى الأعلى عند الضفة اليسرى لسايلة الوادي ، حيث يقع بالفعل مخزون مياه حمام علي هذا ، وليس بعيدا عن نقطة التقاء وتقاطع اتجاهات حركة هذا الوادي وذلك قبل أن يعاود سير اتجاهه مستقيما نحو الغرب.

يرتكز موقع الحمام على مخزون الطبقة الجوفية الصخرية (الإنديزية) النوع البازلتي منها الذي يملك درجة حرارة داخلية تبلغ ثلاثة وعشرين درجة مئوية تحتوي على مجموعة من المواد الكلسية ، والكوارتز ، في حين تبلغ درجة

حرارة مياه المنبع نحو اثنين وثلاثين درجة مئوية ، وذلك مع قوة دفع تصل إلى عشرين لتر من الماء في الدقيقة الواحدة.

ينتظر موقع هذا الحمام مستقبلاً سياحياً علاجياً ونفسياً مزدهراً ومغايراً وذلك بما يتناسب وقرب هذا المنتجع العلاجي الطبيعي من خطوط المواصلات الرئيسية المعبدة بالإسفلت ، وصلاحية الطريق الموصلة إليه بالتالي ، فضلاً عن جمالية المنطقة السياحي الذي تأنس بداخله النفس ، وتنسى هموم الزمن وحيث يمكن التخلص لبعض الوقت من معاناة أجواء التلوث البيئي ، ومن صحبة القلق الاجتماعي، ومضاجعة القلق الاقتصادي.

بمقدور منتجع الحمام هذا توفير خدمة لأكثر من خمسمائة زائر مريض في اليوم إضافة إلى أن المنطقة المحيطة عموماً مؤهلة لاستقبال آلاف السائحين الذين يتطلعون إلى وجود بعض وسائل الراحة ، والخدمة السياحية العادية كي ينعموا بفرصة الإقامة هنا أكثر. والتمتع بجمال مناظره الطبيعية هذه على مدى اطول. ومنح البلد دخلاً أوسع وأوفر ويتوقف هذا على مبادرة القطاع الخاص ، وصناديق الاستثمار الخارجية .

لن تأسى الجهات الممولة على سوء استخدام رأس المال الذي سوف تجمع منه الكثير. هنا كما في مناطق سياحية وعلاجية طبيعية أخرى لا تزال بكراً – مثل هذه المنطقة الجميلة في انتظار من يستثمرها ، ويفجر روح الحياة والسعادة ، والهناء داخلها.

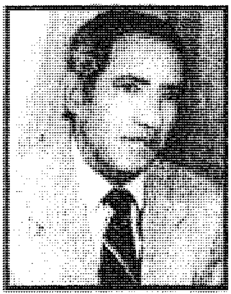
في حال عدم إجراء دراسة جيوفيزيائية عامة للموقع ، واستكشاف منابع جديدة ، نصح الكثير من العلماء والباحثين العرب والأجانب الذين استقدمتهم الدولة للتعرف على طبيعة الموقع من الناحية العلاجية . نصحوا بأهمية عدم المجازفة بحياة المرضى والسماح لهم بمواصلة عملية الاستحمام البدائي الذي تتفشى فيه وتتسع أعمال التلوث والإصابة بالعدوى المرضية الناقلة . . ويفضل في هذه الحال إغلاق عمل الحمام إلى أن تتوفر للموقع ظروف أفضل ، واكتشاف مخزون للمياه المعدنية الحارة ، آخر تقل فيه نسبة المواد الكبريتية الضارة قياسا إلى معدل ارتفاعها في هذا المنبع غير الصالح للاستحمام فيه.



المراجع والمصادر العربية والأجنبية

١ - أحمد فخري. رحلة أثرية إلى اليمن - مترجم إلى العربية ١٩٨٨م - صنعاء
٢ - بتروفسكي ميخائيل - اليمن قبل الإسلام. ترجمة محمد الشعيبي. بيروت ١٩٧٩م
٣ - جون بولدري - العمليات الحربية البريطانية في البحر الأحمر. القاهرة ١٩٩٢م
٤ - آمال إبراهيم محمد - الصراع الدولي في البحر الأحمر - اليمن. صنعاء - مركز الدراسات والبحوث.
٥ - ايلي لومبير - تطور العمارة الإسلامية. دار آسيا بيروت ١٩٨٤م
٦ - بشرى إحسان - لمحات من تاريخ العمارة. بغداد - دار الثقافة - ١٩٨٧م.
٧ - جيمس دبولس - فن الزخرفة في صنعاء ترجمة علي محمد زيد . دمشق ١٩٩٦م.
٨ - أوسكر لوفين - صفة بلاد اليمن. طبعة ثانية ١٩٨٦م. - المدينة -
٩ - الهمداني: صفة جزيرة العرب تحقيق محمد علي الأكوع، - السعودية - ١٩٧٤م.
١٠ - الرازي: تاريخ مدينة صنعاء تحقيق د/حسين العمري -صنعاء- ١٩٧٤م.
١١ - العرشي: بلوغ المرام تحقيق الكرملي، ١٩٣٩م.
١٢ - الحجري: بلاد اليمن وقبائلها وزارة الإعلام - صنعاء -
١٣ - الموسوعة اليمنية. مؤسسة أحمد جابر عفيف -صنعاء - بيروت دار الفكر - ١٩٩٢م.
١٤ - بامخرمة - تاريخ تعز ، عدن المدينة ١٩٨٦م، الطبعة الثانية.
١٥ - تقرير البعثة العلمية التشيكية لعام ١٩٨٧م بخصوص أوضاع حمامات المياه المعدنية
١٦ - تقرير البعثة العلمية التونسية ١٩٨٥م بخصوص أوضاع حمامات المياه المعدنية.
١٧ - تقرير البعثة الطبية الإيطالية لعام ١٩٥٤م عن المياه المعدنية العلاجية في صبر، وبلاد العدين.

١٨ – أناستاسيا بوتنصفنا . الآثار تؤدي إلى رمال الجزيرة العربية ترجمة محمد الشعيبي. دار الكتاب دمشق ١٩٩٠م.
١٩ – عامر بن آل الرشيد مخطوطة حياة الإمام القاسم بن محمد تحقيق محمد الشعيبي.
٢٠ – محمد الشعيبي. عبد الناصر والفريق حسن العمري، صنعاء مطبعة المفضل ١٩٩٥م.
٢١ – إسماعيل الوشلي: مخطوطة: تهامة والمخلاف السليماني ، ذيل نشر الثناء الحسن. تحقيق محمد الشعيبي / صنعاء مطبعة العصر الحديث ١٩٨٠م.
٢٢ – محمد الشعيبي: وثائق الثورة اليمنية والقوى المضاده . دار الكتاب – دمشق – ١٩٨٧م.
٢٣ – ابن المجاور – مخطوطة صفة بلاد اليمن.
٢٤ – محمد عبد الملك سام، تاريخ المساجد في اليمن. صنعاء ١٩٩٥م.
٢٥ – أحمد حسين شرف الدين – رسالة غمدان – صنعاء ١٩٧٥م.
٢٦ – لوسين تاميميان: اليمن كمايراه الآخر. المعهد الأمريكي للدراسات اليمنية ١٩٩٧م.
٢٧ – الهمداني مخطوطة الجوهرتين ، تحقيق /محمد الشعيبي. دمشق ١٩٨٧م.
٢٨ – بيلوفسكا / العرب على حدود بيزنطة، الكويت ١٩٨٥م.
٢٩ – شبوه، نتائج أعمال البعثة الأثرية الفرنسية – صنعاء ، المركز الفرنسي – ١٩٩٦م.
٣٠ – فيض الله الهمداني – الفاطميون في اليمن – صنعاء وزارة الإعلام
٣١ – محمد الشعيبي. شهيد وطاغية، دمشق ١٩٨٧م.
٣٢ – الجديد حول الشرق القديم – دار التقدم – موسكو ١٩٨٥م.
٣٣ – اسماعيل الأكوع : هجر العلم ومعاقله (ج٢ صـ٥٨٦) دمشق – دار الفكر – ١٩٩٥م.
٣٤ – د / سيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول – القاهرة ١٩٦٨م.
٣٥ – الإعلانات الدعائية لجهاز السياحة.



المؤلف في سطور

* من مواليد عام ١٩٣٨م

* حاصل على شهادة البكالوريوس في علم الصحافة من موسكو، وعلى ليسانس آداب قسم التاريخ -من جامعة صنعاء-

* كما حصل على درجة باحث بمستوى مدرس جامعي وذلك من المجلس العلمي لمركز الدراسات والبحوث اليمني.

* عمل في مختلف أجهزة الثقافة والإعلام: في الإذاعة والتلفزيون ومديرا لإدارة الصحافة بوزارة الإعلام -أسس أول جهاز لوكالة الأنباء اليمنية «سبأ» عام٦٣م، فصحيفة صنعاء المتحدثة بلسان حال شباب الثورة، وترأس تحرير أول مجلة للإذاعة

- كما ساهم في إنشاء المكتب الفني نواة جهاز الإحصاء والتخطيط، كذا مركز الدراسات والبحوث اليمني، وشغل منصب أول مبعوث إعلامي لليمن الجمهوري خارج البلاد -ملحقا صحفيا بالقاهرة، فمسئولا ثقافيا بسفارة اليمن في موسكو

- كما عمل مع المشير السلال، والفريق العمري، والقاضي الإرياني، وإبراهيم الحمدي، واشترك معهم في النضال على الصعيد الداخلي والخارجي.

- سبق أن انخرط في العمل الوطني قبل الثورة، وشارك في تأسيس بعض

التنظيمات الحزبية المدنية والعسكرية،

- عضوا مؤسسا لحزب التجمع الوطني الوحدوي الديمقراطي برئاسة المرحوم عبدالله عبدالرزاق باذيب.

- يعمل الآن باحثا متفرغا، ومؤرخا في مركز الدراسات والبحوث اليمني، ومسئولا عن جمع الوثائق والمخطوطات اليمنية من الداخل ومن المكتبات العالمية في الخارج.

صدر للمؤلف

١ - وثائق الثورة والقرى المضادة «مؤتمر حرض ومحاولات السلام فى اليمن» صدرت منه ثلاث طبعات موسعة.

٢ - وثائق ودراسات.

٣ - حول الثقافة والفكر في اليمن دراسه نقديه .

٤ - تاريخ اليمن قبل الإسلام والقرون الأولى للهجرة. مترجم عن الروسية.

٥ - الآثار تؤدي إلى رمال الجزيرة العربية ... مترجم عن الروسية ، عن رحلة (زيتسن) الألماني إلى اليمن والشرق في منتصف القرن الثامن عشر.

٦ - تحقيق مخطوطة: الصفراء والبيضاء من الذهب والفضة لعلامة اليمن أبي الحسن الهمداني.

٧ - تحقيق مخطوطة: تهامة والمخلاف السليماني للمؤلف إسماعيل الرشلي. (ذيل نشر الثناء الحسن)

٨ - شهيد وطاغية: قصة حياة الشهيد عبدالله محمد اللقية.

٩ - عبدالناصر والفريق العمري، رؤية نقدية تاريخية وسياسية.

١٠- اليمن الظاهرات الطبيعية والمعالم الأثرية .

تحت الطبع

* مخطوطة: «نزهة الظرفاء وتحفة الخلفاء» للملك الرسولي الأشرف.

* مخطوطة: «تلخيص البيان في ذكر فرق أهل الأديان» مرشحة للحصول على جائزة معهد المخطوطات العربية.

* مخطوطة: «بغية المزيد وأنس الفريد» عن حياة ونضال الإمام القاسم بن محمد. والصراع من أجل إعادة الوحدة.

* مخطوطة: «نشر الثناء الحسن» لإسماعيل الوشلي - مؤرخ يمني من القرن الثالث عشر، في ثلاثة مجلدات، مكرسة لتراجم حياة وأعمال كوكبة من العلماء، والأدباء، والشعراء، في تهامة والمخلاف السليماني، مع دراسة (بيبلوجرافية، واثنوجرافية) تشمل عدد السكان وتوزيعهم المكاني، والمعيشي، والثقافي التاريخي، والأسري على امتداد فترة ألف عام.

الخواص الطبيعية للماه : -

الشفافية : واضحة	المؤشر الهيدروجيني ٧,٧٥
اللون : بدون	التوصيلة ( ) ٠,٠٨٠
الرائحة : بدون	الترسب : بدون
الحرارة :	

الخواص الكيميائية : -

القساوة : الكلية بـ ٠,٨٤	٢,٣٥	ثاني أكسيد الكربون الحر	٦,٦٠
الكربون : ٠,٨٤	٢,٣٥	عدواني على	
غير الكربونات : ٠,٠	٠,٠		
الكالسيوم : ٠,٥٤	١,٠١	إجمالي الأملاح المذابة	١٠٤٢,٤١
المغنيزيوم : م ٠,٣	٠,٨٤		
الحامضية : ٠,١٥			
القلوية : ٧,٣٦			

نموذج من نتائج تحاليل أعمال البعثة العلمية التشيكوسلوفاكية وذلك عام ١٩٨٧م برئاسة العالم ستافتين براها ملحق رقم (١)

<u>خصائص طبيعية :</u>

الوزن النوعي في ١٥ درجة مئوية	١,٠٠٠٩٢ درجة مئوية
درجة التجمد	٠,١٥ درجة مئوية
مترسبات ثابتة في مائة درجة مئوية	٣,٤٣ جرام
مترسبات ثابتة في ١٨٠ درجة مئوية	٢,٤١ جرام
رواسب كلسية	٢,٤٠ جرام
مواد مفقودة خلال التحليل	٠,٩١٠٠ جرام

<u>عناصر وجزيئات في حالة كهربية في اللتر الواحد :</u>

صوديوم	,٧٧٦٤ جرام
بوتاسيوم	,٠٠٢٤ جرام
كالسيوم	,٠٣٠٠ جرام
ماغنيسيوم	,٠٠٢٤ جرام
حديد مختزل	٠,٠٣٣٤ جرام
كلور	٠,٦٠٢٤ جرام
كربونات	٠,٢١٥٢ جرام
كبريتات	٠,٦٥٦٠ جرام
كبريتيد	,٦٧٨ جرام
سليكات	,١٢١١ جرام

<u>احتمال التجمعات الكيميائية في اللتر الواحد :</u>

كلوريد البوتاسيوم	٠,٠١٤٥ جرام
كبريتيد الصوديوم	٠,١١٥٣ جرام
كلوريد الصوديوم	٠,٠١١٨ جرام
كبريتات الصوديوم	٠,٨٦٤٠ جرام
هيدروكربونات الصوديوم	٠,١٥٢٢ جرام
هيدروكربونات الكالسيوم	٠,٠١٥٢ جرام
حمض السليكات النصفي	٠,١٢١١ جرام

نموذج من أعمال التحاليل للمياه المعدنية العلاجية التى أجرتها البعثة الطبية الإبطالية فى عام ١٩٥٥م. ملحق رقم (٢)

ب

National Water & Sewerage Authority Sana'a Branch Laboratory Report on Phyzical and Chemical Exam. of a Water Sample	المؤسسة العامة للمياه والمجاري فرع صنعاء المختبر تقرير بنتيجة الفحص الطبيعي والكيميائي لعينة المياه

Source of Water Sample: Wadi Habrah — مصدر عينة المياه: وادي هبرة منطقة القفر. محافظة إب

Date of Sampling: 10 /12 / 82 — تاريخ جمع العينة. ١٠ / ١٢ / ٨٢

Lab. R. No: 131 — الرقم : خاص محمد الشعببي. باحث

PHYSICAL EXAM. — نتيجة الفحص الظاهري (الطبيعي)

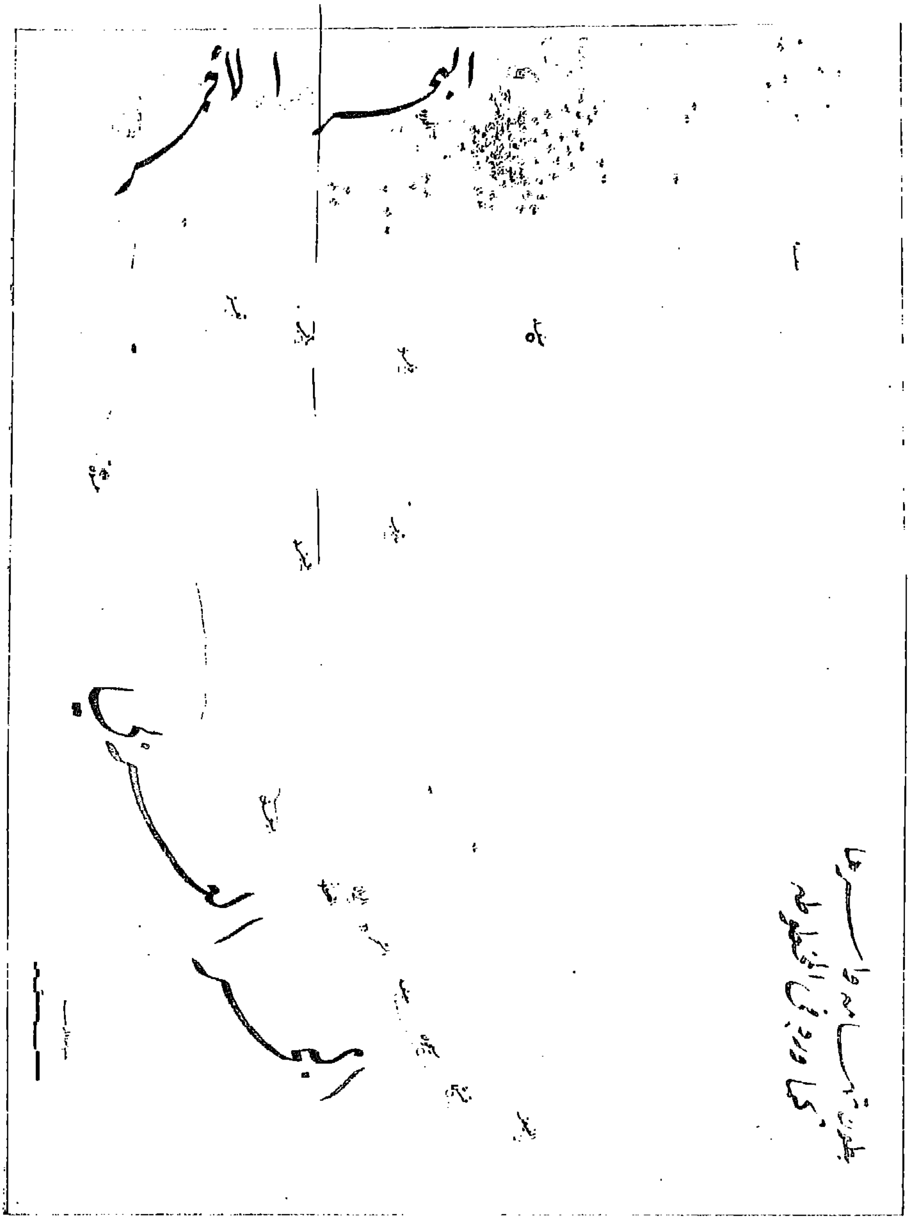
Temp	درجة الحرارة (مئوية)	
Turbidity	العكارة	
Colour	اللون:	
E. Conductivity	التوصيل الكيميائي.	

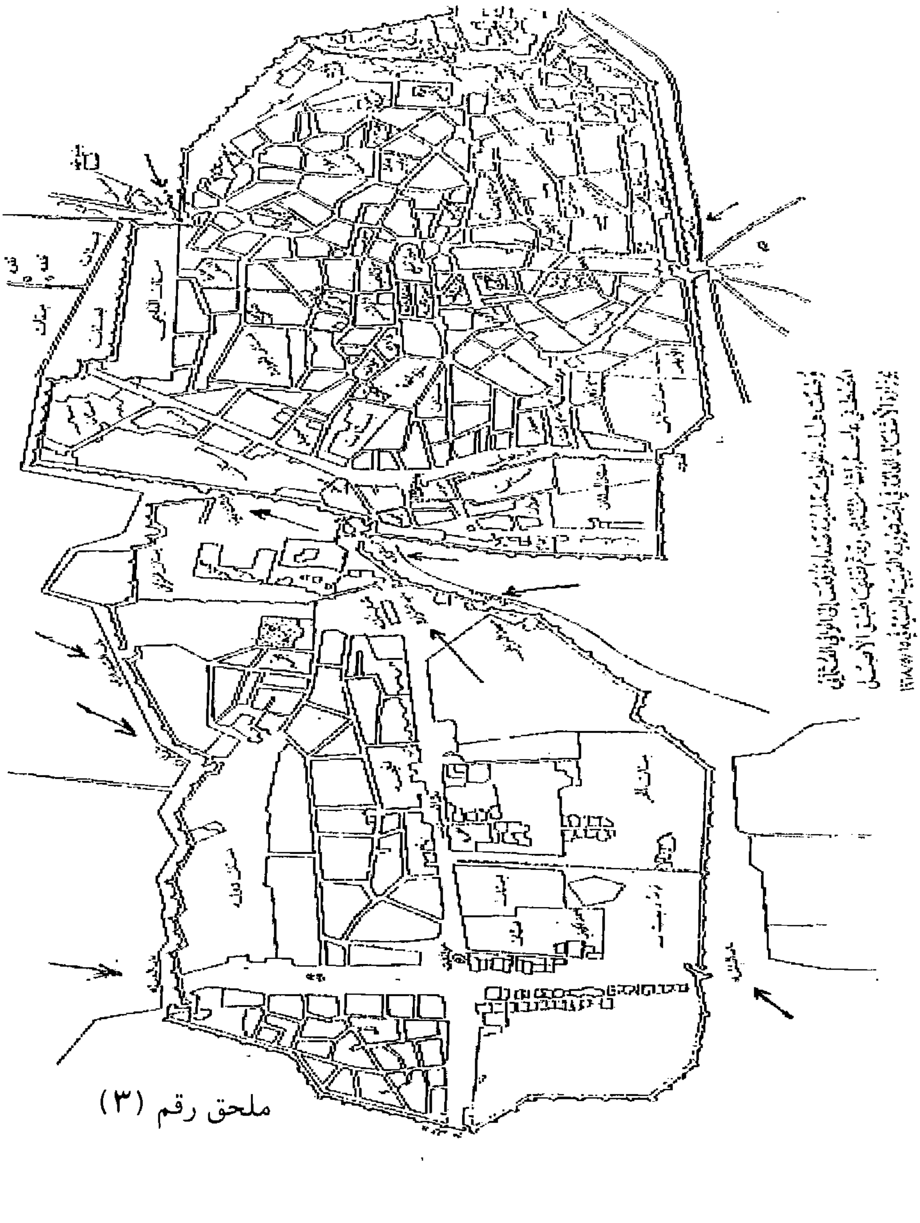
CHEMICAL EXAM. — نتيجة الفحص الكيميائي :

PH	الأس الهيدروجيني	9.6mg/l
TDS	الأملاح الكلية الذائبة	278mg/l
T.alkalinity	القلوية	
aS Ca Co3		164mg/l
Carbonates	الكربونات	133.2mg/l
Bicarbonates	بيكربونات	49.3mg/l
Hydroxyl content		Zero
T. Hardness	عسر الماء	
aS Ca Co3		Zero
Calcium	كالسيوم	Zero
Magnesium	ماغنيسيوم	Zero

Chlorides	كلوريدات	14 mg/l
Sulphates	كبريتات	1.3 mg/l
Nitrates	نترات	0.1 mg/l
Fluorides	فلوريدات	——
Nitrates	نيتريت	N.I
Ammonia	نشادر	N.I
Iorn	حديد	——
Sodioum	صوديوم	92.6 mg/l
Potasium	بوتاسيوم	0.6 mg/l

نموذج من أعمال التحاليل التي أجراها المؤلف محمد الشعيبي والباحث وذلك في بلاد إريان منطقه القفر ، وادي هبره. حيث توجد بعض منابع المياه المعدنية العلاجية. ملحق رقم (٤)

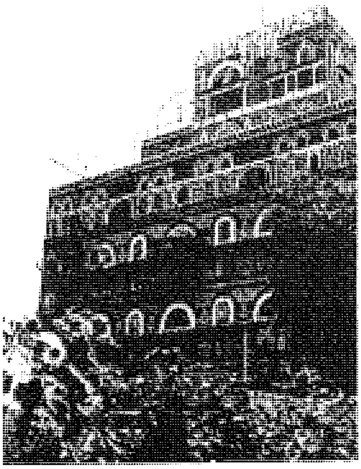

بطون تهامة وأسرها
كما ورد في المخطوطة
البحر الأحمر
البحر العربي



ملحق رقم (٣)

قصر دار الحمد التأريخي

شيد هذا القصر في وسط العاصمة صنعاء على مساحة شاسعة مزروعة بأشجار الفاكهة وأحواض الزهور.



ويتكون من ثلاث طبقات عدا الطابق الأرضي ذا الأعمدة الكبيرة والأقواس الهندسية، ويمثل من الناحية الفنية الطابع المعماري الكلاسيكي.

رغم تحول المبنىّ إلى فندق فلايزال محتفظا بسمات القصور التاريخية يشاهد ذلك في مدخله الخارجي ذي القوس النصفي. المؤدي بدوره إلى الباب الداخلي الخشبي المزخرف وإلى الصالونات التي تقام فيها الحفلات المتعددة الغايات والتي يتسع بعضها لمائتين وخمسين شخصا بما في ذلك المطعم الرئيسي وقاعة عقد المؤتمرات واجتماع الشركات.

بالفندق ٣٥غرفة مجهزة بأحدث الأثاث والأجهزة الخدمية الداخلية والخارجية وهو بهذا يمثل فندق الدرجة الأولى الأفضل والأكثر قبولا ومتعة للسائح ورجل الأعمال.

الحي الإذاعي -صنعاء-
الجمهورية اليمنية
ص.ب : ٢١١٨٧ - تلكس : ٢٢٧٠
هاتف : ٢٨٣٠٥٤ أو ٢٨٣٠٥٥

AL-HAMD PALAC HOTIL
SANA'A - YEMEN REPUBLIC
P.O.BOX : 2187 - TELEX :2270
TEL : 283054 / 283055
FAX : 283117 / 284996

سعر نسخة الكتاب للقطاعين العام والخاص مبلغ(٥٠٠)ريال لاغير

و(٢٥٠)ريال للطلبة والجنود

هذا الكتاب

تحققت في غضون السنوات القليلة الماضية بعض الإكتشافات الأثرية والطبيعية الهامة في اليمن، مما حمل على إعادة النظر في طائفة من الأحكام والنظريات المسلم بها حول منشأ الحياة على الأرض اليمنية وتاريخ تواجد الإنسان الأول على هذه الأرض، ونزوحه السكاني الكبير، وحول تكون ظروف الأوضاع العرقية واللغوية والثقافية وإقامة دول الحضارة.

يهيء الكتاب فرصة لأخذ فكرة عن هذه الدراسات العلمية المستجدة، وعن الأدوات التكنولوجية التي استخدمت فيها، والتعرف من ثم على طبيعة المهام التي تواجه علماء الآثار والباحثين اليمنيين المستقبليين، وذلك في ظل ظروف الإحباط، وسوء النوايا، وتخلف منظومة العمل الإداري، وعدم كفاءة جهاز البحث العلمي وافتقار أصحابه إلى التخطيط والتنظيم.

طبعت بمطابع شركة الادويه